أحمد صدقي الدجاني

الحركة السنوسية

نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر

١٩٦٧

الطبعة الاولى
١٩٦٧

انتهيت من كتابة هذه الدراسة قبل خمس سنوات في عام ١٩٦٢ . وكنت أشعر آنذاك بأن هناك جوانب فيها بحاجة الى مزيد من الاستقصاء والبحث ، لم اتمكن من استكمالها بسبب نقص المصادر من جهة ، وعدم توافر امكانات الاستقصاء . فقد كنت ارجو أن اتعمق اكثر في دراسة المجتمع في برقة ، وأن أتعرف اكثر على الزوايا السنوسية وأهم الاماكن التي شهدت تاريخ الحركة ، وأن أدرس على الطبيعة انتشار السنوسية في افريقية ، وان أعثر على مصادر تسلط اضواء جديدة على تاريخ مؤسس الحركة في الجزائر والمغرب والحجاز . وكنت أؤمل النفس بإمكانية التصدي لبعض هذه الجوانب أو كلها بمزيد من الاستقصاء والبحث في وقت قريب، ولكن عدداً من المشاغل أخرني عن ذلك .

طبيعي ان أتردد بعد مضي هذه المدة في الإقدام على نشر الدراسة . فهي مدة كافية لتقنعني بضرورة اعادة النظر فيها على ضوء ما جد من معلومات ، وما تبلور أو تطور او تغير عندي من افكار . وقد ألحت عليّ فضلاً عن ذلك كلمة العماد الاصفهاني « إني رأيت انه لا يكتب انسان كتاباً في يومه ، الا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن . . . »

ولكن هذا لم يقنعني بإبقاء الدراسة مسجونة بين اوراقي لشعوري بأنها حال انتهائي من كتابتها لم تعد تخصني وحدي . وشجعني على اطلاقها حث عدد من الاصدقاء المطلعين عليها . فانتهى بي الرأي الى نشرها كما كتبتها دونما تعديل ، لأساهم في تسليط اضواء على حقبة من تاريخ ليبيا ، ممنياً النفس مرة أخرى أن اعود للموضوع بعد حين لمتابعته واستكمال جوانبه ، والله الموفق .

القاهرة – صيف ١٩٦٧

المقدمة

تتابع ظهور المصلحين في امتنا طوال مراحل تاريخها المتلاحقة . وكان لدى جماهير الناس فيها تهيؤ لفكرة قدوم المجددين الذين يجددون معـــالم الدين ، ويعملون من اجل نقل الناس الى واقع افضل .

وجوبه العالم الاسلامي منذ اوخر القرن الثامن عشر الميلادي بتحدي الغرب العسكري ثم الحضاري ، فكان ان ظهر في سني القرن التاسع عشر الميلادي عدد من المصلحين قاموا بحركات اصلاحية في اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي .

وقد أدت هذه الحركات دوراً معيناً في حياة امتنا ، كما كانت لها استجابات لذلك التحدي الغربي نبعت من محاولات اصلاحية قام بهـــا الافراد النخبة المصلحون .

ودراسة هذه الحركات الاصلاحية عامـــة مفيدة لمعرفة حيوية الامة ولفهم التطورات التي مرت عليها في المراحل المتعاقبة . كما ان دراسة الحركات التي قامت في القرن الماضي خاصة تلقي اضواء على الواقع الذي تعيشه امتنا اليوم ويوضح اصوله ، ويعرض خلاصة تجارب امتنا ازاء مشكلة التحدي التي لا تزال تجابهها حتى اليوم . هـــذا بالاضافة الى ان دراسة تاريخ اولئك المصلحين الذين قاموا بتلك الحركات فيها الفائدة والمتعـــة اللتان تبرزان دوماً عند مصاحبة الافراد النخبة في تجربتهم الحياتية .

وقد دفعني شعوري باهمية دراسة تلك الحركات الى اختيار الحركة السنوسية كموضوع للبحث الذي عليّ تقديمه في دراسة الماجستير مع جامعة القاهرة . ولعل مما ساعد على هذا الاختيار بالذات انني لظروف العمل اقمت في ليبيا فترة من الزمن مما اتاح لي فرصة الاطلاع على قـــدر كبير من المعلومات حول الحركة ودراسة الموطن الذي كان مركزاً لها . يضاف الى ذلك ملاحظتي قلة ما كتب عن السنوسية وشعوري بضرورة سد ثغرة في هذا النقص . وقد شجعني الاستاذ المشرف على هذا الاختيار .

اقبلت على التحضير المبدئي للبحث فتبين لي ان الكتب التي تناولت السنوسية بالدراسة قليلة نسبياً . وان بعضها ألف في النصف الثاني من القرن الماضي بينما الف البعض الآخر في هذا القرن . ومن اهم الكتب التي تعرضت لهـا في القرن الماضي تلك التي كتبها الرحالة الاوروبيون الذين زاروا الشمال الافريقي والصحراء الافريقية . واشهرها كتب لوي رين ودوفرييه الفرنسيين وهاملتون الانجليزي ورولفس الالماني؛ وكان حديث هؤلاء جميعهم عنها نابعاً من وجهة نظر غربية مهتمة بافريقيا لأغراض توسعية . وهناك بالاضافة الى الكتب الغربية ما كتبه الحشايشي التونسي في رحلته وكتاب صادق المؤيـــد العظم عن رحلته الى الكفرة ، وحديث البستاني في دائرة معارفـه وكتب احمد الشريف السنوسي عن رحلات عمه المهدي وجده ابن السنوسي ، وبعض الكتب الاخرى . وظهرت بعد هذه الكتب دراسات حديثة من اهمها كتاب برتشارد عن ابن السنوسي ، وكتاب فؤاد شكري عن السنوسية ، وكتاب نقولا زيادة عنها ايضاً وكتب الطيب الاشهب ، كما تعرضت لها بعض الكتب الايطالية في معرض حديثها عن تاريخ ليبيا .

وقمت بالبحث عن هذه المصادر فوفقت الى الاطلاع عليها ، وعلى اكثر كتب ابن السنوسي المطبوعة ، كما عثرت على مخطوط يضم كتابي احمد الشريف عن رحلات عمه وجده ، وعلى مخطوط يضم حديثاً للحشايشي عن السنوسية .

وقد لاحظت اثناء عملي سكوت المؤرخين عن تاريخ ابن السنوسي في بعض مراحل حياته الاولى وتخبط بعضهم في تحديد تواريخ تنقلاته . فحرصت على محاولة توضيح مخطط تاريخه ، واستفدت كثيراً في محاولتي هذه وفي توضيح نقاط اخرى من حديث ملك ليبيا ادريس الاول حيث تكرم واجاب عن اسئلتي ، وامدني بمجموعة كتب جده المطبوعة .

وعثرت في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس على عـدد من رسائل الولاة ووثائق اخرى امدتني بمعلومات كثيرة حول علاقـــة الحركة السنوسية بالدولة العلية . كما اطلعت على عدد كبير من رسائل ابن السنوسي والمهدي الى الزوايا .

ورأيت بعد التحضير الاولي ان احصر البحث في نشأة الحركة السنوسية ونموها خلال القرن التاسع عشر الميلادي . وهذا يعني دراسة تاريخ ابن السنوسي ونشأة الحركة على يديه ثم دراسة تاريخ المهدي ونمو الحركة في مهدها . وذلك لأن الحركة بلغت في رأيي ذروة نموها في حياة المهدي ثم بدأت بعد وفاتـه صفحة جديدة تتعلق بصدامها للقوى الاستعمارية الغازية . وقد ولد ابن السنوسي سنة ١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م . وتوفي ابنه المهدي سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م . فيكون نطاق هذا البحث بين هذين التاريخين .

وينقسم هذا البحث الى ستة فصول يتناول الاول منهـا بالحديث « العالم الاسلامي في مطلع القرن التاسع عشر » ، والغاية منه اعطاء صورة موجزة عن اوضاع العالم الاسلامي والمسلمين توضح لنـــا حالهم وتبين دوافع الاصلاح عند مصلحيهم . اما الفصل الثاني فعن تاريخ ابن السنوسي ونشأة الحركة السنوسية وهو يتحدث كما يبدو من عنوانه عن حياة ابن السنوسي وما مر فيها من احداث والعوامل التي اثرت في شخصيته ثم عن نشوء الحركة وتقدمهـــا على يديه . ويستمر الحديث عن ابن السنوسي في الفصل الثالث حيث يـــدور عن افكاره الاصلاحية وشخصيته الدعوية . اما الفصل الرابع فعن تاريخ محمد المهدي ونمو الحركة . وقد رأيت ان اجعل دراستي لتاريخ الحركة من خلال دراستي لتاريخ

ابن السنوسي والمهدي وذلك لكبير دورهما فيها . ثم يتناول الفصل الخامس النظام السنوسي بالدرس فيبحث الزاوية والطريقة الصوفيـــة . ويختم البحث بالفصل السادس الذي يتحدث عن انتشار السنوسية . اما علاقـــة السنوسية بالدولة العلية وبالدول الاوروبية ومـــا الى ذلك فقد تضمنها الفصلان الثاني والرابع . والحقت الرسالة بملحق ضم بعض الوثائق التي لم تنشر من قبل ، منها بعض رسائل ابن السنوسي والمهدي اخترتهـــا من عشرات الرسائل لتكون نموذجاً ، وبعض مراسلات الولاة .

ويسعدني ان اسجل شكري في هذه المقدمة لكل من ساعدني في اتمام هذا البحث واخص بالذكر منهم الاستاذ المشرف الدكتور محمد انيس الذي زودني بتوجيهاته وملاحظاته ، وفضيلة الشيخ منصور المحجوب شيخ الجامعـــة الاسلامية بليبيا الذي اطلعني على مجموعـة الرسائل التي بعثها السيدان ابن السنوسي والمهدي الى جده شيخ زاوية الطيلمون ، والحاج محمد الاسطى الموظف بدار المحفوظات الذي سهل لي الاطلاع على عـدد كبير من الوثائق وترجم لي التركي منها ، والسيد بهجت القره مانلي مدير دار المحفوظات ، والسيد الطاهر النعاس الذي أطلعني على بعض المخطوطات .

طرابلس الغرب – خريف ١٩٦٢

الفصل الأول

المسلمون في مطلع القرن التاسع عشر

تأخر العالم الاسلامي

ما إن دخل العالم الاسلامي في القرن الثالث عشر الهجري ، ودخلت اوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي حتى كانت علامات الضعف وأمارات الانحلال قد بدت بوضوح على كل الدول الاسلامية ، وغرقت شعوب هذه الدول في عصر الانحطاط الفكري . بينما شرعت دول اوروبا وشعوبها بقطف ثمـــار النهضة الاوروبية التي بدأت قبل ذلك القرن بثلاثة قرون ، فعرفت اوروبا الانقلاب الصناعي ثم التوسع الاستعماري .

وكان للمسلمين في مطلع ذلك القرن عدة دول ، قد يوجد فرق بينها في بعض المظاهر ولكنها جميعاً تتفق في كونها متأخرة متخلفة . ففي بلاد فارس كانت هناك الدولة القاجارية تعاني من الفساد وتشكو من امراض عدة ، هي امراض عصر الانحطاط ، بينما تتهددها مطامع دولتي روسيا وانجلترا . وفي بلاد الهند كانت دولة المغول في النزع الاخير تلفظ آخر انفاسها بعد ان تسلطت عليها انجلترا عن طريق شركة الهند الشرقية الانجليزية التي نجحت في استعمار الهند. وفي اقصى المغرب كانت دولة السعديين العلويين تعاني من خلافات القبائل وثورات البربر ونزاع الطامعين على العرش ، وتحاول جاهدة في الحفاظ على نفسها امام اطماع الدول الاستعمارية ، وقد كان لها قبل ذلك القرن اسطول بحري قوي حمى حدودها البحرية وفرض احترامها على الدول الاوروبية ولكنها خسرته في عهد السلطان سليمان الذي اهمـــله واختار اتباع طريقة عقد المعاهدات مع الدول الاوروبية . وكانت شروط المعاهدات تسوء درجة درجة ، وعندما حاول خلفه السلطان عبد الرحمن اعادة بناء الاسطول وقفت له تلك الدول بالمرصاد

واجبرته على التخلي عن عزمه . ثم كانت هناك الدولة العثمانية التي امتدت حتى احتلت رقعة كبيرة في القارات الثلاث ، فكان بقية الشمال الافريقي وآسيا العربية وآسيا الصغرى والبلقان . ومع ان كل هذه الرقعة كانت تتبع السلطان العثماني اسماً الا ان عدة اجزاء منها عرفت الاستقلال الفعلي . ومن هذه الاجزاء مصر التي سيطر عليها محمد علي ، والجزائر التي كان يحكمها الدايات بمساعدة الجند الانكشاري ، وقد عرفت طرابلس الغرب هذا الاستقلال الفعلي في عهد اسرة القره مانلي التي بقيت حتى الثلث الاول من القرن ، ثم عادت طرابلس ثانية تحت حكم الباب العالي المباشر وكذلك عاد العراق بعد ان ضعف شأن المماليك الذين تسلطوا عليه .

وضع الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية قد عرفت في اول عهدها التقدم والازدهار ثم جاءت نقطة التحول في تاريخها في القرن الثامن عشر . فقبل ذلك القرن شهد كرسي السلطنة فيها سلاطين اقوياء ساعدهم وزراء قديرون . وسجل تاريخها رخاءها الاقتصادي وتوسعها العظيم في الفتوحات ، بينما سجل ابان القرن الثامن عشر جمودها وتدهور اقتصادها وتوقف عمليات الفتح والتوسع . وذلك في ظل سلاطين ضعفاء انغمسوا في حياة القصور وتركوا اعمال الدولة للوزراء والولاة الذين لم يكونوا من طينة اخرى . وهكذا تدحرجت سنون القرن والدولة جامدة في مكانها لا تحرك ساكناً للقضاء على الداء الذي تشكو منه حتى استشرى امر الداء وظهرت آثاره للعيان .

الرجل المريض

واطلقت الدول الاوروبية على الدولة العثمانية اسم الرجل المريض . وهو اسم معبر يعني امرين ، اولها الاشارة الى حقيقة وضع الدولة بما فيه من ضعف وانحلال واستشراء الداء ، وثانيها الاشارة لما وراء هذه الحقيقة من ان لهذا

المريض الضعيف ثروة ضخمة بامكان الاقوياء ان يضعوا ايديهم على بعضها كما ان بعضها الآخر سيصبح تركة لهم عند وفاة هذا المريض . وبحسب هذا الواقع تكيفت سياسة الدول الاوروبية بالنسبة للمسألة الشرقية ، فتنازعت احياناً فيما بينها على اجزاء الدولة العثمانية ، وعملت احياناً على اطالة عمر المريض لما استوجبت مصلحتها ذلك ، كما عملت على القضاء عليه فيما بعد لما رأت ضرورة موته .

اما آثار المرض التي ظهرت للعيان فكانت تبدو منذ اواخر القرن الثامن عشر على مختلف جوانب حياة الدولة . فهي بادية في ادارتها وجهازها الدفاعي تماماً ، كما انها واضحة في حياة شعوبها والجهل المطبق عليهم . ومما يوضح جانباً مهماً من صورة واقع الدولة هـــذا استعراض تاريخ السلاطين الذين تتابعوا على حكمها في تلك الفترة .

تاريخ اربعة سلاطين

تولى السلطان سليم الثالث الحـــكم سنة ١٢٠٣ هـ . ١٧٨٩ م . بينما كانت رحى الحرب دائرة بين دولته وروسيا . وكانت كفـة الاخيرة هي الراجحة فاستطاعت ان تحتل عدة ولايات عثمانية . ولولا تدخل الدول الاوربية الاخرى لمنافسة لقاست الدولة العثمانية الكثير ؛ ولكن التنافس بـــين انجلترا وروسيا وتدخل انجلترا لحماية الدولة اوقف الحرب . ورحب السلطان بانتهائها ليتفرغ للاصلاح الداخلي ، اذ ان التجربة القاسية التي مرت بها الدولة في اول سني حكمه اثناء تلك الحرب والهزائم المتوالية التي مني بها الجيش العثماني فتحت عيونه على ضرورة القضاء على العلل التي تشكو منها الدولة في داخلها لتستطيع الوقوف والصمود امام اعدائهـــا الطامعين . والعلل التي لفتت نظره كانت متصلة بوضع الدولة من الناحية الدفاعية ، وقد ظهرت وانكشفت في هزائم الجيش المتتالية . والواقع ان حالة الجهاز الدفاعي كانت بالغة السوء ، فالانكشارية صاروا عالة على الدولة ومن عوامل تأخرها بعد ان كانوا اهم عوامل تقدمها وقت الفتوحات

المستمرة التي كانوا يعودون منها بكثير من الغنائم حتى اعتادوا النهب وصاروا لما لم يجدوا بلاداً مفتوحة لسلب أهاليها يتعدون على أهالي الاستانة ، فضلاً عن عصيانهم المرة بعــد الاخرى وعزلهم الصدور العظام والوزراء وتعديهم على السلاطين بالعزل أو القتل لما يرون منهم معارضاً لفسادهم او ضعفاً في معاقبتهم »[1] هذا بالاضافة إلى تأخرهم في ناحية الفن العسكري. كما أن معدات الجهاز الدفاعي كانت في حالة سيئة ، فالأسلحة لم تتطور ففقدت صلاحيتها أمام الأسلحة الحديثة التي يملكها أعداء الدولة ، والاسطول قديم ولا يستطيع بمراكب قديمة الوقوف أمام الأساطيل الحديثة أو حماية الثغور من قراصين البحر . لذلك عرقل القراصنة سبل التجارة واجتاحت الثغور المكشوفة إلى حماية .وأثر هذا الوضـع السيىء للجهاز الدفاعي ليس في حروب الدولة الخارجية فحسب بل كان أيضاً سبباً في انتشار الفوضى داخل الدولة بعد ان ضعفت هيبتها في أعين الولاة « فضعفت روابط الولاة والعاصمة وسعى بعض الولاة في الاستقلال أو في عدم دفع الاموال الاميرية إلى الخزينة السلطانية مع نضوبها بسبب الحرب . »[2] وزادت هذه الفوضى الطين بلة .

وشرع سليم الثالث باصلاح الجهاز الدفاعي ، وكانت محاولات الاصلاح في الجيش قد بدأت في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤). وسارت سيراً وئيداً في عهد السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ - ١٧٨٩.)[3]

وبدأ سليم الثالث عمله بأن عين لمنصب القبودان العام « شاباً ذكياً درس احوال اوروبا ووقف على دخائل سياستها اسمه كوجك حسين باشا . فبذل جهده في مطاردة قراصين البحر لتسهيل سبيل التجارة وشمر عن ساعد الجد في

---

١ - محمد فريد : الدولة العلية العثمانية . الطبعة الثانية ص ١٧٥.

٢ - محمد فريد ص١٧٥.

٣ - ساطع الحصري . البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين . الطبعة الثانية ١٩٦٠ ص ٧٢ .

اصلاح الثغور وبناء القلاع الحصينة لحمايتها . ثم أنشأ عدة مراكب حربية على شاكلة احدث المراكب الفرنساوية والانجليزية . واستحضر عدداً عظيماً من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع في معامل الطوباخانة ، واصلح مدرسة البحرية والطوبجية [1]

كما امر بترجمة عدد من المؤلفات العسكرية الى اللغة التركية لينتفع بها التلاميذ [2]. ووجد انه لا حل لمشكلة الانكشارية التي استشرى فيها الفساد واستعصت عن كل اصلاح إلا بترتيب العساكر النظامية والاستغناء عنها بهم ، فشرع في انشاء « النظام الجديد ».

كانت هذه الاعمال سيراً في طريق الاصلاح حميداً مع انها تناولت جانباً واحداً في الدولة هو الجانب العسكري واختصت به . ولكن صعوبات جمة اعترضتها وعرقلت تقدمها ـ وذكر هذه الصعوبات يضيء جوانب اخرى من الصورة ـ فعدو الدولة الخارجي متمثلاً هذه المرة في نابليون بونابرت يهاجم جزءاً من اجزائها ، وبعد ان احتل مصر زحف بجيوشه على الشام . وفي بلاد الصرب حدثت فتن سببها العصبية ، وكان على الدولة مجابهة العدو الخارجي والقضاء على الفتن الداخلية . ولو اقتصرت الصعوبات على ذلك لكان من الممكن ان ينجح السلطان في التغلب عليها وإتمام ما بدأه . ولكن الصعوبة الكبرى التي اعترضته واوقفته كانت كامنة في الانكشارية واعوانهم من علماء الدين الجامدين. وقد تململ الانكشاريون من الاصلاح اول الامر ثم رفعوا أصواتهم معبرين عن سخطهم ثم قاموا يتحدون بصراحة النظام الجديد « ووقف معهم اعوانهم واعلنوا ان هذا النظام يؤدي الى ادخال عوائد الافرنج وسيادة الاجانب » . فكان ان خشي السلطان نقمتهم وامر بالغاء النظام . وبقي وزيره وحده يجاهد فكون فرقة خاصة « غير رسمية » ابلت اعظم البلاء في حرب

---

١ ـ محمد فريد . ص ١٧٩ .

٢ ـ الريس.ـ تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية . ص ١٠٨

بونابرت في عكا . وعـــاد السلطان لتنفيذ فكرة الاصلاح فاشتدت معارضة الانكشارية حتى إذا ما توفي المفتي الذي كان يشد ازر السلطان وخلفه مفت آخر من اعداء النظام الجديد ثار الانكشاريون على السلطان وأفتى المفتي بعزله سنة ١٨٠٧ بحجة أنه يأتي البدع « وكل سلطـــان يدخل نظامات الافرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » . (١)

انتصر الرجعيون في تلك الجولة واعتلى عرش السلطنة مصطفى الرابع الذي كان آلة في أيديهم . وقويت شوكة الانكشارية واستمر تحكمهم وارتفع شأن مبغضي النظام الجديد . ولكن المعركة لم تكن قد انتهت بينهم وبين انصار النظام الجديد ، الذين جمعوا قواهم وثاروا ضد السلطان مصطفى الرابع فنجحوا في الاطاحة به بعـد مضي ثلاثة عشر شهراً على اعتلائه العرش فخلفه السلطان محمود الثاني الذي استمر حكمه (بين ١٨٠٨ — ١٨٣٩) احدى وثـــلاثين سنة كانت حافلة بالتعب والصعوبات وكانت من أخطر السنين التي مرت على الدولة . وقد جاهد وعمل بما في وسعه لينقذ الدولة ونجـح في ان يمد في عمرها فاستحق ان يوصف بأنه رجل عظيم .

كان أول ما عمله تعيين « مصطفى باشا البيرقدار » لمنصب الصدارة العظمى وكان رجلاً من دعاة الاصلاح . وتعاون الاثنان معاً على حل مشكلة الانكشارية فدعا الوزير رجال الدولة وكبار القواد والعلماء وشرح لهم حال الدولة ومـــا آلت اليه من التدهور ثم دعاهم للسير معه في طريق الاصلاح . ثم أصدر اوامره بتنظيم الانكشارية ولكنها أبت أن تنصاع للنظام بل ثارت وأشعلت النار في قصر الوزير فمات حرقاً . وكادت ثورتها أن تطيح بالسلطـــان لولا أن حضر بعض قواده فكبحوا جماح الثورة . وبقيت مشكلة الانكشارية قائمة مستعصية عن الحل ثماني عشرة سنة أخرى شغل السلطان فيهـــا بمشاكل كثيرة ثم حلت بالقضاء المبرم عليهم وافنائهم سنة ١٨٢١ بعد قيامهم بثورة . وقد أفتى العلماء

١ ـ كما جاء في الفتوى . أنظر محمد فريد - ص ١٩٩ .

السلطانَ بشرعية هذا الحل فانتهت قصة الانكشارية بمأساة كما بدأت بمأساة.

واستعراض ابرز الاحداث التي جرت في الدولة إبان حكم السلطان محمود يشير إلى التدهور الذي صارت اليه الدولة والذي لم تنجح محاولات الاصلاح في إيقافه عند حد، وان خففت أحياناً من سرعته. ففي اليونان قامت ثورة لاهبة كان وراءها مجموعة دول أوروبية، وفي جزيرة العرب قام الوهابيون بنشر مذهبهم. واصطدموا بجيش السلطان فلم ينجح في التغلب عليهم واضطر السلطان إلى الاستعانة بواليه على مصر محمد علي. ثم عاشت الدولة حرباً داخلية مزعجة قام بها محمد علي الطامح ضد السلطان ونجح في أخذ الشام والتقدم حتى كيليكيا. وكانت هذه فرصة للدول الاوروبية كي تتدخل. أما في النطاق الخارجي فقد اشتبكت الدولة – وهذا حالها – في حرب مع روسيا. وفقدت جزءاً كبيراً من أرضها في طرفها الغربي حيث غزت فرنسا الجزائر ولم تفعل الدولة شيئاً سوى أن تركت أهل الجزائر يقاتلون وحدهم حتى انتهت مقاومتهم بعد حين.

وتولى عبد المجيد وهو في الثامنة عشرة « وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد علي. ومما زاد احوال الدولة ارتباكاً وشغل الخواطر باوروبا أن القبودان العام للدونانمة التركية احمد باشا خرج بجميع مراكبه البحرية وأتى بها ثغر الاسكندرية وسلمها لمحمد علي لأن منصب الصدارة العظمى أعطي لخصمه خسرو باشا »[1]

وقد حاول عبد المجيد الاصلاح مخلصاً وعمل على اصلاح النظم الادارية بالاضافة إلى النظم العسكرية. وأصدر عقب توليته سنة ١٨٣٩ امراً سامياً قرىء علناً في جمهور من الوزراء والأعيان. وعرف هذا الأمر باسم « فرمان الكولخانة » وهو يكشف عن أحوال الدولة ومحاولات الإصلاح. وهذا بعض ما جاء فيه :

---

١ ـ انظر محمد فريد، ص ٢٤٥.

« لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ولذلك كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارة أهلها وصلت لحد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف . ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها ضعفاً وثروتها فقراً. وبما ان الممالك التي لا تكون ادارتها بحسب القوانين الشرعية لا يمكن أن تكون ثابتة كانت افكارنا الخيرية الملوكية منحصرة في عمار الممالك واتحاد ورفاهية الاهالي والفقراء من يوم جلوسنا السعيد . وصار التشبث في الأسباب اللازمة بالنظر إلى مواقع دولتنا العلية الجغرافية ولاراضيها الخصبة ولاستعداد وقابلية أهاليها لتحصل بمشيئة الله الفـــائدة المقصودة في ظرف خمس او عشر سنين . واعتماداً على المعونة الالهية واستناداً على الامدادات الروحانية النبوية فقد رؤي من الآن فصاعداً أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة مملكتنا العلية المحروسة. والمواد الأساسية لهـذه القوانين هي عبـــارة عـن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم لأنه لا يوجد في الدنيا اعز من الروح والعرض والناموس والمال ... »

ثم يتحدث الفرمـــان عن أثر فقدان الأمن على الأفراد حيث يسبب لهم الاضطرابات وينتج عنه كراهيتهم للدولة بعكس ما إذا كان الفرد آمناً إذ يصبح غيوراً على دولته محباً لوطنه وبهذا يجتهد في تحسين حاله . ثم يبين اهمية تعيين الخراج وكيف أن تسلط اليد الواحدة افسد الأمر « ولذلك يلزم تعيين خراج مناسب علىقدر اقتداره وأملاك كل فرد وتحديد المصاريف العسكرية... » ثم يتحدث عـــن مسألة الجندية وكيف كانت الحكومة تفرض على أهالي القرى أكثر مما تتحمل من الناس « فتختل الزراعة والتجارة وينقطع النسل» ثم يبين كيف كان الحكام يظلمون في القضـــاء لذلك « لا يجوز بعد الآن اعدام

وتسميم ارباب الجنح جهاراً أو خفية ». كذلك أعطى الفرمان الأمان على الروح والعرض والناموس. ثم وضع قانونـــاً شديداً ضد الرشوة « لإنها أعظم سبب لخراب الملك وممقوتة شرعاً »[1] .

هذه هي صورة الوضع الداخلي في إدارة الدولة كما تبدو من فرمان رسمي فالأمن مفقود وشبح الخوف يتهدد الأفراد والظلم واقـــع عليهم سواء في أخذ الخراج منهم او في تجنيدهم والادارة فاسدة لانتشار الرشوة. وقد وضح الفرمان العلة ووضع يده على الداء مبيناً أسبابه وبدت فيه الرغبة الاكيدة في الاصلاح. ولكن الاصلاح لم يتم « فقد أشغلت السلطان عن اتمـام هذه الاصلاحات حرب الروسيا ». [2]

هذا هو وضع الدولة كما بدا من سطور تاريخ أربعة سلاطين تتابعوا على حكمها، والصورة التي عرضت تناولت الرأس وتكتمل بعرض حال الولايات والشعب .

حال الولايات

كانت الصلة واضحة ايضاً في الولايات التي تحكم فيها ولاة كان يصل اكثرهم إلى منصبه بالرشوة فيرهق الشعب لجمع ما دفع ، وكان أكثرهم يمكث في الولاية الواحدة سنة واحدة ينتقل بعدها إلى ولاية أخرى لخوف السلطان من حركات الاستقلال ، والسنة مدة لا تكفي للوالي للتعرف على كل أحوال ولايته فكيف تكفي لرسم خطة الاصلاح اللازم ، وتنفيذها ، هذا اذا كان الوالي من القلة المستنيرة . وقـد تتـابع على ولاية طرابلس الغرب بين سنة ١٨٣٥ وهي سنة انتهاء حكم القرهمانليين ــ وسنة ١٩١١ ــ وهي سنة هجوم ايطاليا على الولاية ــ

---

١ ــ انظر محمد فريد ص ٢٤٥ .

٢ ـ محمد فريد، ص ٢٥٦ .

ثلاثة وثلاثون والياً ، منهم ثلاثة فقط حكموا مدداً طويلة يبلغ مجموعها ثلاثين سنة ، وحكم الثلاثون الباقون بمعدل سنة لكل منهم [1] وفي هذه الفترة التي تعرف باسم العهد العثماني الثاني في طرابلس شهدت الولاية ثورتين لاهبتين قام بهما شيوخ القبائل ضد الظلم وقادها غومة المحمودي وعبد الجليل سيف النصر . وقد قامت ثورات مشابهة في جهات اخرى من الدولة نتيجة ظلم الولاة كثورة ظاهر العمر في الشام. وغالباً ما كان الشعب الذي خارت قواه يكتفي بالتأوه.

وقد حدث مرات أن تجرأ بعض الولاة الاقوياء على الانفصال عن الدولة والاستقلال الداخلي بشؤون ولايتهم ففي نهاية القرن الثامن عشر قام علي بك الكبير بحركة انفصالية في الدولة واستقل بمصر عام ١٧٧٠ وتحالف مع ضاهر العمر وطلب معونة روسيا . وإذا كانت محاولته قد انتهت بالفشل فان حركة محمد علي باشا نجحت إلى درجة أنه تجاوز مصر إلى الشام وهدد الدولة في مركزها . وقد حاول محمد علي تحقيق الاصلاح في مصر ليجعلها قوية .

وكانت الجزائر في حين بدء الغزو الفرنسي تحكم من قبل الداي وتتمتع باستقلال فعلي في شؤونها الداخلية . وكان الداي يشرف على اعمال القراصنة التي تجوب البحر المتوسط ولم تكن سيرته في الحكم رضية . وكانت الكراهية ظاهرة بين الفئة الحاكمة وهم الترك والشعب المحكوم . وقد حدث مراراً أن هاجت الفتنة بينهما . ففي سنة ١٢٢٠هـ، ١٨٠٥م هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك واشتدت، حتى أن العرب هاجروا جميعاً ألى المغرب بعد أن خلعوا بيعة الترك وبايعوا السلطان سليمان ، ولم يبق لباي تلمسان من رعيته احداً [2] . ولما استولى الفرنسيون على الجزائر ١٢٤٦ هـ ، ١٨٣٠م . طلب أهل تلمسان الدخول في طاعة مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب وارسلوا حجتهم في طلبهم السلطان

---

١ ـ زيادة، السنوسية ص ٢٦ .

٢ ـ الناصري، الاستقصاء، الجزء الثامن .

وتكشف هذه الحجة عن مدى كراهيتهم لحكامهم ؛ ومما جاء فيها : « وعامل الجزائر انما كان متغلباً وبالدين متلاعباً فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه ، ان الله يمهل على الظالم حتى يأخذه فان اخذه لم يفلته ، ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند امر العثماني وامتثاله بل لا يكترث به اصلاً ولا يتبع له قولا ولا فعلاً » . ثم تصف الرسالة ظلمه في جمع المال الحرام وتعسفه في الحكم [1] .

تأخر الشعب

وبالطبع فان حال الشعب الذي يعيش في كنف تلك الاوضاع الادارية السيئة ويئن من الظلم كانت بالغة السوء . فعامته من الفلاحين والبدو ، يخيم عليها جهل مطبق وتعيش في فقر شديد وتتلقى جل ضربات السلطة ، فمنها تجبى الضرائب ويجند العساكر . وانطبع في نفوسها نتيجة الظلم خوف الحاكم وانعدام الثقة به ، كما تعودت السكوت تحت وطأة الجور ما دامت لا تستطيع له دفعاً ، والخروج عن طاعة الحكام اذا قدرت عليه . وهناك الى جانب هذه طبقة التجار الذين ساءت احوالهم نتيجة اقتصاد الدولة . وقد عرفت الدولة العثمانية في اول عهدها الرخاء الاقتصادي ثم تبدل الحال بسبب فساد النظام الاداري وكثرة الحروب والامتيازات الاجنبية التي اتاحت للتجار الاجانب مزاحمة التجار المسلمين ومنافستهم منافسة ليست شريفة بما تعطيه الامتيازات من فوائد . وقد بدأ باعطاء هذه الامتيازات للفرنسيين السلطان سليمان القانوني « وكانت منه اشبه بتنازل كريم منح بموجبه الفرنسيين حقوق اهل الذمة في المجتمع الاسلامي » . ثم اعطيت لعدة دول اوروبية اخرى ، وتطورت حتى صارت نوعاً من التسلط الاقتصادي يئن تحته التجار المسلمون . وهناك في اعلى الطبقات كان علماء الدين الذين عكسوا صورة الحالة الفكرية في الدولة والجهل المخيم عليها . ومع ان

١ – الناصري ، الاستقصاء ، الجزء الثامن .

بعضهم كانت فيه بقية من علماء عصور الازدهار فوقف في وجه الولاة فأنصف الرعية منهم ، وفي يوميات الجبرتي امثلة كثيرة ، فان اكثرهم كان صورة للجهل والانحراف . وذلك لضحالة العلم الذي درسوه .

حال العلم

كان العلم قـــد بلغ درجة عظيمة من الانحطاط في اول القرن المذكور ، فواكب في ذلك الانحطاط السياسي . وقد مر ليبلغ تلك الدرجة في ثلاثة قرون مظلمة صار بعدها قديماً بالياً . وبقي العلمـــاء جامدين عليه لا يرون غيره علماً حتى اقتصرت كتبهم على كونها اجتراراً لمعلومات قديمة وشروحاً لشروح متون مؤلفات مضى عليها قرنان او اكثر ، وكلها في نطاق محصور يحده علم الفقه وبقية العلوم الدينية . وكان اهل الازهر يؤمنون بانه « لا عـلم الا ازهري » ، ويرفضون بقوة فتح باب الاجتهاد وكل محاولة للتجديد والاصلاح . وقد جرت محاولات فردية معدودة لفتح باب الاجتهاد وتحرير العقول من التقليد فكان ان جوبهت بمعارضة شديدة من اولئك العلماء بلغت حد التكفير ومحاولة القتل . وسنرى كيف حدث هذا مع ابن السنوسي نفسه . وقـــد ذكرنا كيف وقف عدد من علماء الاستانة مع الانكشارية ضد السلطان سليم وعزلوه بحجة ان اصلاحاته بدع . ومما يروى عن اسماعيل خديوي مصر انه رغب في اصلاح نظام المحاكم واراد ان يكلف الازهر باتمام ذلك فلجأ الى رفاعـــة الطنطاوي وطلب منه ان يقنع شيخ الازهر وعلمـــاءه بوصفه منهم واقدر على اقناعهم . « فقال له رفاعة : اني يا مولاي قد شخت ولم يطعن احد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الازهر اياي في آخر حياتي واقلني من هذا الامر . »[1] وسيطر هـــذا الجمود في الوقت الذي حققت اوروبا فيه عدداً عديداً من الانتصارات العلمية . وقد بلغت بعض اخبار هذه الانتصارات آذان بعض العلماء والعامة

---

١ – عبد المتعال الصعيدي . المجددون في الاسلام ، ص ٤٤٩ .

في العالم الاسلامي فكانت ردود افعالهم اما مكابرة واما تسليماً بحقيقة تخلفهم المرة . فهذا الالوسي المفسر يستطرد اثناء حديثه عن تسخير الريح لسليمان الى الكلام عن محاولات الطيران الاولى فيقول : « ومن العجب ان اهل لندن قد اتعبوا انفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء الى حيث شاءوا بواسطة ابخرة فيها ، فلم يتم لهم ذلك ، ولا اظنه يتم حسب ارادتهم على الوجه الاكمل . واخبرني بعض المطلعين انهم صنعوا سفينة تجري في الهواء لكن لا الى حيث شاءوا بل الى حيث القت رحلها » . [1] ونتساءل ترى ماذا كان يقول لو قدر له ان يطلع على ثمار تلك المحاولات الاولى اليوم . ويذكر الرحالة الانجليزي جيمس هاملتون انه قابل رجلاً من اهالي سيوة عندما زارها حوالي منتصف ذلك القرن ، وعرض عليه العلوم الجغرافية الحديثة وآلة التلغراف وكيف يمكن الاتصال بواسطتها ببنغازي وتوقع ان يثير عجبه ولكن الرجل - كما يقول الرحالة - « تظاهر انه قادر على السفر الى درنة وبنغازي بدون راحلة وخلال وقت قصير ، وقد اكد انه فعل ذلك مرات بفضل الجني الذي يرافقه وان غيره فعل ذلك » [2]. اما الجبرتي فيذكر انه شاهد يوماً في المعهد العلمي الفرنسي الذي انشأه الفرنسيون في مصر ، الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة ادنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا امسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً ولمس آخر الزجاجة الدائرة او ما قرب منها بيده الاخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام اكتافه وسواعده برجة سريعة ثم قال معلقاً « ولهم فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول امثالنا » [3]

قلنا ان الازهر اقتصر على تعليم العلوم الدينية بطريقة جامدة ، امـــا بقية

---

١ - المصدر نفسه ص ٤٥٠ .

2- Hamilton, Wanderings in Northafrica .

٣ - تاريخ الجبرتي، ج ٣ ص ٣٧ .

العلوم التي ازدهرت من قبل في امتنا فكانت في النزع الاخير . فعلم الطب مثلاً بلغ حالة سيئة من الانحطاط ، حتى ان البيمارستان المنصوري الذي كان قبل خمسة قرون ذا شهرة عظيمة في العـــلاج الطبي الصحيح صار في منتصف القرن التاسع عشر – كما رآه العالم الاقرى الالماني ايبرس – مكاناً مخرباً يقصده المرضى ليزوروا مخلفات السلطان الذي بناه بقصد الشفاء، فيمسون عمامته لشفاء اوجاع الرأس ، ويمسون قطفانه للشفاء من الحميات المتقطعة ، وكان كثير من النسوة يأتين بالاطفال الصغار وبعضهم لم يقو بعد على المشي لفك عقدة لسانهم فيذهبن بهم الى حجر اسود عريض هناك ويعصرون ليمونة خضراء فوقه ثم يأخذون في حك العصارة على هـــذا الجزء بحجر آخر صغير حتى تتلون العصارة باللون الوردي فيحملن الاطفال على لحسها فيصيحون صارخين من الالم وتسر امهاتهم لصياحهم وكلما علا صراخهم ايقنت امهاتهم بفك عقدة ألسنتهم . [1] ولم تكن العلوم الاخرى احسن حـــالا من الطب . ولو ان بعض مراكز التعليم الاخرى استمرت في تدريس العلوم بخلاف الازهر فمثلاً كان الطالب في جامع القرويين بفاس يدرس «الفرائض والحساب والاربعين وصناعتها والاسطرلابين وصناعتها والعلوم الاربعة الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقي واصول قواعد الموسيقى والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الاحكام والنسب والوفق والقواعد الجفرية والاصول الزايرجية والبسط والتكسير والجبر والمقابلة وعلم الاحكام وغيرها » . [2] وهذا امر حسن لولا ان الكتب التي تناولت هذه العلوم كانت قديمة التأليف لم يضف اليها ما استجد في تلك العلوم .

حـــالة الصوفية

وكان حـــال المتصوفة سيئـــاً فأكثرهم انحرف عن حقيقة الدين وحفلت تصرفاتهم بالخزعبلات مستغلين جهل العامة الذين آمنوا بولاية المجنون وكرامة

١ - الصعيدي ، المجددون في الاسلام ، ص ٤٥٢ .

٢ - ارسلان، حاضر العالم الاسلامي ج٢ ص ٤٠١ .

الأبله؛ وقد ارتفع شأن المتصوفة في فترة الانحطاط الفكري . ويروي الجبرتي ان بونابرت بعد دخوله مصر فوجىء بمنظر الفقراء الذين يدورون في الاسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون مدعين الولاية ويصدقهم العوام . فسأل بعض علماء الازهر عن صحة هذا السلوك مع أنهم لا يصلون ولا يصومون فأجابوه بأن مسلكهم حرام مخالف لدين الاسلام فكان أن منعهم بونابرت . كما يروي الجبرتي كيف اعتقد العامة بالقاهرة في ولاية عنزة ادعى كبير خدام المشهد النفيسي ان السيدة نفيسة أوصته بها . فكان الناس يرسلون اليها الهدايا وينسبون اليها الكرامات ، ولم ينقذهم من ألاعيب صاحبها إلا ذكاء الأمير عبد الرحمن كتخدا الذي دعا صاحبها وادخل العنزة إلى زوجته بحجة التبرك بها فذبحتها بناء على أمره وقدمت لصاحبها فأكل منهـا دون أن يدري . وهكذا أظهر الأمير خداعه وعاقبه فأمر أن يدار به في الأسواق وجلد العنزة على عمامته . وقد بلغ من قوة الفرق الصوفية أن بعض أتباعها كانوا يجاهرون بمخالفة أحكام الشريعة ويهاجمون الفقهاء مدعين أنهم أكثر علماً لأنهم متصلون وواصلون . وكان الحكام الظلمة يستعينون بهم لخداع الشعب .

تلك هي حال العلم والعلماء والصوفية في العالم الاسلامي في مطلع ذلـك القرن. وهي تبرز انحطاط الحياة الفكرية، كما أبرز استعراض الأحوال السياسية انحطاط المسلمين السياسي. ويمكننا بعد هذا العرض السريع لجوانب الحيـاة المختلفة في الدولة العثمانية القول بأن المسلمين كانوا في تخلف واضح وانحطاط بين بلغ الذروة في مطلع القرن التاسع عشر .

تقدم اوروبا

واستفحل أمر هذا التخلف في الوقت الذي كانت أوروبا فيه قد شرعت بقطف ثمار نهضتها . وتقدمت في جوانب الحياة المادية تقدماً عظيماً ، بفضل جهود عدد من الرجال العظام . وكان من نتائج هذا التقدم رجحان كفة الغرب

في الحروب التي قامت بينه وبين الدولة العثمانية بفضل أسلحته الجديدة ، وبحث الغرب عن أجزاء من العالم لفرض سيطرته ونفوذه عليها لاستغلالها .

وحدث الاحتكاك بين عالمنا الاسلامي واوروبا وحالاهما مختلفان كلياً. وقد كان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مجرد احتكاك في ساحات الحرب على الحدود الأوروبية لا يتجاوز نطاقاً ضيقاً ، وفي رحلات التجار والرحالة الأوروبيين في أنحاء الدولة العثمانية؛ ولكن مجال الاحتكاك اتسع كثيراً في آخر القرن الثامن عشر عندما غزا بونابرت مصر . إذ تجاوز الحكومة العثمانية كما كان الشأن في تلك الحروب - ليشمل الشعب بطبقاته المختلفة ويحدث الاتصال المباشر بين المسلمين والأوروبيين . وكان قد حدث من قبل اتصال بينهما في عصور الازدهار الاسلامية . ولكنه كان من طبيعة مغايرة ، إذ جرى بين المسلمين المتحضرين والأوروبيين المتخلفين الذين وصفهم المسعودي بالبلادة . لذلك فإن احتكاك القرن التاسع عشر كانت له آثار عميقة « فقد كان بداية تدخل أجنبي مباشر في العالم العربي ذي نتائج اقتصادية واجتماعية عظيمة . وحطم النصر السهل الذي أحرزه الفرنسيون ما وقر في أذهان العرب من أن الاسلام متفوق على الغرب الكافر تفوقاً لا ينازع ، كما أن انتصارهم هذا خلق للمسلمين معضلة شائكة عميقة وهي مسألة تكييف أنفسهم بصورة تتلاءم مع العلاقات الجديدة »[1] وخصوصاً وان الغزوة الفرنسية جعلت الدول الأوروبية الأخرى تتحرك لتأخذ نصيبها من أملاك الرجل المريض . ولئن انتهت هذه الغزوة بالفشل فإن المحاولات الأخرى نجحت واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم احتلت انجلترا عدن سنة ١٨٣٩ .

عوامل قيام الحركات الاصلاحية

هزّ احتلال « الكفار » لأجزاء من الوطن الاسلامي المسلمين هزاً عنيفاً ،

---

١ - برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، ص ٢٣٩.

كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب واطلاعهم على تقدمه ، بالاضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم .

ومن هذا كله نبعت حركات الاصلاح التي تتابعت في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر . فجميعها قامت بتأثير عوامل ثلاثة : الاول، إحساس أفراد من النخبة بسوء الأوضاع في العالم الاسلامي . والثاني، تحدي الغرب للعالم الاسلامي واحتلاله أجزاء منه . والثالث، يمكن اعتباره عاملاً مساعداً وهو أن الاتصال بالغرب ساعد على كشف حقيقة التخلف وإبرازها أمام أعين أبناء العالم الاسلامي. ويمكن تصنيف هذه الحركات إلى نوعين : الاول، الحركات التي قامت بها السلطات المستنيرة للاصلاح،والثاني،الحركات التي قام بها رجال مصلحون من عامة الشعب .

ومن أول الحركات الإصلاحية التي قامت،حركة الاصلاح والتجديد في الدولة العثمانية التي بدأت في عهد السلطان مصطفى الثالث . ونلاحظ على هذه الحركة انها عنيت بالاصلاح العسكري فقط وذلك لأنها قامت على أثر هزائم الدولة العثمانية أمام الجيوش الأوروبية المزودة بالأسلحة الحديثة والمنظمة تنظيماً حديثاً . وكان الغرض منها إيقاف تلك الهزائم. ولم تع هذه الحركة أهمية الإصلاح الشامل إلا في عهد السلطان عبد الحميد الذي تحدث عن الإصلاح الإداري الشامل في فرمان الكولخانة . ثم هناك الحركة الوهابية التي قامت في نجد على يد محمد بن عبد الوهاب وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين وتأخرهم . ثم قامت على أثر الغزوة الفرنسية حركة محمد علي باشا في مصر ، وكان الدافع لها رغبة محمد علي بإقامة دولة قوية ، وقد تأثر مؤسسها كثيراً بما رآه من تقدم الأوروبيين . وقامت الحركة السنوسية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . وكان الدافع لها إحساس مؤسسها محمد بن علي السنوسي بتخلف المسلمين وتأخرهم وبتحدي اوروبا وخطرها على العالم الإسلامي .

مقارنة بين الحركات

وتتفق هذه الحركات في أنها نشأت نتيجة تحدي الأوضاع الداخلية السيئة أو العدو الخارجي الأوروبي ، وفي أنها قامت على أيدي أفراد من النخبة جابهوا تلك التحديات وتلمسوا طرق الإصلاح ، وفي أنها جميعها حركات إسلامية بمعنى أنها استمدت أفكارها الإصلاحية من الإسلام أو على الأقل وجدت فيه سنداً لها ولم يخالفه . فحتى حركة الإصلاح والتجديد التي قام بها السلاطين كانوا يصبغونها بالصبغة الإسلامية ويتلمسون لها المبررات من الاسلام ، وكذلك حركة محمد علي لم تحاول أن تخالف الدين بل حاولت أن تجد فيها سنداً لها . ويبدو هذا من حديث حفيد محمد علي اسماعيل لرفاعة الذي ذكرناه . أما الحركتان الوهابية والسنوسية، فكانتا نابعتين من الاسلام في خطوطهما الاصلاحية. وليس غريباً أن تتفق كل هذه الحركات بالاخذ من الاسلام واستفتائه لأن أبناء العالم الاسلامي كانوا يؤمنون بصلاحية دينهم ويرون علة التأخر والانحطاط هي بالانحراف عن تعاليمه . ويلمس هذا بوضوح في فرمان الكولخانة الرسمي. وليس غريباً ايضاً أن تتابع هذه الحركات في العالم الاسلامي؛ فبالاضافة الى وجود التحديات هناك تهيؤ للاصلاح بين المسلمين ناجم عن أصل ديني وهو حديث الرسول (ص) « ان الله يبعث للأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » . وقد تتابع المصلحون طوال فترات التاريخ الاسلامي بشكل متصل.

ولكن هذه الحركات بالرغم من اتفاقها في النقاط السابقة تختلف فيما بينها بالوسائل التي اتخذتها للوصول إلى الاصلاح وبالطابع الذي غلب على كل منها. وهذا الاختلاف طبيعي وناجم عن اختلاف المؤثرات المحيطة بكل منها. فحركة الاصلاح والتجديد وجهت اهتمامها للاصلاح العسكري ثم الاداري وحركة ابن عبد الوهاب التفتت الى اصلاح العقيدة ومحاربة البدع بينما اهتمت حركة محمد علي بالاصلاح الإداري . أما الحركة السنوسية فالتفتت إلى الاصلاح برسم طريقة حياتية له أساسها الاسلام، وعملت على إيجاد مجتمع مسلم يوصل إلى تحرير

بلاد الاسلام . كما أن حركتي الاصلاح والتجديد واصلاحات محمد علي تركزتا في العاصمتين استانبول والقاهرة فكان لهما طابع المدن والسلطة . بينما تركزت الحركة الوهابية في نجـــد وبين مدنها فكان طابعها يحمل طابع مدن البوادي أما الحركة السنوسية فقد تركزت في بوادي برقة وصحراء ليبيا والحجاز فطابعها بدوي ، ومؤسساتها بدوية بمعنى أنها أقيمت لتكفي حاجات البدو ، وموافقة للمجتمع البدوي .

وتأثرت كل حركة من هذه الحركات بظروف معينة جعلتها تتسم بسمات خاصة لكل منها،فانعزال الحركة السنوسية في البوادي إنمـــا نجم عـن تجنبها الاحتكاك بالسلطة العثمانية التي كانت تخشى الحركات الشعبية . وعن رغبتها في البعد عن نفوذ الدول الاوروبية بالاضافة إلى السلطة العثمانية . ومع أن هـــذه الحركة اتسمت بطابع البادية إلا أن أهدافها لم تكن ترمي إلى إصلاح البدو فحسب بل كانت تتجاوز ذلك إلى الأمل بإصلاح العالم الاسلامي كله . فإصلاح البدو ليس إلا خطوة أولى يقصد منها إيجاد نواة مجتمع مسلم مجاهد ، فإذا مـــا قوي واستعد خرج لتحرير أرض الاسلام من سيطرة الكفار . وكان ابن السنوسي يتوقع أن يسيطر الغرب الاوروبي على بلاد الاسلام ، وقد صح توقعه . وإصلاح العالم الاسلامي كان هدف كل الحركات الاسلامية ، وهو هدف شامل وقـد جاء شموله من الشعور الاسلامي بإخوة المسلمين وتكوينهم كياناً واحداً .

كما أن من الاسبـــاب التي دفعت الحركة إلى البوادي حاجة أهل البادية للاصلاح وتوافر مزايا خاصة فيهم تجعلهم صالحين لحمل الدعوات . وسندرس هذه الجوانب كلها بالتفصيل في الفصول التالية .

وقد قامت الحركة السنوسية على يد فرد من النخبة هو محمد بن علي السنوسي عاش واقع المسلمين المؤلم ، وخطر الاوروبيين المحدق فاندفـع يعمـل محاولاً الاصلاح . وبدأت في الربع الثاني من القرن التـــاسع عشر ولو أن نشاط ابن

السنوسي وقع في النصف الثاني من القرن المذكور . واستمرت الحركة بعد وفاة ابن السنوسي حيث ترأسها ابنه المهدي الذي توفي عام ١٩٠٢م . ثم ترأسها احمد الشريف ادريس . وقد مرت الحركة بطور النشوء في حياة ابن السنوسي . ثم نمت في عهد المهدي حتى بلغت ذروة نموها وانتشارها وجابهت بعد ذلك القوى الغربية في الحرب ضد فرنسا في الصحراء ، وضد إيطاليا في ساحل ليبيا . وستقتصر دراستنا هذه على تاريخ الحركة منذ نشأتها حتى وفاة المهدي أي حتى نهاية دور النمو . فالمدى الزمني لهذه الدراسة هو القرن التاسع عشر .

وسنبين في هذه الدراسة العوامل التي أثرت على ابن السنوسي ودفعته إلى القيام بحركته وذلك من خلال دراسة تاريخ حياته . ثم ندرس مؤلفاته وأفكاره وعمله ونتائج دراسة الحركة في عهد المهدي متعرضين لتاريخ حياته . ثم نفرد فصلاً خاصاً لدراسة النظام السنوسي الذي كان أساسه « الزاوية » والطريقة الصوفية . ونختم هذه الدراسة بفصل أخير عن انتشار الدعوة السنوسية .

الفصل الثاني

محمد بن علي السنوسي
وتأسيس الحركة السنوسية

كان محمد بن علي السنوسي من النخبة التي تأثرت لوضـــع المسلمين في ذلك القرن ودرست أحوالهم ثم قامت بمحاولات إصلاحية . وبرز هو كمفكر يدعو إلى التجديد والإصلاح ، ونجح في تأسيس الحركة السنوسية التي كانت تطبيقاً لأفكاره في الإصلاح ، والتي لعبت دوراً في النهوض بالمسلمـــين في ليبيا وأجزاء أخرى من الشمال الافريقي وفي نشر الاسلام في بعض نواحي أفريقيا السوداء . ولقد عاش السنوسي الكبير حياة حافلة تنقل فيها بين عـدة اجزاء من العالم الاسلامي ؛ وتاريخ حياته يلقي أضواء على شخصيته ويبين العوامل التي أثرت في تكوين تلـــك الشخصية كما يوضح كيفية نشوء الحركة السنوسية ومقدار نموها في عهده . لذلك فإننا نبدأ بدراسة هذا التاريخ .

مكان ولادته

ولد محمد بن علي السنوسي في محلة الواسطة على ضفتي وادي شلف من بلدة مستغانم الواقعة على الساحل الجزائري ، حيث كانت تقطن اسرته . ويقول شكيب أرسلان « إن هذه الاسرة من قبيلة مجاهر ، وإن عدد ابناء الحي الذي ولد فيه ابن السنوسي يبلغ سبعين الف نسمة ينتمي اليهم وينضوي حولهم نحو مئتي الف نسمة أكثرهم في عمالة وهران بجوار نهر شلف . »[1] ولا تزال مستغانم مقراً لهـــذه الاسرة حتى اليوم – إذا استثنينا الفرع المنحدر من ابن السنوسي الذي يسكن ليبيا –. وقد أورد نقولا زيادة أنه أخذ أثناء زيارته لمستغانم إلى

---

١ ـ شكيب ارسلان : هامش حاضر العالم الاسلامي، تأليف ستودارد ترجمة نويهض، المجلد الثاني ص ١٤٠ .

زاوية صغيرة خارج المدينة تضم قبر جد السنوسي ، كما ذكر أن الاسرة لا تزال تقيم في المدينة[1]. كذلك أورد محمد البهي «أن العائلة ما زالت تعرف في الجزائر حتى الآن بعائلة الاطرش[2]» وذلك في معرض حديثه عن اسرة السنوسي.

نسبـــه

وقـــد اشتهرت هـذه الاسرة بعراقة النسب ، فهي تنتسب إلى علي بن أبي طالب عن طريق الادارسة الحسينيين الذين حكموا المغرب الأقصى . وقد ذكر ارسلان « أنـــه اطلع للاسرة على نسب ينتهي إلى علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء »[3]. وذكر الأشهب في معرض حديثه عن النسب « أن خديوي مصر اسمـــاعيل باشا أمر بنقش سلسلة النسب باحرف ذهبية داخل إطار مذهّب وأهداه ليعلق بحائط الضريح السنوسي »[4]. كما أورد البستاني في دائرة المعارف أن نسب محمد بن علي السنوسي يتصل بالحسن ابن الإمام علي. »[5] وقـــد أورد الملك ادريس الأول حفيد ابن السنوسي هذا النسب في ترجمته لجده التي قدم بها لكتاب ايقاظ الوسنان فقال . « هو محمد بن علي السنوسي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبدالله بن خطاب بن علي السنوسي ، ابن يحيى بن راشد بن احمـــد بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف ابن زياد بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبدالله الكامل بن

---

1 - Ziadeh, Sanusiyah P. 35 Lieden 1958

٢ ـ محمد البهي : محاضرات في الفكر الاسلامي في مرحلته الثانية ص ٦٢ المطبعة المنيرية ص ١٩٥٧ .

٣ ـ ارسلان : المجلد الثاني ص ١٤٠

٤ ـ محمد الطيب الأشهب : السنوسي الكبير ص ٣

٥ ـ البستاني : دائرة المعارف، المجلد العاشر مادة سنوسي .

الحسن السبط بن علي وفاطمة »[1]

ألقــــابه

واشتهر محمد بن علي بلقب السنوسي مضافاً اليه الخطابي الادريسي الحسني في بعض الأحيان . ويوضح لنا حفيده أحمد الشريف في كتابه « الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية » كيف جاء لقب السنوسي فيقول « واشتهر باسم جده السيد السنوسي .. وجده ايضاً سمي باسم السنوسي على اسم صنو جده الرابع السيد محمد بن عبد القادر وصنو السيد السنوسي ابن عبد القادر، وكان هـــذا السيد إماماً في التفسير والحديث حتى اشتهر بإمام المحدثين وكان من الحفاظ في وقته وجال في بلاد المغرب لطلب العلم ووصل إلى تلمسان فنزل على قبيلة يقال لها بنو سنوسي من قبائل تلمسان .. ولما نزل بهذه القبيلة نسب اليهـــا وتسمى بها فصار من بعده يسمون أولادهم بهذا الاسم تبركاً به .. وقيل إن هذه القبيلة تعزى إلى جبل هناك يسمى (اسنوس) [2] أما لقب الخطابي فقد جاءه من جده « خطاب بن علي بن يحيى » والظاهر من كلام احمد الشريف أن الاسرة كانت تعرف بستغانم بآل خطاب [3] ، كما أن ارسلان ذكر اسم ابن السنوسي (محمد بن علي السنوسي الخطابي .. جـده سيدي عبدالله بن خطاب المجاهري)[4] وجـــاءه لقب الادريسي من الأدارسة الذين ينتسب اليهم والذين أسس جدهم ادريس الأكبر دولة في المغرب الأقصى بعد أن فر اليه من اضطهاد العباسيين سنة ١٧٢ هـ. وسلسلة نسب ابن السنوسي توضح أن عدداً من اجداده كانوا أمراء في الريف . وحيث أن ادريســاً الاكبر ينتسب إلى الحسن بن علي

---

١ ـ محمدبن علي السنوسي ـ ايقاظ الوسنان ـ الطبعة الاولى ١٩٣٨، ص ٣.

٢ ـ احمد الشريف، الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية ص ٣، ٤ طبعة اسطانبول .

٣ ـ ارسلان ص ١٤٠

٤ ـ احمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ـ المقدمة.

لذلك عرف السنوسي بالادريسي الحسني . وجـدير بالذكر أن ابن السنوسي كان يكتب اسمه في رسائله كاملاً على الشكل التالي « محمد بن علي بن السنوسي الخطابي الحسني الادريسي »[1] .

تاريخ ولادته

ويختلف مؤرخو السنوسية في تحديدهم لتاريخ ولادة ابن السنوسي ولو أن قسماً كبيراً منهم يتفق على تاريخ واحـــد ويحدد يوم ١٢ ربيع الاول من سنة ١٢٠٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ م . أما من خالف هذا التاريخ فجلهم من المؤرخين الأجانب مثل آدمس وستدارد ورين وديبون وكوبولاني والأخيران أخذا عن رين الذي أورد تاريخاً تقريبياً هو حوالي ١٧٩١ . ونحن نأخذ بالتاريخ الاول ونعتقد بصحته وذلك لانه التاريخ الذي ذكره مؤرخو السنوسية الأوائل ممن عاصروا ابن السنوسي ورافقوه من أبناء اسرته . ومما يؤكد صحة هـــذا التاريخ ودقته انه اقترن بيوم ذكرى مولد الرسول (ص) الذي يحتفـــل به المسلمون – وخصوصاً في المغرب – باعتباره موسماً دينياً . وقـــد نوه الشيخ الظاهري في ترجمته لحياة ابن السنوسي بهذا الاقتران فقال في مقدمة « المنهل العذب » « وشيخنا السيـــد محمد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي ولادته بالمغرب الأوسط في تمام عام ١٢٠٢ في ١٢ ربيع الأول ولذا سمي محمداً »[2] كما نوه بذلك احمد الشريف فقال في كتابه « الكوكب الزاهر »: «وولد رضي الله عنه في سنة اثنتين في القرن الثالث عشر بعد المائتين والالف يوم الاثنين والثاني

١ ـ اخترنا نحن استعمال لقب « ابن السنوسي » أثناء الحديث عنه ذلك لانه اللقب الذي يستعمله أهالي برقة في حديثهم عنه . وهناك من المؤرخين من استعمل لقب « السنوسي الكبير » .

٢ ـ احمد النائب ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ــ المقدمة .

عشر من المولد النبوي، قال: ولذلك سمتني امي محمداً »[1] وذكر الملــك ادريس هذا التاريخ في ترجمته لحياة جده في اول كتاب ايقاظ الوسنان حيث جاء فيها « وولد لليلة الثانية عشرة من ربيع الأول من السنة الثانية من القرن الثالث عشر سنة ١٢٠٢ [2]»، كما ذكر هذا التاريخ ايضاً الصادق المؤيد في كتابه عن سياحته في افريقيا [3] كما قبله فؤاد شكري والاشهب ورجحه نقولا زيادة بعد أن اشار إلى اختلاف المؤرخين فيه، وذكره الحشايشي [4]. أما اولائك الذين ذكروا تاريخاً غيره من المؤرخين الأوروبيين فأغلب الظن أنهم لجأوا إلى التحديد التقريبي بعد ان أعوزتهم المعلومات الدقيقة.

نشـــأته

ونشـــأ ابن السنوسي في اسرته التي اشتهرت بالاضافة إلى عراقة النسب بالعلم والدين. فقد كان ابناء البيت السنوسي كلهم منتسبين إلى العلم. [5] وكان والده السيد علي يجمع إلى العلم والإصلاح والتقوى الفروسية والرماية. وقد توفي السيد علي وهو في شرخ الشباب في الخامسة والعشرين من عمره بينما كان طفله في حوالي السنتين [6] فنشأ ابن السنوسي يتيماً واحتضنته بعد وفاة والده عمته فاطمة « وكانت من فضليات أهـــل زمانها متبحرة في العلوم منقطعة للتدريس والوعظ يحضر درسها ومواعيظها الرجـــال [7] واعتنت

---

١ ـ احمد الشريف « الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر » ص٩٢ من المخطوط.

٢ ـ السنوسي. ايقاظ الوسنان ص ٣ وفي حديث مع الملك ادريس اكد الملك صحة هذا التاريخ.

٣ ـ صادق المؤيد، سياحتي في صحراء أفريقيا ص ٦٦ استانبول ١٣١٤.

٤ ـ شكري ص ١١، الأشهب، السنوسي الكبير، زيادة ص ٣٥. الحشايشي في مقاله.

٥ ـ شكري ص ١١

٦ ـ حسب ما ذكر الملك ادريس ويقول صاحب المنهل في ذلك ومات والده وهو صغير كما يقول الأشهب انه كان في المهد بعد وفاة والده.

٧ ـ شكري ص ١١

بالطفل وتولت بنفسها تربيته وتثقيفه ، ويقول صاحب المنهل « انها أشغلته بعلم العقائد والتوحيد صغيراً بعد أن جمع القرآن »[1]. ويسكت مؤرخو السنوسية عن تحديد المدة التي قضاها معها حتى وفاتها . ولو أن الملك ادريس يقول بأن جده بقي معهـا حتى حوالي سن العاشرة إذ توفيت سنة ١٢١٢ هـ[2]. ويبدو أن السيدة فاطمة نجحت خلال المدة التي رعته فيها في تربيته وامدته بمعلومات كثيرة تناسب سنه وحببت اليه العلم ، هذا بالاضافة إلى ما غذته به من حنان. وقد تحدث الملك ادريس أن جده كان يذكر في شبابه وكهولته أشياء كثيرة تعلمها منها وأخذها عنها .[3] وعليه فإنه يمكننا اعتبـار السيدة فاطمة استاذه الأول .

وكفله بعد وفاتها ابن عم له اسمه الشارف وكان رجل علم[4] فتابع العناية به . واستمر الغلام يجمع العلوم فاتقن القرآن الكريم ودرس الفقه والحديث والتصوف على يدي ابن عمه ثم شرع يأخذ عن العلماء المشهورين في مستغانم ومازونه. وممن أخـــذ عنهم في تلك الفترة الشيخ محيي الدين بن شهلة، والشيخ عبـــد القادر بن عمور ، والشيخ محمد بن عبد القادر ، والشيخ محمد بن القندوز ،[5] والشيخ محمد بن خليفة ، والشيخ الصالح ابو طالب المازوني والشيخ ابو راس المعسكري. وبالاضافة إلى العلم تربى محمد بن علي السنوسي في صباه على الفروسية، ويقول الملك ادريس إن جده كان يقسم يومه إلى نصفين احدهما للعلم والدرس والآخر للفروسية وركوب الخيـــل . وقد توفي السيد الشارف حوالي سنة ١٢٢٠ وابن السنوسي في الثـــامنة عشرة من عمرة.[6]

---

١ ـ النائب، المنهل العذب .
٢ ـ في حديث الملك ادريس .
٣ ـ في حديث الملك.
٤ ـ لم يتعرض احد من مؤرخي السنوسية لهذه النقطة بالذكر .
٥ ـ شكري ص ١١ احمد الشريف .
٦ ـ من حديث الملك ادريس .

ويحسن بنا الوقوف قليلاً عند هذا التاريخ الذي سنعتبره نهاية المرحلة الأولى في حياة ابن السنوسي ، لتأمل شخصية الشاب فيه ولندرس العوامل التي أثرت في هذه الشخصية .

بدت أمارات الذكاء على ابن السنوسي في سن مبكرة حتى لفتت انظار قومه اليه . وقد أقبل على العلم بشغف ينهل من معينه ، وقضى وقتاً ليس بالقصير يفكر فيما تعلمه وفي الاوضاع المحيطة به . والظاهر أنه كان في صباه يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضي وقته بالتأمل والتفكير . ويروي فؤاد شكري « أنه حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالساً فوق كثيب من الرمال تبدو عليه علائم التفكير العميق فلما استوضحوه عن السبب في ذلك كان جوابه أنه انما يفكر في حال العالم الاسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سلاطينه وامرائه ومشايخ طرقه وعلمائه . فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماء الدين الموجودين في كل مكان فان العالم الاسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوق العالم الاسلامي اجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد . والسبب في هذا أن انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم قد فرقهم شيعاً واحزاباً وجماعات فاصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يعملون باوامر الدين الحنيف ، وهو دين توحيد اساسه الاتحاد وجمع الكلمة. زد على هذا ان على هؤلاء العلماء والشيوخ واجباً آخر عظيماً في حق الملة الاسلامية؛ اذ ان الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من أفريقيا الغربية لا تزال تعبد الأوثان ومع هذا فانهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وارشادهم الى الدين القويم ، ما زالوا يفضلون القبوع في « كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا همّ لهم إلا راحة اجسامهم حريصين على لذاتهم غير قائمين بواجبات مراكزهم لا ضمائر لهم تؤنبهم على اهمالهم بارشاد هؤلاء المساكين الوثنيين ». ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل

الواصلة إلى بلده مستغانم ان الاســـلام مغلوب على أمره في كل محل « وان المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من ايدي المسلمين في أي وقت وبسرعة البرق فالاسلام في حالة التدهور المخيف . ثم ختم السيد كلامه بقوله « هذا ما أفكر فيه » فلما سألوه ، وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي ما ذكرت اجاب «سأجتهد ، سأجتهد »[1].

تشير هذه القصة إلى بروز الجـــانب الفكري في شخصية ابن السنوسي . ويبدو او الاوضاع المختلفة التي أحاطت به دفعته إلى التفكير في حاله وحـال المسلمين. ومنذ هذه الرحلة الأولى في حياته بدأ يظهر عنده استعداد للرؤى . وبدأ يشعر نتيجة لتفكيره الدائب أن عليه دوراً يجب عليــه أن يقوم به ازاء المسلمين . بل انه صار يشعر بانه مقاد ومأمور بالقيام بعمله في الإصلاح . ولقد حدّث بعض اصحابه في اواخر حياته بينما كان معهم في الجغبوب بانه من اول شبابه كان يشعر انه مأمور في كل ما قام به من أعمال.

العوامل التي أثرت في شخصيته

وقد أثرت في شخصية ابن السنوسي في تلـك الرحلة عـدة عوامـــل . وشخصية الفرد تتأثر عادة بالمحيط من حولهـا . وبحسب نوع هـــذا المحيط تتكون فيها ردود افعال معينة ترسم في معالمها خطوطاً معينة .

واول هذه العوامل هو حال الجزائر في ذلك الوقت . فقد بلغ سوء الحكم فيهـا درجة بالغة . وقـــد تأثر ابن السنوسي مما كان يراه من ظلم الولاة الاتراك ، ومن الثورات التي كانت تقوم بـــه القبائل ضدهم . كما لمس أطماع الدول الاوروبية في بلاده . ونلاحظ في تاريخ ابن السنوسي انه كان يحمل فكرة ليست حسنة عن الاتراك؛ واغلب الظن أن بذور هذه الفكرة تكونت

---

١ ـ شكري ص ١٢ ، ١٣ وقد اوردها الاشهب ايضــاً ولم يذكر شكري المصدر الذي اخذها منه.

في تلك المرحلة من حياته . وقد زاد من نقمته على الحـــكم العثماني ما كان يسمعه في بلده عن احوال الاجزاء الاخرى من الدولة ثم عن أخبار افريقيـــا وتقصير المسلمين في الدعوة فيها .

كما زاد من احساسه بسوء الاوضاع دراسته على ايدي كبار العلماء في بلده، وكلهم على معرفة دقيقة بأوضاع البلد وأحوال الحكام . ولا بــد انه سمع منهم آراء الشرع فيمـــا يجري من احداث . ونحن نعرف اسماء مدرسيه ولكننا لا نعرف الكثير من تواريخهم ، ولو ان احدهم وهو ابن القندوز قد قتـل على يد الوالي التركي حسن بك عندما وجد فيه خطراً عليه . ويروى ان ابن القندوز رفض الهرب لما جاءه خبر عزم الحاكم على قتله وانه قال « سوف ينزل السوء بمازونه من جراء أخطـــاء حسن بك وسوف ينزل بالاتراك السوء بسبب ابن القندوز .»[1] وكان ذلك عام ١٨٢٩ . وهذا يدل على ان هذا الشيخ كان ناقماً على حكم الاتراك الجائر . ومن الطبيعي أن يكون ابن السنوسي قـد تأثر من الدراسة عليه وعلى أمثاله من العلماء .

ومن العوامل التي أثرت في شخصيته ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والاصالة . ومن المتوقع أن يكون الغلام قـد فكر بكونه حفيـــداً لرسول الاسلام ، كما فكر أيضاً بأجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولقــد جاء ميلاده موافقاً لتاريخ المولد النبوي وأسماه أهله على اسم النبي . وهذه أشياء صغيرة ولكنها تؤثر في شخصية الصبي عادة بالرغم من صغرها . ولذلك فإن من المتوقع أن ابن السنوسي شعر نتيجة لتلك الأمور بواجبه في السير في طريق مستوحى من أمجاد أجداده ولرفع راية الدين والاقتداء بسلوك النبي . ولقــد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه « الدرر السنية في أخبـــار السلالة الادريسية » . وهكذا فإننا نعتقد بان إحساسه

---

١ ـ شكري ص ١٢ ـــ الاشهب ص ٢٦ .

بنسبته للادارسة من جهة وللبيت النبوي الشريف أيضاً واقتران مولده بمولد النبي قد أثر تأثيراً كبيراً في اشعاره بمسؤوليته في الاصلاح .

ولقد ساعد في بناء شخصيته نشأته في بيئة علمية حببت اليه العلم وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة . فأبوه وعدد من اجداده كانوا من العلماء، وكذلك كانت عمته التي اشرفت على تربيته في طفولته الاولى . ونحن نعتقد ان السنوات التي قضاها مع عمته رسمت خطوطاً واضحة في شخصيته العلمية الاصلاحية . وهو لا بد وانه سمع من عمته الكثير ، والمرأة قادرة على ايصال المعلومات للطفل بصورة ممتعة . وقد سبق ان اوردنا انه بقي يذكر في كهولته بعض توجيهاتها له . هذا كما ان التقاليد التي ورثتهـــا اسرته ساعدت في صقل شخصيته ، من ذلك اهتمام الاسرة بتربية علمية عملية فيها الدراسة وفيها الفروسية .

رسمت هذه العوامل خطوطاً في شخصيته وقد وجدت فيه تربة خصبة . ويبدو انه كان يتمتع بقدر جيد من الذكاء ظهرت مخايله عليه فارتفعت منزلته في قومه . فبريتشارد يقول « انه اصبح ملحوظاً في صباه لذكائه وعلمه ولشرف مولده ايضاً [1] » ، كما يقول ستودارد «وقد عرف السيد محمد منذ حداثته بشغفه للعلم وسلوكه مسلك التقوى » [2] .

سفره الى فاس

اخترنا عام ١٢٢٠ هـ . ليكون نهاية المرحلة الاولى من حيـــاة ابن السنوسي لأننا نرجح انه العام الذي غادر فيه مستغانم الى فاس . وقبل ان نذكر اسباب مغادرته وطنه نورد آراء المؤرخين في تحديد سنة مغادرته مستغانم الى فاس . ذلك ان المؤرخين اختلفوا في هذا التحديد . فشكري يحدد عام ١٨٢٢ م . الموافق ١٢٣٧ هـ . والاشهب يوافقه . وأغلب الظن انه اخذ عنه – ثم يورد في

1 — Prichard " Senusi of Cyrenica p 11, "

٢ ـ ستودارد ، المجلد الاول .

حديثه عن رحلات ابن السنوسي انـــه كان حوالي تلك السنة في طريقه للحجاز .[١] ويورد زيادة آراء المؤرخين المختلفة ولا يجزم بصحة احدها وينقل عن رين «انه غادر وهو في سن الثلاثين» ؛ ومن مقدمة الايقاظ التي كتبها الملك ادريس «انه كان حوالي العشرين» ثم ينقل كلام آدمز ومناقشته لهذه المسألة حيث يقول «انه لو اتبعنا التحديد السنوسي لكان قـد غادر فاس حوالي ١٢٣٠ الموافق ١٨١٣ بينما تاريخ مغادرته فاس هو ١٨٢٢ حسب بعض الاقوال» ولا يخرج زيادة بتحديد وإنما يذكر أن التواريخ كلهـــا تقريبية[٢] . ويذكر الحشايشي ان ابن السنوسي غادر موطنه سنة ١٢٢٩ قاصداً فـــاس[٣] ونحن نرجح انه غادر موطنه عام ١٢٢٠ ولا نوافق على التحديدات الاخرى وذلك لأن هذا التاريخ ينسجم مع المخطط التفصيلي الذي سنورده لحياته ولا يتضارب مع اي جزء كما لا يدع فراغاً اعترف به جل المؤرخين وسكتوا عنه . كما ان هناك ما يثبت عدم صحة التحديدات الاخرى ، فاحمد الشريف يذكر ان جده مر في طرابلس الغرب في طريقه الى الحجاز سنة ١٢٣٨ هـ اي ١٨٢٣ م[٤] . وهذا يوافق تحديد شكري ورين وغيرهمـا الذي يجعل ابن السنوسي في تلك السنة في فاس ويزيدنا اطمئناناً لترجيحنا هذا الملك ادريس في ان جده غادر مستغانم سنة ١٢٢٠ وهو في الثامنة عشرة من عمره[٥] .

اسباب سفره

اما اسباب مغادرته مستغانم الى فاس فيكاد يجمع مؤرخو السنوسية على ان السبب الرئيسي هو طلب العلم في جامعها المشهور «القرويين». وقد ذكر الملك

---

١ ـ شكري ص ١٣ الاشهب ص ١٤ ، ١٥ .
٢ ـ زيادة ص ٣٦ . رين ص ٤٨٣ . آدامز ص ٥ .
٣ ـ الحشايشي في مقاله في جريدة الحاضرة .
٤ ـ احمد الشريف ص ٨ .
٥ ـ اكد الملك هذا التاريخ في حديثه لي .

ادريس ان جده نتيجة لازدياد شغفه بالعلم وبعد ان درس على كل علماء مستغانم ومازونه ارتحل الى فاس ليدرس على مشاهير علمائها . كما اورد شكري في معرض حديثه عن هذه النقطة « ان ابن السنوسي لم يكتف بما حصله في بلده ، بل قصد الى محروسة فاس محط رحال العلماء « والوقت اذ ذاك وقت والعلماء علماء » . [1] ولمثل هذا يذهب الاشهب وبريلشارد وزيادة وينفرد رين بينهم بعزوه سبب المغادرة الى نوع من عدم الاتفاق بين ابن السنوسي وعائلته . [2] ونحن نرى ان طلب العلم كان سبباً رئيسياً في مغادرته لأن ابن السنوسي كان يتميز بانه طلعة محب للعلم مقبل على الاطلاع اقبال النهم ، ولا شك في انه بعد فراغه من الدراسة على ايدي علماء بلده طمح في الاستزادة وفكر في الارتحال. ولكننا بالاضافة الى هذا السبب الرئيسي نرى انه من الممكن ان تكون هناك ظروف عجلت بهذا الارتحال . واخبار سنة ١٢٢٠ في الجزائر توضح لنا هذه الظروف . فقد اورد الشيخ الناصري في كتابه الاستقصاء انـه « في سنة ١٢٢٠ هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك ، وكان السبب ان باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم ، فقتل بعض الطائفة الدرقاوية وامر بالقبض على مقدمهم ابي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي تلميذ الشيخ الاكبر ابي عبد الله سيدي محمد العربي بن احمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة ففر عبد القادر الى الصحراء ونزل بحلة الاحرار فاجتمع عليه اهل الطائفة وامتعضوا لمن قتل منهم وزحفوا مع قبائل العرب لحرب الترك فقتلوهم على حين غفلة . ولما دخل فصل الربيع من السنة المذكورة بعث صاحب الجزائر عسكراً الى باي وهران فارسل باي وهران الى مولاي سليمان يطلب منه ان يوسط الدرقاوي ففعل ولكن البـــاي شك فيه وفي السلطان . وكانت النتيجة ان خلع عرب تلمسان بيعة الترك وبايعوا السلطان فكتب الباي الى الدولاتي باشا صاحب

---

١ ـ شكري ص ١٣ .

٢ ـ رين ٤٨٣ ، زيادة ٣٦ .

الجزائر . وحل السلطان سليمان المسألة حلاً معقولاً وهو أن يحجز بين الترك والعرب . ولكن اهل تلمسان هاجروا جميعاً الى المغرب فلم يبق من الرعية احد ولم يعودوا الا بعد سنوات[1] . فهذه الاخبار توضح حالة عدم الاستقرار التي كانت تمر بها منطقة وهران في الجزائر ومستغانم بلد ابن السنوسي لا تبعد كثيراً عن وهران وتلمسان فهل تكون تأثرت بهذه الاحداث، وهل يكون اسباب سفر ابن السنوسي هذه الاحداث ؟ لا نستطيع الجزم في هذه المسألة . وهناك نقطة اخرى هي ان نقمة الترك كانت على الدرقاوية والمؤرخون مجمعون على ان ابن السنوسي كان درقاوياً ولكنهم لم يذكروا متى انتسب الى هذه الجماعة الصوفية قبل سفره الى فاس ام بعده ؟ اما اذا كان قبل ذلك السفر فقد يكون اختار السفر من بلده عندما حدثت الحوادث المذكورة .

في فـــاس

قدم ابن السنوسي الى فاس واستقر فيها مـدة من الزمن . وكانت فاس محط رحال العلماء وملتقى طلاب العلم يجتمعون في جامعها المشهور « القرويين » الذي يعتبر اقدم جامعة في العالم . فقد تأسس في القرن الثالث الهجري (٢٤٥ هـ . — ٨٥٩ م (في عهد الادارسة وقامت ببنائه سيدة مسلمة اسمها فاطمة بنت محمد عبدالله الفهري . واخذ الجامع اسمه من تخفيف اسم القيروانيين الذي كان يطلق على القسم الغربي من مدينة فاس حيث بني المسجد ، وذلك لأنـــه كان مقر المهاجرين من القيروان ، وقد اعتاد الناس على ان يطلقوا عليهم اسم القرويين تخفيفاً . واستمر جامع القرويين مركزاً للعلم قروناً طويلة لم يحدث فيها انقطاع للدراسة فيه . كما انه بني في مدينة وضع حجرها الاساسي لتكون « دار علم وفقه » ومنذ يومه الاول والفقهاء يشرفون عليه وقد جدد الجامع ثلاث مرات

---

١ ـ ابو العباس الناصري « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » ـ تحقيق جعفر ومحمد الناصري ١٩٦٠ الدار البيضاء الجزء الثامن ص ١٠٥ .

وشهد عهوداً عدة بقي فيها منارة للعلم فاستحق ان يعتبر اول جامعة علمية عرفها العالم » [1] .

وفي القرويين تعرف ابن السنوسي على اكابر علماء المغرب واخذ عنهم . وقد كان يتميز برغبة قوية في الاطلاع ونهم عظيم للعلم . واغلب الظن انه تنقل طيلة السنوات التي قضاها في فاس بين الحلقات المختلفة ياخذ عن العلماء واحداً تلو الآخر مختلف العلوم التي كانت تدرس وتعطى فيها الاجازات . وقد نقل لنا ارسلان عن احمد الشريف حديثه عن دراسة جده في فاس وعن الشيوخ الذين اخذ عنهم فقال « ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون باسانيدهم السابقة وغيرهم من اماثل علماء فاس . ومنهم العلامة المتقي المتفنن ابو المواهب سيدي ابو بكر بن زياد الادريسي حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والاربعين ومضاعفاتها والاسطرلابين وصناعتها والعلوم الاربعة الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارثماطيقي واصول قواعد الموسيقى والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الاحكام والنسب والوفق والقواعد الجفرفية والاصول الزايرجية والبسط والتكسير والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ ... » [2] فهذه قائمة طويلة تدل على اقبال ابن السنوسي على تلقي العلم كما تشير الى سعة اطلاعه ، ويفهم مما اورده ارسلان نقلاً عن احمد الشريف ان ابن السنوسي بقي مهتماً بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه فيما بعد .

اساتذته

اما العلماء الذين درس عليهم مدة بقائه في فاس فهم كثيرون ومن اعلام

---

١ ـ التازي ، احد عشر قرناً في جامعة القرويين .

٢ ـ ارسلان المجلد الثاني ص ٤٠١ .

العلم في المغرب . وقد أورد شكري اسماء بعضهم مثل « سيدي الشيخ حمودة بن الحاج وسيدي حمدون بن عبد الرحمن بن الحـــاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ ، وسيدي الطيب الكيراني (ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ) ، وسيدي محمد بن عامر المعواني وسيدي ابو بكر الادريسي والشيخ ادريس بن زيان العراقي والشيخ محمد بن منصور والشيخ محمد بن عمر الزروالي والشيخ محمد الباعزي وسيدي العربي بن احمد الدرقاوي والذي كان من اشياخ الطريقة الشاذلية »[1] وبعض هذه الاسماء اثبتها الملك ادريس في مقدمة الايقـــاظ كما وردت في فهرسة ابن السنوسي . ويضاف اليها التيجاني ومحمد بن عبد السلام الدرعي[2] .

وفي خلال فترة الدراسة التي امضاها ابن السنوسي في فاس توضحت بشكل ابين الاتجاهات الاصلاحية في شخصيته الفكرية والعلمية . وتبلورت افكاره في التجديد والاصلاح ويمكننا ان نلاحظ ثلاث خطوط رئيسية رسمت بوضوح في شخصيته ابان تلك الفترة ، وبقيت ماثلة بارزة طوال حياته . ولذلك يمكننا اعتبار المرحلة الثانية المرحلة التي بدأت فيها شخصيته بالتكامل ، ولو ان هذا التكامل لم يتم الا بعد انتهائها بسنوات .

ثلاث خطوط في شخصيته

اول هذه الخطوط هي الصوفية التي ازداد ابن السنوسي تعرفـــاً عليها في فاس . ولقد كانت فاس موئلاً لفرق صوفية عديدة وميداناً خصباً لنشاطها . والشمال الافريقي على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى اهله اهتمام كبير بها . ولقد بدأ تعرف ابن السنوسي على الصوفية في موطنه الاول مستغانم ويبدو انه ارتاح لها وانسجمت طبيعته الميالة للرؤى معها . وطبيعي ان يكون

---

١ ـ شكري ص ١٣ و ١٤ وتواريخ الوفاة مأخوذة من كتاب الاستقصا .

٢ ـ احمد الشريف الانوار القدسية ص ١٣ .

قد تردد كثيراً في صباه على حلقات الذكر في بلده . وطبيعي ان يكون ابن السنوسي قد انسجم مع جو الصوفية الذي يسوده التسبيح والترتيل والذي يناسب طبيعته الميالة للرؤى . وهكذا فاننا نستطيع القول ان بذور الصوفية عنده وجدت في المرحلة الاولى ولكنها نمت في المرحلة الثانية بفضل عيشه في فاس وسط الجو الصوفي .

ولقد كان للصوفية سيطرة قوية على الناس في فاس كما كان نفوذهم قوياً في جامع القرويين، وذلك إبان حكم مولاي سليمان الذي كان يحترم رجالها. ومما اورده صاحب الاستقصا في اخبار سنة ١٢١١ ما يلي « وفي هذه السنة قدم الى فاس الشيخ المتصوف ابو العباس التيجاني فاستوطنها ، وكان الباي محمد ابن عثمان صاحب وهران قد اخرجه من تلمسان الى قرية ابي سمغون فأقام بها واقبل اهلها عليه ثم لما مات الباي المذكور وولي بعده ابنه عثمان بن محمد سعى عنده بالشيخ التيجاني فبعث الى اهل ابي سمغون وتهددهم ليخرجوه . ولما سمع بذلك الشيخ المذكور خرج مع بعض تلامذته واولاده وسلك طريق الصحراء حتى احتل فاس ، ولما دخلها بعث رسوله بكتابه الى مولاي سليمان يعلمه بأنه هاجر اليه من جور الترك وظلمهم واستجار منهم بأهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له في الدخول عليه والحضور بمجلسه . ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته في العلوم اقبل عليه واعتقده واعطاه داراً معتبرة من دوره كان انفق في عمارتها نحواً من عشرين الف مثقال ورتب له ما يكفيه واقبل عليه الخلق واشتهر امره بفاس والمغرب وهو شيخ الطائفة التيجانية »[1] . والتيجانية هي احدى الطرق التي تعرف اليها ابن السنوسي في تلك الفترة. واغلب الظن انه التقى بالشيخ التيجاني واخذ عنه الطريقة ، ولو ان زيادة أورد نقلاً عن « كارلوجيليو » ان ابن السنوسي لم يذكر قط اسمه في فهرسته . ولكن احمد الشريف يذكر في مقدمته ان جده اخذ تعاليم التيجاني منه وقرأ عليه

---

١ – الناصري : الاستقصا ص ١٠٥ ج – ٨ .

القرآن [١]. ونحن نرجح قول احمد شريف الذي ورد في الانوار القدسية على لسان ابن السنوسي «اخذت عنه وقرأت عليه القرآن». ثم يعلق عليه احمد الشريف بقوله «واحمد التيجاني من اصحاب تجليات الصفات توفي عام ١٢٣٠ وعمره ثمانون سنة وكان متمسكاً بالسنة عاملاً بها محرضاً عليها وقد حضر ابن السنوسي وفاته وشرب من ماء تغسيله» [٢]. وبالاضافة الى التيجانية تعرف ابن السنوسي ايضاً على القادرية والشاذلية والجازولية والدرقاوية والناصرية والحبيبيــة وغيرها [٣]. وهكذا فانه كما يقول بريتشارد «نمّى هناك رغباته الصوفية ووقع تحت تأثير النظام المغربي للصوفية» [٤]. ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى آخر حياته وبقي خطها بارزاً في شخصيته حتى انه نظم طريقة خاصة عرفت باسمه. هذا ومن المتوقع ان تكون الصوفية قد ساعدته على الارتفاع بنفسه والارتقاء بمشاعره وزادت من شعوره بمسؤوليته ومن استعداده لتحمل هذه المسؤولية.

والخط الثاني الذي رسم في شخصيته خلال تلك المرحلة هو اهتمامه بالدراسة الفقهية. فقد تابع ابن السنوسي في فاس دراسته للفقــه على المذهب المالكي. ومعروف ان اهل الشمال الافريقي يتبعون هــذا المذهب منذ القرن الثاني للهجرة. وقد درس ابن السنوسي كتب الفقه المالكي على يد اساتذته، وهو يخبرنا في المقدمة التي كتبها من اجل طلابه لكتاب الموطأ للامام مالك انه اخذ الموطأ على طريقتي المغاربة والمشارقة، وقد اقتصر على ذكر اثنين من اساتذته المغاربة وهمــا محمد بن عامر المعداني، ومحمد بن عبد السلام الناصري. ونلاحظ من تآليف ابن السنوسي الفقهية سعة اطلاعه على الفقه المالكي وفقــه المذاهب الاخرى. وهذا ولا شك عائد لتلك الفترة التي عكف فيها على الدراسة، يأخذ من العلماء ويقرأ ما يقدر على قراءته من الكتب الكثيرة التي تضمها خزائن

---

١ - زيادة ص ٣٧. Ziadeh P. 37
٢ - احمد الشريف الانوار القدسية ص ١٧.
٣ - شكري ص ١٤، زيادة ص ٣٧.
٤ - بريتشارد ص ١١. Pritchard P. 11

جامع القرويين . ولقد بقي اهتمامه بالجانب الفقهي حتى آخر حياته، واستمر معتبراً نفسه مالكي المذهب ولو انه اجتهد فيه وخالف المالكية في عدد من المسائل وسنبحث هذا بالتفصيل فيما بعد .

خط هذان الخطان معاً في شخصية ابن السنوسي فكان ذلك مما حقق التوازن فيها ، فلم يغلُ في صوفيته ولم يغرق في شطحاتها كما انه لم يغل ولم يقف عند الحروف الفقهية ولم يتجمد في فهم احكامها بل زاوج بين دراستيه واتجاهيه فأكسب صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع واكسب فقهه طابع الروحية المتألقة .

اما الخط الثالث فكان اهتمامه بالحركات السياسية او ما يمكن وصفه بالعمل لاصلاح الاوضاع المختلة والوقوف في وجه الحكام عند انحرافهم ، والوقوف معهم لتحقيق الاصلاح وتنظيم تكتل شعبي يسند هذه المطالبة ويعززها . ولقد برز هذا الاهتمام عند ابن السنوسي في المرحلة الاولى من حياته إبان سكناه في مستغانم نتيجة اوضاع الحكم المختلة، ثم زاد هذا الاهتمام في فاس التي تميزت عن مستغانم بكونها عاصمة دولة ومركزاً لإشعاع العلم ونشر الوعي. ولا شك في ان عيش ابن السنوسي وسط جوها دارساً على علمائها الذين كان يتمتع اكثرهم بنفوذ عظيم بين عامة الناس وبمهابة قوية امام السلطان ، أثر على شخصيته واكثر من اهتمامه بالعمل في المجالات العامة . والاخبار المتفرقة القليلة التي اوردها مؤرخو السنوسية عن تلك الفترة تدلل على وجود هذا الاتجاه لديه .

قيامه بالتدريس

وبعد ان قضى ابن السنوسي مدة من فترة بقائه في فاس يتلقى العلم تحول الى التدريس بعد ان اجازه اساتذته في مختلف العلوم التي درسها . ولا ندري كم لبث بالضبط قبل ان يصبح مدرساً، وذلك لأن من أرخوا للسنوسية لم يذكروا الا القليل عن حياة ابن السنوسي الاولى . وعلى اية حال فانه كما يقول شكري

« حصل على المشيخة الكبرى وعين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس[1] ». فبدأ بذلك حياته كمدرس داعية ، ومارس الوعظ والدعوة الى الله . وقد افاده ذلك مراناً وهيأه لدوره الذي سيقوم به كداعية كبير ، كما جره الى مجابهة تجاربه الاولى في العمل العام ، حيث التقى بعامة الناس وبمجموعات الطلاب فاستفاد من ذلك فهماً لعقلية الجماهير . ويبدو انه نجح في كسب ثقة العامة وفي توجيههم. كما انه من جهة اخرى احتك نتيجة لدخوله ذلك الميدان بالسلطة للمرة الاولى في حياته . ومؤرخو السنوسية لا يوردون عن هذا الاحتكاك الا اخباراً قليلة . فزيادة ينقل عن « رين » قوله « ويظهر انـــه لفت نظر امبراطور مراكش مولاي سليمان فرغب سليمان ان يخدم ابن السنوسي في بلاطه » . ويضيف زيادة « ولكن السيد السنوسي رفض واشمأز من فكرة ان يكون رجل بلاط »[2] .

اما بريتشارد فيقول نقلاً عن سالم بن عامر « وهناك صاحب ترجمة له تركي يقول إن احد اسباب مغادرته مراكش كان تجنب الاصطدام المتوقع مع السلطة التي انزعجت من دعوته للوحدة الاسلامية التي كانت هدفه وخشيت ان يكون لها غايات ومرام سياسية »[3]. ويفصل شكري في هذه النقطة حيث يقول : « وفي اثناء اقامته بفاس ظهر فضل السيد واقبل عليه تلاميذه ونال شهرة علمية عظيمة . ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في ان يرى العدل باسطاً جناحيه على اهل السلطنة وعلى شعوب الاسلام طراً ، هما كل ما يريد في حياته ، فقد اكثر من الموعظة الحسنة في اثناء دروسه وجرب مع الاهلين واصحاب الشأن بمقر السلطنة في فاس طرق الارشاد بالحسنى تارة وبالشدة تارة اخرى. لكن دعوته الى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها . بل ان كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان الى هذه الدعوة وتلمـــس الخطر من جانبها ، خشية ان تنقلب الدعوة الدينية

١ ـ شكري ص ١٠ .

٢ ـ زيادة ص ٣٦ .

٣ ـ بريتشارد ص ١١ نقلا عن مجلة عمر المختار رقم ١١ ص ٢٤ عام ١٩٤٣ .

الى أخرى سياسية قد تعصف بالسلطنة على غرار ما يحدث من ازمنة بعيدة حيث كانت تبتدىء الحكومات في هذه الديار اولاً بالمشيخة والارشاد ثم تنتهي بالحكم والسلطان . وعلى ذلك شددت الحكومة في مراقبة السيد فوجد ان لا فائدة ترجى من بقائه بفاس »[1] . هذا ما اورده المؤرخون عن احتكاك ابن السنوسي بالسلطة وهو كلام موجز لا تفصيل فيه. والحق ان المصادر التاريخية تسكت عن الكثير من اخباره في تلك الفترة. ونحن لا نستبعد ان يكون ابن السنوسي قد لفت نظر مولاي سليمان – كما اورد رين – فدعاه الى العمل في بلاطه وذلك لأن مقدرة ابن السنوسي التي نعرف عنها الكثير من اخباره اللاحقة لا بد وان تكون تكشفت للناس فاشتهر امره ، وقد يكون هذا مما دفع مولاي سليمان الى تأليف قلبه وكسبه وتأمين جانبه بدعوته للعمل معه. وتجب الاشارة هنا الى ان شخصية ابن السنوسي لا بد وان تكون قد ازدادت ايماناً بدوره ومسؤوليته اثناء مكوثه في فاس بلد اجداده الادارسة ووسط جامع القرويين الذين بني في عهدهم . اما نوع تأثره فنرجح انه كان من ناحية دوره كمسلم ينتسب للرسول عليه ان يقوم بعمله لإحياء دعوة الاسلام في القلوب . ونستبعد ان يكون التأثير من ناحية أحقيته بالسلطة لأنه – وسنلاحظ هذا في تاريخه اللاحق – كان عازفاً عن السلطة والحكم. وعلى اية حال فان من الممكن ان يكون السلطان سليمان قد نظر الى اعتبارات نسبه للادارسة بالاضافة الى عمله وشرفه فخشي من مزاحمته . هذا كله توقع واحتمال لأن الأدلة التاريخية تعوزنا نتيجة لسكوت المصادر التي بين ايدينا .

أسباب مغادرته فاس

ويربط مؤرخو السنوسية بين هذا الاحتكاك بالسلطة وبين مغادرة ابن السنوسي فاس . كما انهم يختلفون في تاريخ مغادرته مثلما اختلفوا في تاريخ

---

١ ـ شكري ص ١٤ .

قدرمه . « فزيادة » يذكر ان ابن السنوسي قرر بعد رفضه دعوة السلطان ان يغادر مراكش، وانه غادرها الى بعض الواحات وانه كان في الجزائر عام ١٨٣٠ عندما احتلها الفرنسيون ، وهو يعتمد في ذلك على « رين » [١] . ولا يكتفي زيادة بذلك بل يورد في الهامش قوله « ان تاريخ تحركات السنوسي غير واضح » ويقوم بمناقشة لا يخرج منها برأي قاطع حول تاريخ مغادرته ، وان كان يرجح سنة ١٨٢٩ باعتبار أن ابن السنوسي كان في الجزائر سنة ١٨٣٠ . اما شكري فيذكر بعد المقطع الذي نقلناه عنه والذي يبين موقف الحكومة منه «انه قرر الارتحال عنها (يقصد فاس) في عام ١٢٤٥ هـ . اواخر ١٨٢٩م ». ويذكر بريتشارد ان ابن السنوسي غادر فاس في الثلاثينيات . ويوافق الاشهب على قول شكري ثم يورد في مكان آخر ان ابن السنوسي دخل الحجاز سنة ١٢٤١ هـ . وبنى زاوية ابي قبيس سنة ١٢٤٢ هـ.[٢] مما يجعلنا نشك في صحة التاريخ الاول لانه يستوجب حسب قول الاشهب الثاني ان يكون ابن السنوسي قد غادر فاس قبل التاريخ الاول بعدة سنوات . كذلك يذكر الحشايشي سنة ١٢٤٥ هـ. ١٨٢٩م. وتخالف هذه الاقوال كلها قول الملك ادريس في مقدمة الايقاظ « ثم ارتحل في حدود العشرين من القرن المذكور الى محروسة فاس .فأقام بها الى تمام عشرة العشرين»[٣] اي حوالي سنة ١٢٣٠ هـ . وقد حدد الملك تاريخ مغادرة جده ابن السنوسي لفاس بسنة ١٢٣٥[٤].ونحن نرجح صحة هذا التاريخ فهو ينسجم مع باقي تواريخ

---

١ ـ زيادة ص ٣٧ .

٢ ـ الاشهب السنوسي الكبير ص ١١ ، ١٣ .

٣ ـ ايقاظ الوسنان ص ٤ .

٤ ـ ازاء اختلاف المؤرخين في تحديد سنة مغادرة ابن السنوسي لفاس ورغبة في الوصول الى مخطط تاريخي صحيح لتسلسل حياته فانني رجعت الى الملك ادريس وارسلت له السؤال التالي ـ وكان قد ذكر لي في جلستي معه ما أورده في ايقاظ الوسنان ـ « بالنسبة لمخطط تاريخ حياة الجد السيد محمد بن علي السنوسي رحمه الله ، من المعلوم انه ولد سنة ١٢٠٢ هـ. وانه حسب رأيكم سافر الى فاس حوالي ١٢٢٠هـ.وبقي فيها حتى ١٢٣٠هـ.حيث اتجه الى المشرق.ولقد=

تحركاته التي سنوردها ولا يتناقض مع احــد منها . كما ان صادق المؤيد ذكر هذا التاريخ حيث قال في رحلته «في سنة ١٢٣٥هـ. فارق فاس الى الجزائر».[١] واغلب الظن انه سمع ذلك إن لم يكن من السيد المهدي نفسه فمن كبار مريدي السنوسية وهم اكثر معرفــة بتاريخ امامهم لذلك نميل الى ترجيح هذه السنة .

وقد رأينــا أن نعود إلى الاحداث التي جرت في فاس حوالي تلك السنة (١٢٣٥ هـ. ١٨١٩ م .) فتبين لنـــا من حديث صاحب الاستقصا أن فتناً كثيرة ثارت في فاس . وكان أولها قبل السنة المذكورة بقليل حيث قام أهالي فاس على عاملهم الصفار. ثم «عاد شباب الفتنة إلى عنفوانه » في السنة المذكورة حتى عمت الفوضى المدينة واضطر أهل الحل والعقد أن يقوموا بضبطها . ثم حدثت فتنة أخرى « بسبب نزاع جرى بين القاضي والمفتي رفع أمره للسلطان سليمان فأخر المفتي عن الفتوى ، فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله[٢] ».ثم اضطرمت نار الفتنة حتى انتهت بخروج أهل فاس على السلطان سليمان، وعزموا على بيعة المولى ابراهيم بن يزيد وهو صهر السلطان على ابنته . وقــد امتنع أولاً فهددوه قائلين « ان لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى ادريس رضي الله عنه » فخاف خروج الأمر من بيتهم وأجاب [٣] . ونجد في تلك الاخبار ان من العلماء الذين حضروا البيعة محمد العربي الدرقاوي وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسي. ونحن نتساءل: هل كان ابن السنوسي مشتركاً وقائماً بدور في هــذه الاحداث ؟

= وجدت في تاريخ السيد احمد الشريف رحمه الله ان الجد مر في طرابلس سنة ١٢٣٨ هـ. فأين قضى السنوات الثاني بين التاريخين الأخيرين ؟

فرد علي : « غادر الامام مدينة فاس عام ١٢٣٥ متجهاً للجزائر وبقي فيها حتى عام ١٢٣٨ اي انه قضى ثلاث سنوات ما بين مستغانم وقسطنطينة وكان اكثر الوقت في مستغانم ».

١ ـ الصادق المؤيد ص ٦٦ .

٢ ـ الناصري الاستقصا ١٤٦ الجزء الثامن .

٣ ـ الناصري الاستقصا ١٥٠، الجزء الثامن .

وهل هناك صلة بينه وبين الادريسي الذي هدد أهل فاس بمبايعته ؟ اذا كان الجواب نعم فهو يتفق مع حديث « رين » عن خشية السلطان من ابن السنوسي، ولكن سكوت صاحب الاستقصا عن أخبار ابن السنوسي في تلـــك الفترة يجعلنا نرجح ان دوره لم يكن كبيراً . وقـــد علق بريتشارد على فكرة احتمال أن ابن السنوسي خرج تجنباً للاصطدام مـــع السلطان بقوله « لقـــد كان لهم سبب صغير للانزعاج ما دامت جهوده بدت وكأنها حققت تأثيراً ضئيلاً على أهالي فاس ، ولكن اذا كانت القصة حقيقية فإن شك السلطات لا بد وأنه كان أول تجربة له في سلسلة المعارضات التي سيلاقيها فيما بعد في القاهرة ومكة».[1] وعلى أية حال فان جو فاس الملبد بالفتن قد يكون أحـــد أسباب مغادرته فاس وخصوصاً بعد أن استطـــاع السلطان سليمان استعادتها إذ كان مصير الشيخ الدرقاوي السجن ثم سُرح بعد وفاة السلطان سليمان سنه ١٢٣٧ وتوفي سنة ١٢٣٩ .[2] ولا بـــد أن مركز العلماء وطلابهم كان مزعزعاً لأنهم وقفوا ضد السلطان . هذا ومن المتوقع أن تكون هذه الاحداث قد أكسبت ابن السنوسي خبرات كثيرة كما ان قيامه بالدعوة في فاس قد أفاده وهيأه لدوره اللاحق .

وان مما شجع ابن السنوسي على مغادرة فاس انه كان قد أخذ كفايته من الدراسة على علمائها وبات تواقاً للأخذ على علماء جدد . ويرى زيادة أن فكرة السفر إلى مكة برزت عند ابن السنوسي في تلك المدة. وقد لجأ ابن السنوسي إلى السؤال عن أشهر العلماء للارتحال اليهم والأخذ عليهم، ولذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في صحراء الجزائر ليتعرف على أشهر الزوايا وليقابل مقدميها حتى بلغ عين مهدي [3] ومكث فيها مدة قصيرة ثم قصد « الاغوات » التي كانت

---

١ - بريتشارد ص ١٢ .

٢ - الاستقصا ٩٠،١٥٩ من الجزء التاسع .

٣ - شكري ص ١٤. ويقول شكري انه درس في عين مهدي الطريقة التيجانية، وقد ذكرنا فيما سبق انه تعرف إلى التيجانية في فاس من التيجاني نفسه.

تتميز بأهمية موقعها بجنوب الجزائر بوصفها ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربي. وفيها مكث بعض الوقت يلقي دروساً في الفقه والشريعة [١]. ثم ارتحل منها إلى « مسعد » ثم إلى « جلفة » ثم إلى « بوسعده » وهـو في أثناء رحلته يّطلع ويدرس ويقوم بالتدريس .

في طريقه الى المشرق

ويتفق عدد من مؤرخي السنوسية المحدثين على أن ابن السنوسي بعـد هذه الرحلة بين مدن الجزائر الداخلية غادر الجزائر إلى تونس قاصداً الشرق فبريتشارد يقـــول « ذهب من فاس إلى جنوبي الجزائر ثم إلى قابس فطرابلس فمصراته فبنغازي يعظ في أي محل حل فيه أثناء سيره » [٢]. ويذكر شكري ان ابن السنوسي لم يعد إلى بلده مستغانم وانه أراد عندما احتل الفرنسيون أرض الجزائر ان يرجع ليقاوم المحتلين ولكنه عدل عن ذلك إثر رؤيا مشهورة تنصحه بالسفر صوب الشرق [٣]. ويذكر زيادة أنه كان ببوسعدة سنة ١٨٣٠ عندما احتـــل الفرنسيون الجزائر ويقول « وسواء ان يكون هذا الحادث قد عجل بسفره أو أنه كان مصمماً على السفر قبله فانه غادر إلى الشرق » [٤].

تتفق هذه الآراء في أنها ترى أن ابن السنوسي كان في الجزائر عند احتلال الفرنسيين لها ، وانه هاجر في ذلك العام إلى الشرق دون أن يمر ببلده . ونحن نخالف هذه الآراء ونعتقد أن ابن السنوسي بعد رحلته في مدن الجزائر عـاد إلى مستغانم وان ذلك كان قبل احتلال الفرنسيين للجزائر بحوالي عشر سنوات. وهذا الذي نقول به هو رأي الملك ادريس الذي يقول بأن جده عـــاد إلى

---

١ ـ شكري ص ١٤ .

٢ ـ بريتشارد ص١١ .

٣ ـ شكري ص ١٥ ولا يفصل شكري في الحديث عن ماهية الرؤيا .

٤ ـ زيادة ص ٣٨ ويذكر ان ابن السنوسي تزوج في مسعدة ولا يذكر المرجع .

مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له إذ بني باحدى بنات عمومته . ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه وذلك لأنهم كانوا قد وضعوا أيديهم عليها ولم يرسلوا له بشيء من ريعها طيلة مدة غيابه . وقد رد الملك على سؤال بهذا الصدد بقوله « انه طالب أولاد عمه بالريع وتسليم الملك له فامتنعوا عـــن ذلك فرفع عليهم قضية وربحها فسلمت له الحكومة أملاكه أما الريع فلم يجدوا منه شيئاً يدفع له لذا قامت الحكومة بسجن أولاد عمه فتنازل الإمام عن طلبه وطلب اخلاء سبيلهم فكان له ذلك . ثم انه بعد ذلك صفى أملاكه وانتقل إلى جهة قسطنطينة وجاء عند عرب اسمهم اولاد نايل كانوا في جنوب شرق قسطنطينة فبنى عندهم زاوية[1] » . ويوضح هذا القول معالم فترة كانت مجهولة في تاريخ ابن السنوسي ، ويجيب على سؤالنا أين قضى السنوات الثلاث ما بين سنة ١٢٣٥هـ (وهي سنة مغادرته فاس) وسنة ١٢٣٨ هـ (وهي سنة مروره بطرابلس) . فهو قد أمضى جزءاً منها في مستغانم بعد أن عاد اليها من رحلته في جنوبي الجزائر . وهناك في مستغانم تزوج ولم يعمر ذلك الزواج طويلاً بالرغم من أنه أثمر طفلاً . وذلك لأن ابن السنوسي عندمـــا قرر الارتحال إلى مكة عرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب في ذلك فرأى أن يحررها لأنه لا يعرف مـــدة غيابه . أما الطفل فتوفي وهو صغير . كذلك فقد أمضى ابن السنوسي جزءاً من هذه السنوات الثلاث عنـــد أولاد نايل بجهة قسطنطينة حيث قام ببناء زاوية هناك مما يشير إلى أنه مارس الوعظ والتعليم بينهم .

وتبلورت في تلك الفترة فكرة الارتحال إلى مكة في عقل ابن السنوسي . وتفكيره في مكة طبيعي فهو من ناحية لا بد وأنه تشوق كثيراً إلى بيت الله الحرام وحلم طويلاً بالعيش في تلك الديار وقضاء فريضة الحج . كما انه من ناحية أخرى رأى في الاقامة بمكة فرصة لقـــاء كبار علماء العالم الإسلامي ،

---

١ ـ رد الملك بهذا القول على سؤال لي .

وقد وقرت في ذهنه نصيحة أحد أساتذته إذ قال له « إن الارتحال المستمر صعب فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا بالسفر إلى مكة حيث يلتقي جميع علماء المسلمين » . هذا بالاضافة إلى أن مكة ملتقى لجميع الشعوب الاسلامية .

وهكذا غادر ابن السنوسي الجزائر ماراً بتونس فطرابلس . ونستطيع من حديث عابر لأحمد الشريف في كتابه ان نعرف بالضبط تاريخ مرور ابن السنوسي بطرابلس ، فأحمد الشريف يقول في حديثه عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة « فكان اجتماعه بـه اثناء مروره عليهم قادماً من المغرب الى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والالف في بلدة زليتن بقرب طرابلس الغرب»[1]. وتابع ابن السنوسي سيره على الطريق الساحلي فمر ببنغازي والجبل الاخضر والصحراء الغربية حتى بلغ القاهرة .

قضى ابن السنوسي جل هذه المرحلة من حياته التي بدأت بمغادرته فاس سنة ١٢٣٥هـ وانتهت بوصوله القاهرة حوالي ١٢٣٩ هـ في اسفار متواصلة خلفت آثاراً في نفسه . فتنقله من مدن جنوب الجزائر اتاح له الاطلاع على احوال المسلمين فيها وفي مختلف أنحاء السودان الغربي وذلك عن طريق القوافل التي كانت تأتي بأخبار تلك المناطق . كما انه في مروره على طول الساحل الافريقي الشمالي تعرف على احوال مسلمي المغرب وكون فكرة عن اوضاعهم . واغلب الظن انه تأثر من حال التأخر التي كانوا عليها . كذلك زادت رحلاته من معرفته بالطرق الصوفية ، والذي يقرأ كتابه « السلسبيل المعين » يلاحظ مدى اطلاعه على احوال الصوفية . ثم ان هذه الاسفار أتاحت له التعرف على اناس كثيرين وعلى اماكن كثيرة . وقد أفادته هذه المعرفة فيما بعد عند عودته من الحجاز ، وكان من طبيعة ابن السنوسي ان يوطد علاقاته بمن يتعرف عليهم ، ونستدل من تاريخ احمد الشريف على انه اثناء سفره الى القاهرة وثق صلته بأشخاص كثيرين ونجح

---

١ ـ احمد الشريف ص ٨ .

في كسب قلوب الكثيرين حتى ان رجلاً كعمران بن بركة حاول مرافقته ولكن ابن السنوسي طلب منه الانتظار حتى يرسل له . كذلك تعرف على عائلة المنتصر في طرابلس وعائلات اخرى كثيرة. وكلها استقبلته عند عودته استقبالاً حافلاً. ويبدو انه اثناء وجوده في مكة بقي على اتصال بهم .

ان ظاهرة الارتحال تبدو واضحة في تاريخ المصلحين الذين قاموا في عالمنا الاسلامي ، فنحن نراهـا في تاريخ ابن عبد الوهاب والسنوسي ثم جمال الدين الافغاني وغيرهم. ولا شك في أن رحلات أولئك المصلحين قـد أفادتهم خبرات ومعارف كما يبدو ان سبب حدوثها عندهم يتعلق بطبيعة الفرد النخبة التي تتصف بالحركة والحيوية وعدم الركون الى حياة رتيبة .

ويجب ان نشير ايضاً الى ان ابن السنوسي جرب في هذه المرحلة الزواج . وقد تزوج في سن متأخرة قليلاً بالنسبة لعصره وبيئته، اذ كان – حسب رأينا في مخطط حياته – في حوالي الرابعة والثلاثين من عمره . ويبدو ان الزواج لم يغير من طبيعته الميالة للارتحال ولم يقنعه بالاستقرار في بلده . وعندما لمس من زوجته عدم رغبتها في مرافقته في سفره وعرف انه قد يتغيب طويلاً طلقها . وهذا النوع من الطلاق شائع الى حد ما بين المسلمين باعتباره افضل من ربط الزوجة مدة طويلة بحيث تصبح كالمعلقة .

في القاهرة

بلغ ابن السنوسي القاهرة وفي نيته الاقامة فيها بعض الوقت للأخذ على كبار علمائها وللتعرف على الازهر الشريف الذي بقي قروناً محجة طلاب العلم من المسلمين . ولا نتوقع انه كان ينوي الاقامة الطويلة فيها لأن هدفه كان مكة المكرمة ، ومع ذلك فالظاهر انه اختصر مدة بقائه في القاهرة – وهذا ما اجمع عليه مؤرخو السنوسية – واستعجل في مغادرته اياها الى الحجاز.

ويلاحظ ان تاريخ ابن السنوسي في الفترة التي امضاها في القاهرة غامض ،

ويصدق هذا القول على كل المراحل الاولى من حياته ، فالمعلومات عنها قليلة جداً مما يضطر الباحث الى التكهن وبناء جو يحيط بالنواة التي تحوي الاخبار القليلة التي وردت عنه .

كانت القاهرة في العام الذي بلغها ابن السنوسي فيه – واغلب الظن انه عام ١٢٣٩هـ-١٨٢٤م، تعيش في كنف محمد علي باشا الذي قبض على زمام الأمور في مصر بقوة منذ سنة ١٨٠٥ م . وهي السنة التي ولاه فيها الشعب بقيادة عمر مكرم فكانت خاتمـــة مليئة بالفوضى عاشتها مصر بين تنازع المماليك واطماع الدول الاجنبية . وقد انتهج محمد علي منذ توليه سياسة اساسها القوة والحكم المطلق . وعمل على النهوض بمصر عن طريق التقدم الاقتصادي وارسل البعثات الى فرنسا واستجلب الخبراء منهـــا وذلك لتعزيز قوة جيشه وتزويده بأحدث المعدات، وعن طريق الاصلاح العسكري دخل الاسلوب الغربي الحضاري الى مصر . وقد اراد محمد علي مصر قوية اقتصادياً وعسكرياً وعمـــل على تحقيق ذلك ليحقق مخططاته الاخرى التوسعية . وفي الوقت نفسه انفرد بالحكم وضغط على زعماء الامة فنفى رئيسهم عمر مكرم وقرب بعض العلماء المنافقين وسلمهم الازهر بعد ان جعلهم آلة في يده. وبقدر ما يعجب الدارس باصلاحاته العسكرية ، بقدر مـا يعجب لأسلوبه التعسفي في الحكم . وتعليل ذلك هو ان محمد علي لم يتعمق فهم التقدم الحضاري الأوروبي وإنما اراد فقط ان يستحوذ على ما ابدعه دون الوصول الى سره الحقيقي . وفي سبيل تحقيق سياسته اثقل على شعب مصر بجمع الضرائب وأرهقه بالحروب ضد الوهابيين وفي بلاد اليونان وفي الشام ، ممـــا جعل الشعب يتململ و يضيق.

وكان الازهر في ذلك الوقت في انحطـــاط ، فالعلوم التي تدرس فيه تراكم عليها الغبار لقدمها وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد . اما علماء الأزهر فمع انه ظهر منهم من قام بدوره كعمر مكرم ـ وخصوصاً في الفترة الصعبة التي مرت بمصر منذ الغزوة الفرنسية حتى تولية محمد علي – إلا ان

كثيرين منهم ركنوا للدنيا وانساقوا مع مصالحهم فأيد بعضهم الفرنسيين وسار بعضهم مع محمد علي الذي استعملهم لضرب المخلصين . هذا من الناحية السياسية اما عقليتهم العلمية فكانت تقليدية نمت فيها كل بذور عصر الانحطاط . لذلك نراهم متمسكين بالتقليد وساكتين عن الصوفية المنحرفة التي قويت في مصر .

جوبه ابن السنوسي بهذا الوضـع عند وصوله للقاهرة . وزاد تعرفاً عليه عندما بدأ يتردد على الازهر ويتعرف على علمائه. وقد ظهرت في تلك الفترة طبقة جديدة من العلماء غير تلك التي اشتهرت في أوائل القرن . ومن علمـاء هذه الطبقة الشيخ الامير والشيخ الشباسي والسنبـــاوي والسلموني والبولاقي وفتح الله والعدوي والسفاقسي وجاد الرب والصاوي والملوي والبناني وحبيشي والحلو والدمنهوري والتونسي [1]. وشرع ابن السنوسي أول الأمر بالأخذ عن بعض هؤلاء العلماء فأخذ ـ حسب ما يورد شكري ـ عن العطار والامير والقويسي والتونسي والصاوي وثميلب[2]. ثم يبدو انه عندما اكتفى بمـــا أخذه رأى أن يقوم هو بالتدريس في الازهر وخصوصاً وانه سبق أن درس في القرويين جامعة المغرب الشهيرة التي تناظر الجامعة الازهرية، وانه كان يتمتع بشهرته كعالم جليل . وفعلا بدأ بالقاء الدروس فلفت الانظار اليه بتقواه وصوفيته الصحيحة ثم بجرأته في معالجة المسائل الفقهية . ويقول مؤرخو السنوسية إن ذلك مما سبب نقمة بعض علماء الازهر فجابهوه بمعارضتهم التي تجاوزت حد المناقشة إلى التكفير والارهاب . ويورد شكري في معرض حديثه عن هذه النقطة أن الشيخ الحنيش انبرى مخطئاً ابن السنوسي واعتبره مبتدعاً في الدين « ويقال ان الشيخ الحنيش هذا حاول زيادة على ذلك ان يدس السم للسيد للتخلص منه [3] ». كما يورد زيادة فتوى البولاقي بتكفير ابن السنوسي التي وردت في

١ ـ انظر « فتح العلي المالك » للشيخ عليش الجزء الاول الطبعة الثانية ص ٣٠٢ .
٢ ـ شكري ص ١٦ .
٣ ـ شكري ص ١٦ .

فتاوى الشيخ عليش معتبراً اياها دليلاً على موقف علماء القاهرة منه . ونحن نعتقد أن حادثة الشيخ الخنيش ـ إن وقعت ـ فانها لم تقع في تلك الفترة، كذلك فان فتوى البولاقي وفتاوى الشيخ عليش لم تعط في تلك الفترة وإنما جاءت بعد سنوات منها أو على التحديد بعد ان استقر ابن السنوسي في برقة مع مريديه. وهذا واضح من حديث الشيخ عليش في فتاواه «عن مجموعة من الناس نزلت في برقة تعتبر نفسها من اتباع أحمد بن ادريس» . ومما يثبت اعتقادنا هذا أن آراء الشيخ الفقهية لم يتبلور الاتجاه الاجتهادي فيها إلا بعد اقامته الأولى في الحجاز حيث أخذ عن ابن ادريس وتأثر بالمذهب الوهابي، ولذلك فنحن نعتقد ان اقامته القصيرة في القاهرة في تلك الفترة خلت من الاحتكاك بعلماء الازهر على النحو الذي ذكره المؤرخون وان هذا الاحتكاك حدث بعد أن بدأ ابن السنوسي دعوته وجاهر برأيه في فتح باب الاجتهاد بعدما غادر الحجاز إلى برقة. هذا وقد أورد آدمز نقلاً عن الملك ادريس نفي الملك لقصة محاولة سم ابن السنوسي في القاهرة وان شفاءه تم بمعجزة . [1]

ويبدو أن ابن السنوسي بعد أن قام باعطاء بعض الدروس في الازهر غادر القاهرة بسرعة صوب الحجاز بغية الحج وحتى يظفر كما يقول الشيخ الاخضر العيساوي بمقابلة ضالته المنشودة وهو كما يقول شكري المربي الذي طالما اشتاقت نفسه إلى لقائه ليكتمل به . ويورد شكري حكاية تبين سبب خروج ابن السنوسي المباشر من القاهرة هي (انه حدث ذات يوم عند فراغه من الوضوء في الجامع الازهر أن اصطدم بفلاح فقير غير متعمد لضيق الباب الذي همّ بالخروج منه فقال الرجل « ولماذا تصنع معي هكذا يا سنوسي » فتعجب السيد من مخاطبة الرجل له باسمه وسأله كيف عرفه وهو الذي لم يره في حياته قط . فأجاب الفلاح بكلام يفهم منه أنه من اولياء الله الصالحين. فلما قال السيد انه يكون إذن ذلك القطب الذي ينشد لقاءه من أمد بعيد أجاب الرجل « كلا، ان الذي تقصده

---

١ ـ آدمز ص ٧٠٦ .

موجود بمكة فعليك بالذهاب اليها »[1].

أما اسباب مغادرته السريعة ، فقد أورد المؤرخون عدداً منها بالاضافة إلى احتكاكه بالعلماء في الازهر . من ذلك ان أمله خاب لدى رؤيته وضع الازهر ويقول (رين) « وكان سبب خيبة أمله الرئيسي هـو نقص النشاط الروحي والدراسة الصوفية في الازهر ».[2] وهذا ما يراه شكري ايضاً حيث يقول «لم يجد في القاهرة بغيته من الاهتمام بالعلم والروحانيات بالدرجة التي كان يتوقعها ». [3] ويورد آدمز ما قيل من أسبـــاب لمغادرته السريعة فيقول : « قيل إنه لم يجد نوع الدراسة التي يبغيها ، وهذا صحيح ، وانه لم يلق التقدير والشرف اللذين تعود أن يلقاهما من تلامذته في المغرب ، وقـــد يكون هذا صحيحاً أيضاً ، وأنه عورض من قبل علماء الازهر لآرائه الاصلاحية ، وهذا يبدو ممكناً في ضوء تعاليمه فيما بعد . وهناك سبب آخر يقترح وهو انه لم يبـــد ارتياحه لحكم محمد علي لرفضه دعوة ممثلي الأمة ، ولو انه ليس واضحاً انه جابه محمد علي بمعارضته كما انه ليس أكيداً أنه سُم كما تقول أسطورة وانه نجا بمعجزة. »[4]

ونحن نرجح بين هـــذه الاسباب السبب القائل بأن خيبة أمله لما رآه في الازهر دفعه إلى استعجال سفره، وذلك انه لم يجد فيه نوع الدراسة الذي يريد. هذا بالاضافة إلى انه لم يرتح لأسلوب محمد علي في الحكم ولا للاصلاحات التي قام بها . والسبب الأول في رأينا هو ان ابن السنوسي لم يكن ينوي الاقامة الطويلة في القاهرة وإنما كان قصده الحج إلى بيت الله ولقاء القطب الذي سيأخذ عنه. فلما تبين له أن بغيته ليس في القاهرة أسرع بمغادرتها والحكاية التي أوردها شكري توضح هذا بجلاء .

---

١ ـ شكري ص ٢٠ .

٢ ـ رين ص ٤٨٥ نقلاً عن زيادة ص ٣٩ .

٣ ـ شكري ص ١٦.

٤ ـ آدمز ص ٦ ـ ٧ .

وغادر ابن السنوسي القاهرة بعد ان أقام فيها عاماً واحداً . وقد أحدثت زيارته لها آثاراً في نفسه . من ذلك انه ازداد إيماناً بأن دولة الخلافة كانت في طريق الانحلال والاضمحلال ، وقد نقل شكري عن المؤرخ التركي احمد حلمي قوله « وأحدثت هذه الزيارة في نفسه تبدلاً عظيماً وانتقش في ذهنه ان الدولة العثمانية في طريق الانحلال والاضمحلال[1] ». والواقع أن ابن السنوسي بعد أن خبر أوضاع الدولة في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الاتراك وانفرادهم بالحكم وعجز الدولة عن كبح جماحهم ، جاء إلى القاهرة فرأى استقلال محمد علي بشؤون مصر فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها. وقد نقم على هذا الضعف لانه كان سبباً في اتاحة الفرصة للولاة الفاسدين لظلم الشعب . ويرى المؤرخ التركي انه لذلك « زاد إيماناً بفكرة لزوم الخلافة الاسلامية بيد شريف قرشي ». كذلك أتاحت له الزيارة الاطلاع على إصلاحات محمد علي . وقد رأى في تلك الاصلاحات «الافراط والمبالغة» واعتبرها من «الامور التي يقصد بها الاستخفاف بالحقوق الإسلامية والاحتقار للجنسية العربية . » ـ كما أورد شكري ـ[2] ويبدو انه فكر طويلاً في تلك الاوضاع متلمساً طريق الإصلاح . ويقول المؤرخ التركي إنه وصل إلى نتيجتين هما « تأكده من انه في حاجة عظيمة إلى تحصيل علوم كثيرة خلاف العلوم العقلية والنقلية التي استفادها أيام مقامه في بلاد المغرب، فمع أن السيد السنوسي كان بعيداً عن اوروبا وعن التأثر بها ولم يكن عنده علم بما جد فيها من اختراعات ونهضة في جميع مرافق الحياة فإن الاسباب الحقيقية التي وفقت اوروبا للتقدم لم تكن مجهولة لديه ، لأن ما له من الدهاء والذكاء النادر المنال خوله الوقوف على أن تفوق أوروبا هو وليد ثمرة العلم وثمرة الاخلاق ، وان هذه العلوم التي سببت التفوق لم تكن هي العلوم النقلية والشرعية والمنطق واللغة فحسب ، كما ظن أولاً ، بل أهمها الصناعة

---

١ ـ شكري ٢٠ .

٢ ـ شكري ١٧.

والرياضة والفنون الحربية والعملية؛ والنتيجة الثانية هي أن ما منع تقدم الإسلام هو اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردي ».[1] ولا نستطيع نحن الموافقة على ما أورده المؤرخ احمد حلمي حول تعليل ابن السنوسي لتقدم أوروبا لعدم وجود الادلة التي تؤيد استنتاجاته. ولكننا نوافق على ان ابن السنوسي فكر في طريق الإصلاح ووصل إلى ضرورة العلم والاخلاق، كما نوافق على انه كان يكره الحكم الفردي ويراه أحد أسباب التدهور .

في الحجـــاز

بلغ ابن السنوسي الحجاز حوالي عام ١٢٤٠ هـ ، ١٨٢٥ م .[2] ونزل بمكة المكرمة كعبة المسلمين ومكان حجهم . وكانت مكة والحجاز ـ بصورة عامة ـ تحت حكم باشا مصر بعد أن قضى ابراهيم باشا على قوة الوهابيين. وكان ابراهيم باشا يحكمه عسكرياً . وقد أقام محافظاً في كل من مكة والمدينة وولى الشريف يحيى بن سرور ولكنه حين قـــام بثورة عُزل ووُلي مكانه الشريف محمد ابن عون. وقد بقيت الجيوش المصرية في الحجاز حتى معاهدة لندن ١٨٤١ م حيث أمرت بالانسحاب . كما كانت مكة أيضاً كدأبها منذ ان جعلها الله مقر بيته لحرام ملتقى الحجيج كل عام ومجمع العلماء يفدون اليها من مختلف الاقطار ويمثلون مختلف المذاهب والعلوم. وكانت آثار الحركة الوهابية لا تزال بارزة فيها إبان تلك الفترة . وقد استمرت التيارات الفكرية بين نجد والحجاز حتى بعد ان استرجعت جيوش محمد علي الحجاز من الوهابيين .

أقبل ابن السنوسي في مكة اول ما اقبل على العلماء يتعرف عليهم ويأخذ

---

١ ـ شكري ١٩.

٢ ـ حسب رأينافي مخطط حياته، وقد اخبرني الملك ادريس ان اقامة جده في القاهرة كانت سنة. وقد ذكر الاشهب انه وجد في مخطوط قديم ان ابن السنوسي دخل الحرمين سنة ١٢٤١هـ. انظر الاشهب ، السنوسي الكبير، ص ١١ .

عنهم. والحق أن تشوقه للعلم وتواضعه في أخذه كان يبدو جلياً في اي مكان حل فيه ، وهذه خاصية افادته كثيراً ومكنته من الاطلاع الكثير . ولقد ضمت مكة عدداً من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة ففيهم الصوفي وفيهم المالكي وفيهم السلفي الوهابي .. وهذا مـا اتاح له الاطلاع على كل تلك الاتجاهات. ومن أشهر العلماء الذين اخذ عنهم ابو سليمان عبد الحفيظ العجيمي مفتي مكة وقاضيها وابو حفص عمر بن عبد الرسول العطار وقـد ذكرهما في رسالته التي كتبها كمقدمة لموطأ مالك باعتبارهما العالمين اللذين يروي الموطأ عنهما من المشارقة . كما يرد في كتابه « السلسبيل المعين » اسم احمد بن محمد الدجاني في كثير من المرات حيث أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية . ثم هناك استاذ ابن السنوسي وضالته المنشودة احمد بن ادريس الملقب بأبي العباس العرائشي .

يحسن الوقوف هنا قليلاً عند احمد بن ادريس الذي لعب دوراً في حيـاة ابن السنوسي وكان له أثر كبير عليه . وكم كنا نود لو توفرت المعلومات عنه لنستطيع تحديد الجوانب التي تأثر فيها ابن السنوسي بشخصيته . ولكن حيث أن المصادر التاريخية لا توفر لنا إلا القليل فاننا سنعتمد على هذا القليل الذي يمكن أن يجلي لنا بعض الاشياء .

ولد احمد بن ادريس سنة ١١٧٣ هـ بميسور ـ كما اورد احمـد الشريف ـ وتوفي بصبيا سنة ١٢٥٣ [١] . واشتهر بالعـلم والصلاح وبالتعمق في الدراسة الفقهية وفي الطرق الصوفية . ويوضح كتاب صغير وضعه ابن ادريس وعنوانه « حزب المحامد الثمانية وبهامشه الرسالة المسماة بالاساس والكتاب المسمى بروح السنة وكتاب كيمياء اليقين» طريقته الصوفية واسلوبه في التربية. والكتاب يحتوي على مجموعة اوراد من وضعه ، تبين اغراقاً في الصوفية والمحبة الالهية ، يضاف إلى ذلك تعاليم اخلاقية مستقاة من هدي النبوة. ويبدو أن احمد بن ادريس جمع

---

١ ـ احمد الشريف الانوار ص ٤ .

بين الاتجاهين الصوفي والسلفي، فهو بالإضافة إلى أنه كان شيخ الطريقة القادرية وشيخ الطريقة الخضيرية التي استمر رئيساً لها ثلاثاً وثلاثين سنة — كما يقول شكري — وموجد الطريقة الادريسية وشيخاً من شيوخ الشاذلية فإن اختلافه مع علمـــاء مكة المذهبيين وارتحاله إلى صبيا في عسير الوهابية لدليل على ميوله السلفية . وقـد يكون تأثره بالسلفية ناجما عن احتكاكه بالوهابيين أثنـــاء احتلالهم للحجاز .

قضى ابن السنوسي جل مدة إقامته الاولى في الحجاز مع احمد بن أدريس ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد هـــذه المدة، فبريتشارد يرى أن ابن السنوسي « بقي في الحجاز حوالي ست سنوات »[1]. بينما يفهم من حديث شكري أن ابن السنوسي مكث فيها حوالي تسع سنوات. وهناك شك عند بعض المؤرخين في انه قـــام بزيارة الحجاز قبل هـــذه المرة زيارة سريعة ثم عاد إلى بلده مستغانم .[2] كما يشك بعضهم في انه عاد بعد زيارة القاهرة إلى مستغانم ثم رجع بعد ذلك إلى الحجاز . ونحن نميـل إلى القول بأنه لم يزر الحجاز قبل هذه المرة.وقد أكد هذا القول الملك ادريس[3].أما مدة اقامته الأولى في الحجاز فهي في رأينا حوالي خمسة عشر عاماً. ويبدو أن علاقة قوية حدثت بين ابن السنوسي وابن ادريس . ويوضح حديث احمد الشريف في الانوار القدسية مدى قوتها حيث يقول «وآخر من أخذ عنه سيدي ابن السنوسي (ر) قطب العارفين وامام المحققين مولانا السيد احمد بن ادريس (ر) . ويوم الخامس عشر من أخذه عنه قال له (ر) : انت نحن ونحن انت . فقال: يا سيدي اين الثريا من الثرى واين السهى من شمس الظهيرة . . !.فقال: (ر) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.وكان يقولها في محضر جمع من

١ ـ بريتشارد ص ١٢ .

٢ ـ اورد هذا الرأي الاشهب .

٣ ـ زيادة مني في التأكد سألت الملك فأجابني «انه زار الحجاز هذه المرة ومرة اخرى بعدها».

الاخوان ربما ويكون هناك من لا يعجبه ذلك فيقول (ر) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وقال (ر) مخاطبـاً الاخوان : واما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله . اياكم ثم اياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فانه النائب عنا قد اختاره الله لذلك ، وقد طلب منا مراراً أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم نر من فيه المصلحة إلا هو ولو علم الناس منزلته وعلو مقامه عند الله لتزاحموا على بابه ليروا وجهه فانه قليل رجاله في زماننا هذا والناس جاهلون قدره ويؤذونه فاياكم ثم اياكم من إذايته فإن من آذاه اخذ من حيث لا يشعر ويخاف عليه من سوء الخاتمة والعياذ بالله ومن تكلم فيه فقد تكلم فينا ومن آذانا فقد آذى رسول الله (ص) ومن آذى رسول الله (ص) فقد آذى الله ونحن رفعنا نظرنا ظاهراً وباطناً عـن كل من تعرض له بسوء ولا يعد من اصحابنا ويخوض في بحر هواه كيف شاء . ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله ورسوله فقد قام امتثالاً لأمرهما فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه».[1] وقد نوه البستاني عن هذه العلاقة القوية بينهما وذكر أن ابن ادريس كان يجل ابن السنوسي ويثني عليه أطيب الثناء . واورد للدلالة على ذلك نص كتاب زعم أن اهـــل السودان يحفظونه – وهو يرويه عنهم – والكتاب من الشيخ ابن ادريس إلى محمد عثمان المرغني تلميذه ، ارسله عندما بلغه أن المرغني صار له اتباع كثيرون وانه جعل عليهم من يجبي منهم الهدايا كل سنة فأراد ابن ادريس أن يعظه . وبهمنا من الكتاب مقطع يتحدث عن جماعة من المغاربة يقول البستاني انه يريد بهم ابن السنوسي واتباعه ، والمقطع هو « واعلم أنه قد صحبنا بعدك جماعة من اخواننا المغاربة فعلت همتهم في الله فحازوا قصب السبق في المعرفة فانفتح لهم الباب من الله فصاروا من المحدثين من حضرة الحق بلا وسائط حـــتى أن كل واحد منهم جمع كتاباً فيما فتح الله به عليهم من البشائر والمكاشفات حتى ان بعضاً من اكابر المتقدمين كأبي يزيد

١ـ احمد الشريف : الانوار ص ٦٨ .

البسطامي يتمنى أن يكون مثل احدهم؛ واني لا احب لك ان تكون دونهم بل احب ان تكون اعلاهم ». [1] ولا نستطيـع ان نؤكد صحة هذا الكتاب بل لعلنا نميل إلى الشك في صحته لانه يدل على أن ابن السنوسي والميرغني لم يجتمعا عند احمد بن ادريس بينما كلام احمد الشريف يدل على انهما اجتمعا في الدراسة عليه . ولكن هذا لا يعني ان موضوع الكتاب غير صحيح لاننا نعرف حب ابن ادريس لتلميذه ابن السنوسي . فان صح موضوعه فاننا نرجح انه أرسل في آخر ايام ابن ادريس لانه يتحدث عن جمـاعة المغاربة ولم يصبح لابن السنوسي جماعة إلا بعد سنوات من إقامته في الحجاز . أمـا حديث احمد الشريف السابق فانه يدل على منزلة ابن السنوسي العظيمة عند ابن ادريس ، كما يدل على انه كان يوجد من التلاميذ من يضيق بهذه المنزلة، كذلك يبين أن ابن ادريس اذن لتلميذه ابن السنوسي للدعوة إلى الله بعـد ان تبينت له مقدرته العظيمة . هذا وقد روى احمد الشريف عن عمه المهدي قوله « ان ابن السنوسي وابن ادريس من عمد الحضرة المتصلة بالنبوة وقد اتحد حالهما » . [2]

اخذ ابن السنوسي عن استاذه عدداً من الطرق الصوفية ، ودرس عليه الحديث والسنة، واستعان به في الارتقاء والعلو . ويبدو أنه بعد أن استراحت نفس ابن السنوسي لما حصل من العلم بدأ يفكر في ضرورة الدعوة للاصـلاح ونشر افكاره في مكة . ذلك ان طبيعته كانت طبيعة فرد من النخبة لا يرتاح إلا بمحاولة الاصلاح. وهو عندما سلك طريق الصوفية لم يقصد الراحة الفردية والانعزال بل قصد التزود بالقوة للقيـام بالإصلاح . لذلك نرى ابن السنوسي بعد فترة من إقامته مع استاذه يأخذ الاذن من ابن ادريس لإعطاء العهود وتلقين الذكر[3]. فأذن له وامره «أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله ». [4]

---

١ ــ البستاني دائرة المعارف مادة سنوسي المجلد العاشر .

٢ ــ احمد الشريف الانوار ص ١٠ .

٣ ــ البستاني دائرة المعارف مادة سنوسي المجلد العاشر .

٤ ــ احمد الشريف الانوار ص٦٨ .

ولا يلبث ابن السنوسي طويلا بعد ذلك حتى يبني أول زاوية له في الحجاز على جبل ابي قبيس بمكة المكرمة. وقد اختلف المؤرخون حول ما اذا كان بنـــاء الزاوية قد تم في حياة او بعد وفاة ابن ادريس. فأما شكري فيقول « انه بناها حوالي ١٨٣٧ – ١٢٥٢ بعد وفاة استاذه (حوالي ١٨٣٥ او ١٨٣٧)». وحسب قول احمد الشريف فان احمد بن ادريس كان حياً في تلك السنة. لذلك نميل نحن إلى القول بأنه بناها في حياة استاذه وهذا ما يقوله البستاني . ويتضح من كلام أحمد بن ادريس – الذي نقله احمد الشريف – أن ابن السنوسي باشر الدعوة في حياته .

وبدأ ابن السنوسي في تلك الفترة بإلقاء الدروس في مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم. ولا نستطيع القول بان نظام الزوايا الذي طبقه ابن السنوسي فيما بعـد كان واضحاً في ذهنه عندما بدأ الدعوة ، وان تفاصيل اهدافه ووسائله كانت مستبينة عنـده . ولكن من المؤكد أن مجمـل طريقته كان واضحاً، وما الشروع في بناء اول زاوية إلا نتيجة هـذا الوضوح . ويعتبر المؤرخون زاوية ابي قبيس اول الزوايا التي اسسهـــا ابن السنوسي ونحن نؤيد هذا الاعتبار بالرغم من أن ابن السنوسي بنى قبلها – كما حدّث الملك ادريس – زاوية عند اولاد نايل فيجنوب شرقي قسطنطينة، وذلك لأن زاوية أولاد نايل لم تكن للقيام بالدعوة السنوسية ما دامت الدعوة لم تكن استبانت في فكره بينما جاء تأسيس زاوية ابي قبيس بعد اعتزامه القيام بالدعوة .

وبعد أن قضى ابن السنوسي سنوات مع استاذه ابن ادريس حدث ما اكره ابن ادريس على الارتحال من الحجاز. « وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن ادريس من عنف السلطات الحكومية ، ومعارضة علمـاء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار انه كان لا يتفق في منهجه ودرسه مـع ما اعتاد عليه هؤلاء العلماء من ازمان طويلة حتى صاروا يعدونه مبتدعاً ثم انقلب نقدهم إلى اضطهاد

اضطر بسببه السيد ابن ادريس لمغادرة مكة في النهاية إلى صبيا العسير »[1] هذا وليس لدينا ما يفصل هذه الاسباب ويبيّن لماذا اشتدت سلطات مكة ـ وهي في ذلك الوقت شريفية تحت الحكم العسكري المصري ـ عليه ، او ما هي نقاط الخلاف بينه وبين علماء مكة التي جعلتهم يعدونه مبتدعاً . ولو اننا نظن ان ارتحاله إلى صبيا دليل على حسن الصلة بينه وبين الوهابيين . ولكننا لا ندري نوعية هذه الصلة . كما لا ندري بالضبط متى كانت مغادرته لمكة ، ونرجح انها كانت قبل ثلاث سنوات من وفاته . وقد زعم بعض المؤرخين ان تلميذيه ابن السنوسي والميرغني سافرا معه ،[2] ولكننا نرجح انه سافر منفرداً . أما ابن السنوسي فقد «تبع استاذه إلى صبيا واقام معه هناك حتى وفاته»[3] وكان ابن ادريس قد ترك ابنه ـ قبل سفره ـ في رعاية ابن السنوسي ، فلما مرض ابن ادريس سافر ابن السنوسي مع الولد ليزوراه [4].

زواجه الثاني

وفي فترة اقامته الاولى في الحجاز تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية .[5] وقد قام بتزويجه استاذه ابن ادريس الذي رآه يعيش عزباً منذ طلاقه لزوجته الاولى. وكانت السيدة خديجة تتصف بالتقوى والصلاح . وقد قامت بدورها نحو زوجها فهيأت اسباب الراحة له ورافقته في رحلاته ، ورضيت باسلوب حياته الصعب الذي يتصف بالانتقال المستمر والعمل الشاق . وقد توفيت في الجغبوب بعد وفاة ابن السنوسي بحوالي عشرين سنة اي حوالي ١٢٩٦ هـ .

---

١ ـ شكري ص ٢١ .
٢ ـ البهي ص ٦٤ .
٣ ـ شكري ص ٢١ .
٤ ـ هذا ما قاله الملك ادريس عن سبب لحوق ابن السنوسي باستاذه .
٥ ـ الاشهب ص ١١٩ . حديث الملك .

بدؤه الدعـــوة

واستجاب عدد من الناس لابن السنوسي بعد أن شرع في إلقاء الدروس بمكة فالتفوا حوله وصاروا له مريدين واتباعاً . وقد اثرت إقامته الطويلة في مكة على جوانب كثيرة في تفكيره ووجهت اتجاهه الإصلاحي الوجهة التي سار عليها. فهناك في مكة أخذ كفايته على العلماء وتعرف على مختلف الاتجاهات الفكرية ، والتقى بأستاذه ابن ادريس ، كما التقى أيضـاً بوفود الحجيج القادمين من مختلف اقطـار العـــالم الاسلامي فتعرف منهم على احوال المسلمين وزاد فهمـــاً للـــداء الذي ينخر فيهم . وقـــد كانت هـــذه الجموع من الحجيج تربة خصبة يستطيع ان يبـذر فيهـــا دعوته ويختار منهـــا من يصلـح لمعاونته . وهـــذا ماحدث بالفعل حيث استجاب له عـدد من اهـــل طرابلس الغرب والحجاز . واصبحت زاوية ابي قبيس مركزاً لأولئك المريدين . ولا ندري إن كان قد بنى زاوية غيرها في تلك الفترة في الحجاز ولو اننا نرجح انه لم يفعـل ، وان الزوايا الاخرى بنيت في فترة إقامته التالية . وكان أولئك المريدون يتعبدون في الزاوية ويدرسون العلم . وهـــذا ما رسمه ابن السنوسي لهم أول الامر، ثم حدث عنده تطور مهم في تفكيره توضحه القصة التي يحكيها شكري في معرض حديثه عن اسباب مغادرة ابن السنوسي لمكة وهي « انه كان من بين الذين اجتمعوا حوله عدد كبير من أهل طرابلس الغرب . وقـــد وجد السيد أن يطلب منهم الإكثار من العبادة والتقشف والصوم على أمـــل أن يؤدي ذلك إلى تنقية نفوسهم وصفائها، حتى إذا عجز ضعاف الارادة عن سلوك هذا السبيل الصارم انصرفوا إلى شأنهم واستطـــاع أهل زاوية ابي قبيس أن يتفرغوا للدرس والعبادة . ومع هذا فقد ظل يكثر عـــدد هؤلاء المتحمسين للطريقة حتى حدث ذات مرة عندما كاد يشرف بعضهم على الهلاك من كثرة الصوم مدة طويلة ان ذهب أحدهم إلى قبر الرسول الكريم (ص) يشكو ما وصل اليه ويرجو الرشد والهداية ، فشهد السيد السنوسي بعد ذلك النبي الكريم(ص) في رؤيا يطلب اليه ان يعمل هؤلاء الاتبـــاع والمريدون في بناء بيوت العبادة

والزوايا فصدع السيد بما أمر به وتقرر أن يغادر هؤلاء لإنشاء الزوايا في البلدان الاخرى، كما قرر السيد نفسه أن يعود إلى برقة لهذا الغرض نفسه ».[1] فالقصة توضح تطوراً كبيراً في فهمه للاستفادة من الجهـد البشري في البناء ، وفي توسع مفهوم العبادة عنده . اذ يظهر منهـا أن اتجاهه في الإصـــلاح كان اول الامر مقتصراً على التكليف بالعبادة والتدريس والتغالي في الصوفية، ثم حدث التطور عندما لمس بنفسه عدم استطاعة كل فرد سلوك تلك الطريق، وربما ايضاً لمس قلة جدوى ذلك.ولا بد انه فكر طويلاً قبل أن يرى تلك الرؤيا،وتبين أن الاغراق في العبادة اذا استنفد جهد الفرد لن ينتج بناء، كما أن العبادة بمعنـاها الواسع تشمل كل خير يفعله الفرد ، لذلك عمل على ان يستفيد من جهد اتباعه فيما فيه خيرهم وخير مجتمعهم عن طريق بناء الزوايا والمساجد والعمل في سبيل نشر الاسلام واقامة مجتمع اسلامي . وقد عبرت الرؤيا عن ذلك كله .

أسباب مغادرته للحجاز

لم تطل اقامة ابن السنوسي في الحجاز بعد تأسيس زاوية ابي قبيس ، وقـــد تضافرت عدة اسباب دفعته لمغادرته . فـــن ناحية توفي في « صبيا العسير » استاذه احمد بن ادريس (١٢٥٣ هـ). ومن ناحية أخرى نجد اكثر من واحد من مؤرخي السنوسية يذكرون أن نجاحه في دعوته حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلـــائها ، الذين كانوا متضايقين لمخالفته اياهم وقوله بالاقتصار على اتباع الكتاب والسنة ، ويضيف شكري « وكان ممـا اخاف السلطات الحكومية أن السيد ظل يتصل بأبناء استاذه ابن ادريس في صبيا وهي أرض وهابية، وكان العداء مستحكماً بـــين الحكومة العثمانية والاشراف بمكة وبين الوهابيين [2]». وهـذا يعني وجود أسباب سياسية لمغادرته . وعلى أية حال فإن الجو في مكة شجعه على الاستجابة لدعوة مريديه من أهالي المغرب لزيارة بلادهم ، كما شجعه

---

١ ـ شكري ص ٢٢.
٢ ـ شكري ص ٢١ .

ايضاً رغبته في زيارة موطنه الاول الجزائر ورؤية ولده هناك .

رحلته الاولى من الحجاز الى المغرب

ارتحل ابن السنوسي من مكة في آخر يوم من سنة خمس وخمسين (١٢٥٥ هـ) قاصداً المغرب . وقد جمع احمد الشريف اخبار هذه الرحلة في كتاب أسماه « الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر » بعد ان سمعها من محمد بن الشفيع احد مريدي ابن السنوسي . وابن الشفيع هذا من سنار السودان وكان بين تلامذة احمد بن ادريس ثم تعرف على ابن السنوسي ولازمه .[1] وسنعتمد على كتاب احمد الشريف هذا فيما ننقله من اخبار الرحلة .

وجدير بالذكر ان ابن السنوسي خرج من الحجاز وقد اكتملت شخصيته الدعوية ، فأصبحت له طريقة صوفية خاصة به صار يلقنها لأتباعه ، وصار له اجتهاده الخاص في المذهب المالكي ، بعد ان سلك طريق السلفية واصبح يعتمد على الكتاب والسنة ولا يتقيد بالمذاهب مع بقاء احترامه لها ويؤمن بفتح باب الاجتهاد لمن تتوفر فيه شروط المجتهد . كما يجدر بالذكر ايضاً ان اكثرية اتباع احمد بن ادريس انضموا بعد وفاة استاذهم لابن السنوسي بينما انضمت الاقلية الباقية الى الشيخ المغراني واسسوا زاوية خاصة لهم واطلقوا على انفسهم اسم الادريسيين[2] .

خرج ابن السنوسي من مكة « قاصداً المدينـــة المنورة للوداع .. ثم نزل ببدر .. وسار حتى نزل بينبع » ، وفي اثناء سفره «كان يقصر ويجمع في الصلاة وان حصلت له إقامة ببلد أو غيرها استمر على ذلك يقصر ويجمع الى تسعة عشر يوماً ، تارة يجمع جمع تقديم وتارة جمع تأخير ».. وهو في عمله هذا يخالف المالكية ويتبع الاحاديث الواردة في قصر الصلاة وجمعها بعد ان اعتقد صحتها.

---

١ ـ الاشهب ـ السنوسي الكبير .
٢ ـ شكري ص ٢١ .

ويورد أحمد الشريف هذه الاحاديث كما نقلهـــا ابن الشفيع عن ابن السنوسي عندما سأله عن الجمع والقصر . [1] « وفي ينبع قسّم الاخوان، بعضهم ركبه في البحر قاصداً بلدة قابس ومعهم أهل بيته جدتنا في كتاب الله خديجة الحبشية ومعهم غالب أثاثه ، وبعضهم رافقه في البر ، وسار يومين فنزل بالحوراء . . ثم بالوجه . . ثم بالمويلح . . ثم بالمخيلي ثم حل بالعقبـــة . . ثم نزل بعجرود . ثم البركة . . وكان في سفره هذا مرافقاً للمحمل المصري إلا انه غير خالط برحله . . ودخل مصر ليـــلا وكان لابساً لبس اهل الحجاز متعمماً بالحودية والصمادة الشورمان فوقــه وعليه شلح ونزل عند الشيخ محمد براده . . وفي اليوم الرابع أرسل إلى الاخوان وأمرهم بالدخول الى البلاد ونزلوا عند الشيخ عمر الزوالي في بولاق وأقاموا بها ثلاثة أشهر . . وسار منها الى الفيوم ونزل عند الشيخ زيدان بو منديل وارتحل منه ودخل البهنسا ثم دخل الواح البحرية ونزل بمحل يقال له منديشة : ورحل الى الودود. ومنها دخل بلد سيوه ونزل بمحل يقال له الطنمس وهو خارج من البلد ولم يزل يجمع ويقصر بها الى سبعة عشر يوماً وأقام بذلك المحل ثلاثة اشهر ، وأتى عليه حول سيدي احمد بن ادريس وعملوه هناك ». [2] ولاحظ شكري أن احمد الشريف لم يخبرنا بنشاط ابن السنوسي في مصر ، ومع ذلك فانه يمكننا من حديثه ان نستنتج ان تلك الايام كانت حافلة بالنشاط حيث اتصل فيها بكثير من الناس وأقام مدداً متفاوتة في عدد من المدن والقرى فترك في كل منها ركائز وأنصاراً . وقد تميز أسلوبه التعليمي لأولئك الناس بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلي . . . وبعد حول احمد بن ادريس بمدة يسيرة أصاب الإخوان كلهم الحمى . . وفي مكوثه هناك سوّد مسودة لسيدي محمد بن شفيع يريد كتابتها لسيدي احمد الغماري وسيدي محمد الخالدي ، ومن جملة ما قال لهم في ذلك الجواب « نحن متوجهون إلى ناحية المغرب عندنا ولد هناك مرادنا نجتمع

---

١ ـ احمد الشريف ص ٦١ وما بعدها .

٢ ـ احمد الشريف المخطوط ص ٦٨ .

به » . وهذا يشير الى أن ابن السنوسي كان عارفاً الاتجاه الذي يقصده عندما بدأ رحلته . ويعزز هذا الاستنتاج انه ارسل أهله عن طريق البحر إلى قابس رأساً بينما اختار هو طريق البر ليوفق بين غايته من السفر وبين رغبتـــه في دعوة الناس . « ومكث بسيوة تسعة أشهر وارتحل منها قاصداً جالو .. ومروا على بلد يقال لها حجزة . وساروا إلى جالو .. وارتحلوا الى أوجله ونزل عند سيدي عبدالله بن سرح الصحابي (ر) وأخذ خبيراً من هناك ورحل الى برقة الحمراء ونزل على عرب يقال لهم عيلة اللواطي وحملوه إلى برقة البيضاء .. ونزل عند الشيخ علي الاطيوش وسار مع الاستاذ في أرض سرت إلى ان وصل الى الهيشة .. وتلقوه عيلت بن المنتصر وحملوه وساروا معـه إلى مصراته . ومن مصراته إلى طرابلس وهم متميزون من بين أقرانهم من خدمة الدولة بمحبته (ر) . وسار ذلك في ذريتهم إلى الآن . وساعدهم القدر وهو أن باشا ذلك الوقت له محبة عظيمة وهو أشقر علي باشا فحرصهم على حمله والاتصال به فأنزلوه في سانيتهم بالمنشية وأقام بها سبعة ايام ثم توجه قاصداً قابس ، والإخوان الذين ركبهم في البحر وصلوها قبل وصوله طرابلس بمدة . ولما وصل (ر) زوارة مكث فيها مدة شهرين والكتابة لم تنقطع بينه وبين الإخوان والمسافة التي بينهما يومان . ثم سار إلى قابس وبعد وصوله اليها مكث بها إلا قليلا وترك الإخوان هناك ورجع إلى طرابلس هو وابن الحاج المغربي وعبد القادر المكاوي وسايس الخيل هم الثلاثـــة لا غير . والمسافة من طرابلس إلى قابس عشرة ايام ، وهذه الرجعة بانزعاج منه (ر) وما كان الإخوان يظنون ذلك وكان مراد الكفرة لعنهم الله الغدر به هناك »[1] .

وهكذا فان ابن السنوسي - كما يبدو من حديث احمد الشريف - غير جزءاً من مخطط سفره في قابس . فبعد أن كان عازماً على الذهاب إلى الجزائر لرؤية ولده توقف في قابس ثم رجع فجأة الى طرابلس . والسبب في ذلك انزعاجه من بعض التدابير الفرنسية التي يوضحها قول احمد الشريف « وكان مراد الكفرة الغدر به هناك في قابس » . ويبدو أن الفرنسيين شعروا بخطورة دعوته بعد أن أوصلت لهم

١ ـ احمد الشريف المخطوط ص ٧٠ .

مخابراتهم معلومات عن نشاطـــه مع الحجيج في الحجاز ومنهم مسلمو شمال افريقيا . وهنـــا يبرز سؤال عن موقف ابن السنوسي من احتلال الفرنسيين لوطنه الجزائر .

موقفه من احتلال الفرنسيين للجزائر

وكنا بيّنا أن المؤرخين اختلفوا في تحديد مكانه عند حدوث الاحتلال ، فمنهم من قال انه كان في جنوب الجزائر وكاد يبقي للجهاد فيها لولا أن رأى أن من الافضل الذهاب إلى الشرق . بينما كان رأينا انــه غادر قبل الاحتلال بحوالي عشر سنوات وأنه كان عند حدوث الغزو الفرنسي في الحجاز . فلما غادر الحجاز إلى المغرب كان في نيتــه زيارة الجزائر باعتباره جزائرياً ولكنه جوبه بموقف الفرنسيين المتصلب منه ومحاولتهم الغدر به . ولا نجد في حديث المؤرخين ما يوضح موقفه من احتلال الفرنسيين لوطنه إلا اخباراً أوردهـــا الاشهب . من ذلك قوله « ثم واصل سيره الى قابس وكانت اخباره قد وصلت الى فرنسا فبثت عيونها وأذنابها على طول الحدود وجاءته الاخبار بذلك وتقرر أن لا يواصل شخصياً سيره ، فندب العلامة السيد محمد بن صادق احد تلاميذه وحمله بعض الاموال والاسلحة لتوصيلها خفيـــة إلى الجزائر وعاد السيد الإمام الى طرابلس » . [1] كما يقول في مكان آخر ان ابن السنوسي لم يغفل اثنـــاء انشغاله في برقة باصلاح حال المسلمين عن الاحتلال الفرنسي للجزائر « فكان يعمل جهد المستطاع على تقوية الثورة هناك ومدها بالاموال والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء امثال العلامة محمد بن صادق الطائفي والعلامة محمد بن الشفيع ، والسيد عمر الفضيل المعروف بأبي حواء، والشيخ الفضيل ابو خريص الكزة»[2]. ولا يذكر الاشهب المصدر الذي استقى منه هذه الاخبار ولكنه ينقل عن دوفرييه ما يشير إلى

١ - الاشهب، السنوسي الكبير ص ١٠٣ .
٢ - الاشهب، السنوسي الكبير ص ٢٣ .

اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في اعمال المقاومة في الجزائر . فدوفرييه يقول : « إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع اعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وانها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبدالله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨ – ١٨٦١ وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا ١٨٥١ الخ .. »[1] يشير حديث الاشهب هذا وحديث دوفرييه إلى ان ابن السنوسي ساهم في جهـــاد مسلمي الجزائر ضد الفرنسيين ، وكانت مساهمته بارسال أموال واسلحة مع تلاميذه . وقـد عثرنا على صورة خطاب ارسله احد تلاميذه إلى مدير غدامس التركي ، ويدل الخطاب على أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وان عدداً من اتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب . وتاريخ الخطاب سنة ١٢٦٨ هـ . وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ . ومن بين ما جاء فيه « .. وأما انا عبدالله حين قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها ، سبحان من حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عباده مخذولاً مذموماً ، لكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإياكم به آمين . وصاروا عربان وارقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانهـــا والأرباع والحرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعـــة الله ورسوله وطاعتنا والمجاهدين كل يوم في الزيادة ... وبعث لنـــا الرومي دمره الله في هذه الساعة ثلاثة أمحل .. تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً واعلننا على اعدائه ، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثة ماية وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك

---

١ – دوفرييه نقلاً عن الاشهب ص ٨٠ .

وبركة الشيخ معنا . . »[1] ويجعلنا هذا الخطاب نؤيد كلام الأشهب السابق ونقول بأن ابن السنوسي ساهم في جهاد مسلمي الجزائر ضد الفرنسيين عن طريق ارسال تلاميذه بالاسلحة والمال وتحريض اتباعه في الجزائر على القتال . وموقف ابن السنوسي هذا طبيعي لأنه اهتز لضياع وطنه وعمل على المساهمة في تخليص هذا الوطن على حدود استطاعته .

في طرابلس

رجع ابن السنوسي من قابس إلى طرابلس وكان قد مر بها في طريق ذهابه . ونزل فيها عند عائلة المنتصر الذين كانوا متميزين عن غيرهم ممن يخدمون الدولة بمحبته – على حد تعبير احمد الشريف – كما كانوا على صلة طيبة بواليها اشقر باشا الذي « حرصهم على حمله والاتصال به » . وقد استنتج شكري من اكرام الوالي لابن السنوسي انه اعتراف ظاهر بمركز السيد واعتراف بحاجة دولة العثمانيين إلى الاستفادة من نفوذه في إصلاح الاحوال الفاسدة .[2] بينما هناك ما يدل على ان اشقر باشا لم يرحب بقدوم ابن السنوسي اول الامر . فقد تحدث الملك ادريس انه لما وصل ابن السنوسي طرابلس تضايق الوالي التركي منه وخشيه، وعرف بذلك رب عائلة المنتصر الذي كان يستضيف ابن السنوسي فعمل على تعريف الوالي بضيفه فسر الوالي بمعرفته وتأثر بورعه .[3] وقد فصل الاشهب في الحديث عن هذه النقطة حيث قال « فبعد ان وصل قابس عاد الى طرابلس وذلك في اوائل ١٢٥٧ وكان حاكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته انباء مشوهة عن دعوة السنوسي وحركته التي قيل على

---

١ – نص الرسالة الكامل فى الملحق نقلا عن سجل رقم ١٩٦/٣/١٠٥ دار المحفوظات طرابلس .

٢ – شكري ص ٣٠ . تولى اشقر باشا او عسكر باشا حكم ولاية طرابلس سنة ١٢٥٤ وعزل ١٢٥٨ .

٣ – في حديث الملك لي .

لسان رواة الحاكم العثماني انها ترمي إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية . وكان راوية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله . فأمر علي عشقر بالقبض على رفاق الامام السنوسي الموجودين بمنزل الحاج احمد باشا المنتصر ريثما يتسنى القبض على شخص الامام . وتقدم المنتصر بوساطته في ان يبقى الإخوان السنوسيون في منزله وقدم بذلك ضمانا شخصياً متعهـداً أن يخبر الحكومة عن الامام السنوسي حينما يعود . وشاء الله أن يصل الامام فجأة وما كان يعلم عما حدث فلما علم أصر على رؤية الوالي وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته فاعتذر له وانضم اليه اثنان من المجلس : المقرحي والقزيزي . »[1] وفي موضع آخر يذكر الاشهب « ان المقرحي كان من طليعة علماء طرابلس وقد كلفه اشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الامام فما كاد يتصل به حتى تعلق به وانخرط بـه في جملة اخوانه »[2]. وهكذا علت منزلة ابن السنوسي في طرابلس بعد أن اطمأن الوالي من ناحيته. ويمكننا أن ندرك سر خشية الوالي منه أول الأمر بعـد مراجعة أحداث تلك السنة إذ كانت الولاية مسرحاً لفتن متتالية قام بها غومه المحمودي في جبل نفوسه وعبد الجليل سيف النصر في سرت واستطاع كل منهـما لفترة ان يستقل بمنطقته مقابل دفع مبلغ معين للولاة. ثم تفاقم امرهما فدبر علي اشقر باشا طريقة الخلاص منهما ونجح في القبض عليهما فأما غومه فنفاه من طرابلس وأما عبـد الجليل سيف النصر فقطع رأسه . لذلك لا نعجب إذا كان عند الوالي حساسية خاصة جعلته يوجس خيفة من ابن السنوسي نتيجة الاخبار التي بلغته ولانه من أهل البيت وله اتباع ومريدون . ولكن اشقر باشا سرعان ما اطمأن بفضل اسلوب ابن السنوسي في الدعوة حيث اقنـع الوالي بحسن نياته وبعدم وجود اطماع سياسية له .

---

١ ـ الاشهب ، السنوسي الكبير ص ١٠٣ .

٢ ـ الاشهب ص ٦٠ .

ومكث ابن السنوسي اربعة اشهر في طرابلس ـ شهرين قبل قدوم الاخوان من قابس وشهرين بعده ـ ودأب في تلك المدة على الدعوة فنجح في جذب عدد من الناس اليه. ويبدو أن الطريقة الدرقاوية كانت منتشرة في الشمال الافريقي وكان أفرادها يمثلون الزهد والجذب، فحدث بين أتباع ابن السنوسي وبين الدرقاويين مصادمات. ويذكر احمد الشريف أن احمد بن فرج الله ـ حمو ابن السنوسي ـ اجتمع في تلك الفترة بجده « واخـــذ عنـه الطريقة المحمدية وكان درقاوياً برقعته فأحرقهـــا الاخوان، وشكا له من ضعف الحال فأمره الاستاذ أن يلحقه بأهله في الجبل الاخضر ». [1] ويلاحظ أن عدداً ليس بالقليل تبع ابن السنوسي في تلك الفترة وضم رجالا من الحجاز والمغرب ومصر والسودان. وهذا العدد هو الذي كون نواة الحركة وقام بتنفيذ خطة ابن السنوسي في تأسيس الزوايا ونشر الدعوة.

« وارتحل ابن السنوسي بعد ذلك قاصداً الجهة الشرقية ورحل الاخوان قدامه ومعهم الاثاث وأهل بيته إلى بنغازي ». والظاهر انه أصدر اليهم الأمر بأن يسبقوه إلى البيضاء ويبدأوا في تأسيس زاوية هناك. وهذا يعني أنه اختار موقع الزاوية أثناء قدومه من المشرق « فلما وصلوا بني غازي حملهم اناس من العواقير (قبيلة هناك) يقال لهم عيلت الكزة إلى وطن البراعصة (قبيلة أخرى في برقة) وحملهم البراعصة إلى محل الزاوية البيضاء وشرعوا في تأسيسها قبـل قدوم الاستاذ. » «واما الاستاذ فخرج إلى سرت قاصداً ناحية بني غازي .. فالتقى ومرافقه بثلاثين فارساً واربعين رجلاً قاصدين طرابلس وذلك عنــد طلوع الشمس وكان ذلك الوقت أيام خوف شديد في مدة قطع رأس عبــد الجليل سيف النصر، وعبد الجليل هذا كان عاصياً الدولة فلما استولوا عليه قطعوا رأسه .. ولذلك خاف مرافق الاستاذ ولكن الفرسان والرجال حالما

---

١ ـ احمد الشريف المخطوط ٧١.

عرفوا الاستاذ نزلوا وسلموا عليه .. وهم عدة مشايخ من أهل الوطن من مغاربة وبراعصة وغيرهم ».[1] وهذا يدل على أن ابن السنوسي كان معروفاً بين تلك القبائل وان احترامهم له كان عظيماً . وهذا ما دفع الرجال إلى تغيير اتجاههم ومرافقته حتى اوصلوه إلى العسيلة . وقبل بني غازي « استقبله خمسة أنفار معهم اربعة جمال محملات زاداً ومعظم ذلك من الحاج عبد الله بن شتوان مع كونه درقاوياً » . ودخل ابن السنوسي بني غازي واقام بها شهر رمضان ثم حمله رجال من قبيلة العواقير هم عائلة الكزة إلى الزاوية البيضاء وكان الاخوان قد شرعوا في تأسيسها . وزاوية البيضاء هي أول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز بعد أن بدأ الدعوة . ولذلك يطلق عليها (أم الزوايا) ولها في اعتبار السنوسية مقام كبير . وتقع البيضاء في أعلى الجبل الاخضر، وقد بنيت الزاوية خارج البلدة وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها في الطريق إلى بلدة « مسا » . ويلاحظ زائرها ان ابن السنوسي اختار لها موقعاً استراتيجياً جيداً يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول اليه . كما يلاحظ أيضاً أنه أحسن بناءها. ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي ، كما انها تتتابع بانتظام مما يدل على أن ابن السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب لانه كان يتوقع هجوم الاعداء عليها . ويتضح هذا القصد من القصة التي يرويها أرسلان وهي ان بعض معمري الجبل الاخضر كانوا إلى مدة قريبة لا يزالون يذكرون أنهم سمعوا السيد يقول أثناء بناء زاويته « ان الافرنج سيأتون يوماً إلى هناك ويهدمون قبة الصحابي سيدي رافع رضي الله عنه ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية البيضاء ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه عبارات لاتينية » وقد رأى هؤلاء المعمرون مصداق ذلك في آخر حياتهم ». هذا وسنتعرض فيما بعد لكل توقعات ابن السنوسي التي تحققت والتي تدل على

---

١ ـ احمد الشريف ، المخطوط ٧٢ .

على نضج تفكيره .

زواجه الثالث

وفي مدة بقاء ابن السنوسي في البيضاء أقدم على إتمام زواجه الثالث ، ويروي لنا احمد الشريف كيف تم ذلك فيقول: « ولما وصل (ر) الزاوية البيضاء مكث بها مدة قليلة ثم اتاه الخبر بقدوم سيدي أحمد بن فرج الله إلى بني غازي « فأرسل يستقدمه إلى البيضاء وفيها خطب وسطى بناته منه وعقد عليها خارج الزاوية في محل يقال له دنقره . [1] وقد تم هذا الزواج بعد انتظار طويل للولد منه ومن الاخوان، إذ أن السيدة خديجة الحبشية زوجه الثانية لم يعش لها اولاد . [2] ولذلك نراه قبل اتمام هذه الخطوة يجمع الاخوان ويخبرهم انه رجل كبير ولا حاجة له بالنساء ولكنه يتوقع ان يرزق بولدين . وقد كان فرحهم بعزمه على الزواج عظيماً . وفي ليلة الزفاف أكل مع الاخوان وبسطهم وسار يفسر لهم أوائل السور فلم يروه (ر) في بسط وسرور اكثر من تلك الليلة وليلة ازدياد سيدي محمد المهدي » [3]. وقد تم ذلك الزواج سنة ١٢٥٩ هـ. ولم يطل ابن السنوسي مكوثه في البيضاء بل جعلها مركزاً وطفق يتنقل منه إلى مختلف أنحاء برقة يزور القبائل ويدعو الناس ويتعرف على الاماكن ثم يشيد الزوايا • وفي شهر ذي القعدة من سنة ١٢٦٠ هـ . وبينما ابن السنوسي في درنة وضعت زوجته ولدها الاول في البيضاء أو على التحديد قرب البيضاء في كهف بجانب الزاوية ، (وكان ابن السنوسي قد اتخذ هذا الكهف منزلاً له وبني فيه بزوجته،) فكتب أحد الاخوان وهو عمران بن بركة اليه يبشره ويسأله عن الاسم الذي يختاره للطفل فكتب له يسمي الطفل

---

١ ـ احمد الشريف المخطوط ٧٤.

٢ ـ الاشهب يقول انها لم ترزق باولاد بينما اخبرني الملك انها وزقت ولكنهم لم يعمروا .

٣ ـ احمد الشريف المخطوط ٧٣ •

محمد المهدي . وبعد مدة أرسل إلى أهله بالقدوم إلى درنة حيث سلم الطفل إلى المرضعة، وبقي ابن السنوسي في درنة حتى وضعت زوجته طفلهما الثاني سنة ١٢٦٢ فأسماه محمد الشريف . ولم يلبث أن ترك الجبل الاخضر وشرّق للحجاز .

انقضت أكثر من ست سنوات بين اليوم الذي غادر فيه ابن السنوسي الحجاز وبين يوم رجوعه اليه، وقد قضى جل هذه المدة في ليبيا بين طرابلس وبرقة. وفي خلالها بدأت دعوته تأخذ مجراها وتشق طريقها في الانتشار . وتركزت برقة كمنطلق لهذه الدعوة فمنها انطلق الاخوان بعد تأسيس زواياها لنشر الدعوة في الصحراء . وبقيت برقة مركز الحركة الرئيسي .

اسباب اختيار برقة مركزاً للحركة

وقد تحدث المؤرخون عن الاسباب التي حدت بابن السنوسي لاتخاذ برقة مركزاً للحركة ، فعددوا اكثر من سبب. فهذا شكري يقول « والاسباب التي دعت السيد إلى هذا الاختيار عديدة ومنوعة يرجع بعضها إلى معرفة السيد لحقيقة أمر البيئة التي تتميز بها هذه البلاد من غيرها والتي جعلت منها أرضاً صالحة لبث دعوة الإصلاح الديني الجديدة، هذا بينما يتصل البعض الآخر بتاريخ هذه البقعة منذ ان بسط الاتراك العثمانيون سلطانهم عليها » . ويشرح شكري هذه الأسباب فيبين أن سلطان العثمانيين لم يكن يتعدى في برقة السواحل، كما ان سكان برقة كانوا غارقين في بحار الجهالة . زد على ذلك توسط مركزها . [1] ويصف زيادة اختيار ابن السنوسي لبرقة بأنه قرار حكيم. ويبين انه جاء نتيجة معرفة ابن السنوسي للمنطقة جيداً . فقد تميزت برقة بفراغها السياسي وبجهلها

---

١ ـ شكري ص ٢٥.

العلمي وبكونها مخرجاً لأواسط افريقيـــا . [١] أما بريتشارد فإنه يعلق على استقرار ابن السنوسي في برقة بقوله «وقد يبدو ـ نتيجة لاضطرارابن السنوسي للعودة من قابس ـ انه لم يختر برقة كحقل لعمله بـل اجبر على الاقامة في ليبيا لفترة لأن الطريق إلى المغرب كانت مغلقة من قبـل الفرنسيين كما أن طريق المشرق كانت مغلقة من قبل سلطات القاهرة ومكة [٢] . »

وفي رأينا أن هناك عوامل عدة تضافرت لاتخاذ برقة مركزاً للدعوة . إذ بعد ما بدأ ابن السنوسي نشر دعوته في الحجاز وأسس زاوية ابي قبيس رأى أن الحجاز لا تصلح بأوضاعها السياسية التي سيطرت عليهـــا في تلك الفترة لتكون مركز الانطلاق الرئيسي للحركة . كما أحس بضرورة نشر دعوته في اماكن أخرى. لذلك ولأسباب أخرى- شرحناها -غادر الحجاز واختار طريق الغرب لأن عدداً من مريديه كانوا من المغرب ولأنه كان يرغب بزيارة الجزائر. ونحن نميل إلى القول بأنه لم يكن بقصد برقة رأساً ولم يكن قد وضح في ذهنه اختيارها عند خروجه من الحجاز، ولكنه كان يدرس المواقـــع في طريقه . فعندما اضطر للعودة من قابس وجد ان من المناسب الإقامة في برقة وكان قد لاحظ صلاحيتها أثناء عبوره لها في طريقه إلى طرابلس لذلك أمر إخوانه بتأسيس زاوية البيضاء عندما كان في طرابلس ثم لحق بهم . أمـــا لماذا رأى ابن السنوسي برقة صالحة لتكون مركز حركته فإن ذلك يتعلق بأحوالها السياسية والاجتماعية والطبيعية . فمن ناحية اوضاعها السياسية كان نفوذ الدولة العثمانية فيها لا يتعدى السواحل . أما الجبل الاخضر فكان مقراً لعدة قبـائل بدوية يسير الحكم فيه على النمط القبلي ، ولا بد أن ابن السنوسي قارن بين هذا الوضع وبين اوضاع الاقطار المجاورة . فمصر واقعة تحت سيطرة محمد علي الذي

---

١ ـ زيادة ص ٤٦ .

٢ ـ بريتشارد ص ١٤ .

يتميز حكمه بالفردية والتسلط، وتونس قريبة من الجزائر التي احتلها الفرنسيون، وأغلب الظن أن ابن السنوسي أثناء إقامته في زوارة كان في مكاتباته للاخوان في قابس يدرس الاوضاع فخرج من دراسته بأن تونس لا تصلح لأن يستقر فيها ، أما اقليم طرابلس الغرب نفسه ففي متناول الدولة العلية بوصفه مركزاً للولاية . ومراد ابن السنوسي الابتعاد جهد المستطاع عن السلطات الحكومية ليتاح له اكبر قدر من الحرية في العمل وليتجنب الاحتكاك بالسلطة. وقد علمته تجاربه في فاس ثم في القاهرة ومكة ان البعد عنها خير ما دام ينوي القيام بحركة ، لأن هذه السلطات لاترضى إلا على من يسير في ركابها . وهكذا رجحت كفة برقة في هذه الناحية السياسية لأنها كانت بعيدة عن أي سلطة تقريباً . فإذا أضفنا إلى ذلك ميزاتها في الناحية الاجتماعية بالنسبة لابن السنوسي الذي كان يريد ارضاً بكراً يبذر فيها افكاره ويطبق مخططاته. وقد كانت برقة مستوطنة من قبل عدة قبائل عربية مثل العبيدات والبراعصة والدرسة والعواقير والمغاربة والحسا وكانت هذه القبائل غارقة في بحار الجهالة يكثر فيها السلب والنهب وقطع السبيل «وطبيعتها بدوية تكثر فيهـا الخصومات ولا تملك الدولة العلية أن تفعل شيئاً معها . فابن السنوسي كان يريد مثل هذه الارض البكر ليبدأ عمله فيها. ومن الملاحظ أن المجتمعات البسيطة أقدر على حمل الدعوات — في أغلب الاحيان — واكثر اندفاعاً واسهل قيادة . [1] ولو ان ابن السنوسي بدأ في مكان آخر لوجد منافسة قوية من المعـاهد العلمية والعلماء، كالزيتونة والازهر والمعـاهد الشرعية الاخرى في المـدن المختلفة . وهكذا تضافرت محاسن العزلة السياسية مـع محاسن بساطة المجتمع بالنسبة للدعوة . يضاف إلى ذلـك توسط مركز برقة وكونها معبراً للصحراء ومقدرة ابنائها على الارتحال والتنقل مما يساعد على نشر الدعوة وخصوبة ارض الجبل الاخضر .

---

١ ـ سندرس صفحات ومميزات مجتمع برقة بتوسع في مكان آخر .

فكان أن اختار برقة لهذه الاسباب جميعها .

وغادر ابن السنوسي برقة قاصداً الحجاز ويقول زيادة : « إن مغادرته هذه كانت كرجوعه من قابس غير مرسومة ولا متوقعة ، وأن عـدداً من الاخوان المقربين فوجئوا بها » . ثم يعلق قائلاً : « إننا ميالون للاعتقاد بأن مثل هــذه الحركة كانت طبيعية في حياته . فابن السنوسي كان إنساناً مصقولاً وعالمي النزعة ، وكانت لديه مشاريع كثيرة للعالم الاسلامي ، كما أن قلبه كان في مكة باعتبارهـا المكان الذي يستطيع فيه الاتصال بالمسلمين من كافة الأنحاء ، وعن طريق ذلك يوسع تأثيره . لقد كانت برقة أرضاً طيبة للنشاط ولكنها ليست الأرض الوحيدة[1]. وقد وصف بريتشارد ابن السنوسي « بأنه عالمي النزعة ومن سكان المدينة ، وقد قضى جلّ حياته في مدارس ومكتبات فاس والقاهرة ومكة ، وكان ميالاً لها أكثر من ميله للسكنى في سهول برقة »[2] . ويبدو أن ابن السنوسي شعر بعد أن أمضى ست سنوات في برقة يركـّز دعوته بأنه أرسى قواعدها وثبت أسسها ، كما شعر أيضاً بضرورة السفر إلى الحجاز . لذلك غادر برقة مطمئناً إلى أن دعوته ستنتشر ، وقد خلف وراءه عـدداً من الاخوان للاشراف على الحركة . ويمكننا هنا أن نلاحظ خاصية يتميز بها ابن السنوسي في تنظيمه هي أنه يخطط التنظيم بحيث يكفل للعمل الاستمرار بغض النظر عن وجوده أو عدم وجوده . ولقد شعر بضرورة السفر إلى الحجاز ، لأنه كان يفكر في تعميم دعوته ونشرها في مختلف أصقاع العالم الاسلامي ، وهذا واضح من اعتزامــه زيارة بلاد الشام ، ولا شك في أن مكة هي خير مكان لتحديد مجالات انتشار الدعوة . هــــذا بالإضافة إلى رغبته في تفقد إخوانه وهناك وحنينه إلى سكنى المدينة .

---

١ - زيادة ٤٧ .

٢ - بريتشارد ١٤ .

إقامته الثانية في الحجاز

أقام ابن السنوسي هذه المرة مدة طويلة في الحجاز ، استمرت حوالي ثماني سنوات ، وقد حفلت هذه السنوات بالنشاط الدعوي الذي بلغ حداً عظيماً يدفع إلى الإعجاب بامكانيات ابن السنوسي ومقدرته على العمل المنظم المستمر وذكائه في تصريف شؤون حركته . ولقد ذكرنا غايته من السفر إلى الحجاز ، ولو أننا تابعنا أعماله لرأينا أنه حقق تلك الغاية ، فمن ناحية تابع ابن السنوسي نشر دعوته ، فتتابع إنشاء الزوايا ، وكثر دخول النـاس في الدعوة ، ولم تخل تلك الفترة من متاعب ، فقد جابه ابن السنوسي معارضة قوية من العلماء الآخرين تذكرنا بالمعارضة التي جابهها في إقامته الأولى . ومن الطبيعي أن تكون هذه المعارضة امتداداً للمعارضة الأولى ولكنها لم تؤثر على إقبال النـاس عليه ، ولم تحدّ من التفافهم حوله .

وقد تحدث الصادق المؤيد عن ذلك فقال : « مع أن المرحوم ابن السنوسي عندما كان في الحجاز لم يتعرّض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى ، فإنه أصبح هدفاً لنقمة الآخرين ونقدهم . ومع ذلك فقد توسّع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني الحارث وبني حرب، كما انتشرت الطريقة بواسطة الحجاج : وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة في الحجاز واليمن على الخصوص .

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسي من رقابة ومنافسة وعداء ، فقد كان عدد المريدين في ازدياد . ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسية التي في جبل أبي قبيس في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة » .

وبيّن لنا العظم أنه كان لكل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص، « فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الزوار والمسافرين ، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة . أما زاوية جدة فكانت

تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجاناً ، فهي محل ضيافة عامة »[1] .

وقد كان لعمل ابن السنوسي هذا أثر طيب في الحجاز تجلى في تحويل القبائل نصف المتوحشة – على حد تعبير الصادق المؤيد – إلى أناس متعلمين « بعد أن اهتدوا لهذه الطريقة وتخلوا رويداً رويداً عن خشونتهم »[2] . واشتهر أمر ابن السنوسي حتى بات معروفاً لدى القاصي والداني ومحترماً من عامة الناس وحتى من قطاع الطرق الذين – كما ينقل الصادق المؤيد عن الحجاج – كانوا إذا علموا أن في قافلة من قوافل الحج من ينتسب للسنوسية لا يتعرضون للقافلة احتراماً لهم. وقد يكون السر في عدم التعرض لهم أنه انتشر في تلك البقـــاع ، بعد مقتل أحد الاخوان على يد قطاع الطرق من البدو أن قتلته مـــاتوا شر ميتة لأن نقمة السنوسي حلّت عليهم .

وعمل ابن السنوسي بالاضافـــة إلى تأسيس الزوايا على تعليم مريديه بنفسه ، فجلس في مكة يدرّسهم الفقه والعلوم الأخرى. كما ألّف لهم عدداً من الكتب ، منها كتابه « بغية المقاصد وخلاصة الراصد » المسمى بالمسائل العشر. وقد انتهى من تأليفه كما تشير إلى ذلك النسخة المطبوعة سنة ١٢٦٤ هـ. أي أثناء إقامته في الحجاز . ومنها رسالة كتبت مقدمـــة لكتاب موطأ الامام مالك في أول سنة ١٢٦٧ هـ. « وذلك حين بداءته لقراءة الموطأ » بغيـــة إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب [3] . وقد يكون كتب بعض مؤلفاتـــه الأخرى في تلك الفترة أيضاً « كإيقاظ الوسنان » و « السلسبيل المعين » و « والدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية » . وقد ظهر في كتبه هـــذه اتجاهه الصوفي واعتماده على الكتاب

---

١ ـ الصادق المؤيد ص ٧٥ .

٢ ـ الصادق المؤيد ص ٧٥ .

٣ ـ انظر النسخة المطبوعة من المسائل العشر ، والنسخة المطبوعة من مقدمة الموطأ .

والسنّة وقوله بالاجتهاد .

وكان ابن السنوسي من أجل الاتصال بالحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، يحجّ كل عام تقريباً أثناء إقامته بالحجاز ، فيتعرف أثناء حجه على الناس ويدعوهم ويضم من يستجيب لدعوته . ويحدثنا الشيخ الظواهري في مقدمة المنهل العذب أنه اجتمع بابن السنوسي « في طيبة الطيبة عام ثمان وستين ... ومنذ ذلك الوقت لازمته سفراً وحضراً وحججت معه ثلاث مرات » . وهذا يعني أن ابن السنوسي حجّ في كل سنة من السنوات الثلاث الأخيرة التي أمضاها في الحجاز لأنه غادره عام سبعين .

وكان ابن السنوسي طوال إقامته الثانية في الحجاز على اتصال مستمر بأتباعه في برقة يوجههم ويصدر إليهم التعليمات عن طريق الرسائل . ويذكر الأشهب « أنه كان يندب سنوياً من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته »[1] . وتبين لنا بعض رسائله التي كتبت في تلك الفترة أنه كان يهتم بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بالحركة . ففي رسالة وجهها إلى اثنين من الاخوان اشتطا في الجدل حول تفسير آية نلاحظ اهتمامه بهذا الانحراف ومحاولته معالجة الأمر ، كما نراه في رسالة أخرى يعطي رأيه في مسألة زواج أحد الاخوان . وفي رسالته لأهل وجنقة نلاحظ أسلوبه في دعوة الناس وتأليف القلوب[2] .

هذا وقد فارق ابن السنوسي عند مغادرته برقة أهله ، وكانت زوجته قد أنجبت ولديها محمد المهدي ومحمد الشريف ، ولكنه بقي على اتصال بهم عن طريق الرسائل حيث كان يصدر تعليماته إلى عديله الذي كان مشرفاً عليهم

---

١ – الأشهب السنوسي الكبير ٤٣ .

٢ – انظر عدداً من رسائل ابن السنوسي في آخر كتاب الأشهب ، السنوسي الكبير .

بصدد تربية الولدين وتنشئتهما. وعندما أتم محمد المهدي الخامسة من عمره « أرسل (ابن السنوسي) إلى الاخوان الكافلين له وقال لهم أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر »[1] كما أنه عندما « توسط المهدي في السابعة أرسل إليهم يوجهونه إليه مع زوج خالته ، فارتحل به ـ ويسرد أحمد الشريف قصة هذه الرحلة ـ فيقول :

« وأتوا إلى درنة وأقاموا بها أياماً ينتظرون مركباً إلى الاسكندرية فلم يجدوا إلا مركباً توصل إلى خانية فركبوا بها ونزلوا بخانية .. وقدم عليهم الحاج أحمد بن المنتصر فأكرمهم غاية الاكرام .. ثم أتت مركب مسافرة إلى الاسكندرية فركبوها .. ثم ارتحلوا إلى وادي النيل من قرية إلى قرية .. فنزلوا في بحر القلزم قاصدين مكة يظنون الاستاذ بها . فلقيتهم مركب فيها من أخبرهم أن الاستاذ بالمدينة فعدلوا إلى ينبع . ثم توجهوا من ينبع إلى المدينة » .

ثم يتابع أحمد الشريف حديثه فيصف لقاء الأب بابنه : « فاجتمعوا بوالده الاستاذ ولم يره إلا ذلك اليوم لأنه من عادته لا يرى أطفاله وسرّ (ر) سروراً عظيماً وطلب لوح قراءته فوجد أوله « وإنك لعلى خلق عظيم » فازداد سروراً .. ثم زوّره الروضة الشريفة ولقّنه ما عنده من الدعاء ثم زوّره المآثر كلها التي بالمدينة كمسجد المائدة ومسجد القبلتين وغيرهما إلى سيدنا حمزة رضي الله عنه »[2] .

وكان ابن السنوسي قبل مجيء ابنه بقليل أو على التحديد في السنة الخامسة من مدة إقامته (١٢٦٧ هـ.) قد تزوج زوجته الرابعة والأخيرة « البسكرية » « ابنة السيد حسن البسكري » .وكانت بدرنة مع أمها وأخواتها وتوفي والدها فأرسل الاستاذ إلى ابن أخ المذكور سيد عبد الله البسكري أن يأتي بالأم وبناتها،

---

١ ـ أحمد الشريف المخطوط ص ٧٦ .

٢ ـ أحمد الشريف المخطوط ص ٧٨ .

وكانت أكبر البنـــات تحت سيد عبدالله المذكور فرحل بهن إلى الحجاز فبنى الاستاذ بإحداهن وهي السيدة فاطمة ورزقت منه بولد وتوفي صغيراً ولم يفارقها رضي الله عنه حتى مات »[1] .

وعندما دخل المهدي في السنة التاسعة غـادر والده ابن السنوسي إلى مكة وتركه مع أمه البسكرية (زوجة أبيه) التي اعتنت به كثيراً . وفي جمادى من سنة تسع وستين أرسل ابن السنوسي له بالقـدوم إلى مكة ، وأرسل يطلب من الاخوان في برقة إرسال ابنه الثاني محمد الشريف .

« فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيدأحمد بن فرج الله ومروا على العقبةثم منها إلى الاسكندرية ثم إلى كرداسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزوالي أقاموا بهـا أياماً ثم إلى السويس وركبوا البحر قاصدين جدة .. وأتتهم ريح عاصفـــة قبل نزولهم قلعت بالمركب حتى أيقنوا الغرق . وتقطعت الأشرعـــة وآخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع فنزلوا بها وأقاموا أياماً للاستراحة . ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة فزاروا الروضة الشريفة واجتمع بالباشا الذي بها وأعطاه ساعة تساوي مئة ، وبعـــد ذلك بنى جامع الزاوية التي بالمدينة بنـاءً متقناً من نفسه جزاه الله خيراً . وكان بالمدينة يومئذ السيد عبدالله التواتي وأكرمهم غاية الإكرام . وأقاموا بهـا ثلاثة أشهر ونصف ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة منتصف ذي القعـدة سنة تسع وستين بعد المئتين والألف صحبـة السيد التواتي.. وتخلف السيد عبدالله لوجع في رأسه وحمى ومعه آخر فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبّ الريح.. وقطاع الطرق قد أحاطوا برواحلها لينهبوا مـا عليها فقاموا إليهم للمدافعة عما أرادوه فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض وجرحوا صاحبه » .

---

١ ـ أحمد الشريف المخطوط ص ٨١ .

واكتشف رجـــال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولاً ينظر سبب تأخر الرجلين ، فتوقفوا لدفنه وساروا في خوف وحزن يحرسهم العسكر الذي أرسله الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة [1] . وقد حزن ابن السنوسي كثيراً على مقتل التواتي الذي كان من أوائل رفاقه وكان المسؤول الأول عن نشاط الحركة في الحجاز . ويحكى أنه كان شديد الاخلاص لابن السنوسي حتى أنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله . كما يحكي أحمد الشريف أيضاً أن قتلته أصابهم مرض مزمن وماتوا ميتة بشعة ، حتى صار العربان إذا سمعوا بقدوم الركب السنوسي يخرجون إليهم للزيارة ويأتون إليهم بالذبائح ولا يؤذونهم [2] . وهذا يذكرنا بكلام الصادق المؤيد .

حديث الرحالة هاملتون عن السنوسية

وكانت أمور الحركة تسير سيراً طيباً في برقة أثناء إقامــة ابن السنوسي في الحجاز . وقد تحدث الرحـــالة هاملتون الذي زار سيوه في تلك الفترة عن السنوسية بما يدل على قوتها . ويبدو من حديثه أنه اجتمع بابن السنوسي – قبل زيارته تلك – وتحدث معـــه . وحديثه هذا ينقل أقدم وجهة نظر غربية عن السنوسية وابن السنوسي .

يقول هاملتون : « والسنوسي الذي سنحت لي فرصـــة التحدث إليه هو مؤسس أكبر اخوة دينية في افريقيا في هذا الوقت تمتد فروعها من مراكش إلى الحجاز . وقد ولد بمستغانم ودرس في فـــاس وهو يقيم الآن في مكة حيث له بجوار بيته زاوية كبيرة ، وعمره الآن حوالي ٥٦ سنة .

«ومن العدل أن نقول إنه رجل ذو مواهب غير عادية معتبرين النجاح المتزايد

---

١ ـ أحمد الشريف المخطوط ص ٧٩ .

٢ ـ « « « « ٨٠ .

الذي حققه . وهو شريف من أسرة طيبة والهبات التي يقدمها الحجاج المتدينون جعلت الزوايا غنية جداً . ويسمح لأعضاء هـذه الزوايا بالزواج بعد أن يكملوا دراستهم . وهم مسلمون مستقيمون ولا يتعرضون لقسوة كبيرة ، وهم يقومون خمسين ركعة في اليوم تقليداً للنبي ، خمسة منها في منتصف الليل ويصومون بالاضافة إلى رمضان أياماً معينة من شعبان ورجب وذي الحجة ، وهم يتجنبون التدخين وشرب القهوة بينما يعتبر الشاي شرابهم المعتاد ، وهم يبدون أقل تعصباً من عامة العرب » .

ثم يتحدث هاملتون عن ابن السنوسي فيقول : « ويمثل السنوسي كل مـا ينبغي أن يتصف به القديس العربي من صفات ، فهو دقيق في فهم الدين ، مرح ، وهو يركب فرساً من أنقى سلالة ، ويلبس بفخامة ويكحل عينيه بالكحل ، كما يصبغ لحيته بالحنـاء ، وهو كريم جداً وكثير الضيوف ، ويبدو السنوسي رجلاً محترماً من أجل مواهبه وإخلاصه »[1] .

ولم تكن شهرة ابن السنوسي في الحجاز بأقل منهـا في برقة فكان كثير من الوافدين على مكة يرغبون برؤيتـه والتبرك به في عصر عظم الاعتقاد فيه بالأولياء . وقد استطاع بمواهبه وإخلاصه أن يضيء في كل مكان حل فيه ، وأن يوجه المعتقدين ببركته توجيهاً طيباً .

وفي السنة الأخيرة من إقامته الثانية هذه طلع للطائف لصيام رمضان كعادة أهل مكة أيام الحر . ثم نزل إلى الحج وترك ولديه في مكة وغرّب[2] . – كما يقول أحمد الشريف – وكان ذلك عام واحد وسبعين والف ومائتين – كما ذكر الظواهري – أي أنه أقام بالحجاز في المرة الثانية ثماني سنوات . ويمكننا هنـا أن نتساءل عن سبب مغادرته الحجاز وعن وجهته .

1— Hamilton : Wanderings in North Africa 1856 London Maxay .

٢ – أحمد الشريف ، المخطوط ٨١ .

ينفرد البستاني بالقول إنه خرج من مكة خائفاً من تهمـــة مشاركته مع الشريف عبد المطلب ، شريف مكة، الذي عصى الدولة ، « لذلك خـــاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل منها عائداً إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر »[1] . ولم يرد في أحاديث المؤرخين ما يؤيد أو ينفي هذا القول . ونحن لا نستبعد أن يكون لابن السنوسي نشاطه السياسي ، ولكننا لا نميل كثيراً لفكرة اشتراكه في مؤامرة ترمي إلى عصيان الدولة لأن ما يظهر لنا من تاريخه يدل دلالة قاطعة على أنه حرص دوماً على عدم التصادم المباشر مع السلطة، تماماً كما حرص على عدم الاتصال المباشر بها ، ولذلك قد يكون ما حدث إذا صدق قول البستاني هو أن صلته الطيبة بذلك الشريف وضعته موضع الاتهام فرأى أن من الأنسب المغادرة. ولو أننا نميل إلى أن خروجه هذه المرة من الحجاز كان خروجاً طبيعياً يوافق مخطط ابن السنوسي في نشر الدعوة .

أما وجهته فيبدو أنه كان معتزماً زيارة الشام، وقد صرح بذلك للإخوان ونقل الشيخ بلوا الدرناوي[2] ذلك عنه « كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس ، ثم في أثناء السفر أتانا الاذن بالذهاب إلى هنا (يقصد برقة) » . وقد أثبت الملك هذا العزم فقال: « إنه كان يفكر بزيارة الشام بعد إقامته الثانية في الحجاز وهمّ بالتوجه إليه، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر » ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غيـاب ابن السنوسي في الحجاز « اشتد القلق في ليبيا لطول غيبته ، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفـــد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج »[3] . أما غرضـه من زيارة القدس والشام ، فأغلب الظن أنها كانت تجمع بين زيارة المسجد الأقصى والعمل

---

١ ـ البستاني دائرة المعارف مادة سنوسي .

٢ ـ سنورد حديث الشيخ الدرناوي في موطن آخر بكامله .

٣ ـ الأشهب السنوسي الكبير ٤٣ .

على نشر دعوته ، ولكن هـذه الزيارة لم تتم واقتنع ابن السنوسي بالتوجه إلى برقة .

رحلته الثانية من الحجاز الى برقة

خرج ابن السنوسي من مكة « واتى جدة ومنها إلى الوجه ومنها الى السويس ومنها إلى كرادسة . »[1] فيكون سافر عن طريق مصر . وكان يحكم مصر في تلك الفترة عباس باشا . ويقول صاحب دائرة المعارف إن عباس باشا « بنى له زاوية بخارج القاهرة عند الشيخ القللي بجهة باب الحديد فلم ينزل بها وانما نزل في ناحية كرداسة بالجيزة فهرع النـاس لزيارته والتبرك به . »[2] وهذا القول يدل على محاولة عباس باشا التقرب منه . وقد كان وراء هذه المحاولة قصة جرت بين ابن السنوسي ووالدة عباس باشا مؤداها أن والدة عباس باشا حجت إلى مكة في أحد الاعوام أثناء إقامة ابن السنوسي الثانية في الحجاز، وكانت قد سمعت بتقوى ابن السنوسي وولايته فذهبت لزيارته في الزاوية فلم تجده ، بل وجدت السيد عبـد الله التواتي فسألته : أنت الشيخ؟ فأجابها: انا عبـد الشيخ . واخبرها أن الشيخ في الطائف فقصدت الطائف وطلبت مقابلته بالحاح فقابلها على مضض فحدثته عن ابنها عبـاس وكيف يضطهده عمه ابراهيم باشا وكيف انها تخشى عليه من عمه . ثم سألته أن يدعو لابنها فدعا له بالتوفيق. فرغبت هي أن تقدم لابن السنوسي هدية فمدت له صرة مملؤة ذهباً فرفضها . فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ شيئاً وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على السيد التواتي في زاوية ابي قبيس. فعادت إلى مكة وقدمتها للسيد التواتي فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض ، ولمـا الحت طلب منها أن توزعها على الفقراء لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة . وعندما

١ ـ احمد الشريف المخطوط ٨١ .

٢ ـ البستاني دائرة المعارف مادة سنوسي .

عادت إلى مصر توفي محمد علي وابراهيم في سنة واحدة فخلا كرسي الولاية واحتله ولدها سنة ١٨٤٨ فلم ينس دعوة الشيخ فلما مر ابن السنوسي بمصر سنة ١٨٥٤ حاول عباس ان يستقدمه لزيارته فأبى ، فعرض عليه عن طريق كاتبه أن يؤسس له زاوية في أي مكان شاءه من مصر ، فلم يظهر ابن السنوسي اهتماماً كبيراً فكان أن بنى عباس زاوية سنوسية بجهة محطة سكة الحديد . [١] أما عدم نزول ابن السنوسي بالزاوية فناجم عن موقفه الشديد إزاء تجنب الحكام ، وقد ذكر حفيده الملك ادريس « انه كان يكره الصلة بالحكام ويتجنبهم » .

وغادر ابن السنوسي مصر مغرباً حتى وصل الجبل الاخضر « ونزل بمحل يعرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وأقام هناك سنتين [٢] . » وتقع العزيات في السفح الجنوبي من الجبل الأخضر . وقد كان من عادة ابن السنوسي تغيير الاسماء الغريبة أو المنفرة بأسماء أخرى تقاربها لفظاً وتعطي معاني حسنة . وقد فعل ذلك مع عدد من الاخوان فغير اسماءهم او كناهم.

وفي خلال السنتين اللتين أقامها ابن السنوسي في العزيات كان يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا ، وكان يرسل في بعض الاحيان مندوبين عنه من الاخوان لتفقد أحوالها . ويحدثنا احمد الشريف « انه أمر وهو بها سيدي عبد الرحيم المحبوب (كانت كنيته المغبوب) بالسفر إلى ناحية الزوايا لتفقد أحوالهم ، ثم قبل توجهه قال له رضي الله عنه شوكة العين تقدم على شوكة الرجل ، إمض إلى الحجاز وانظر فإن رأيت الاحوال متغيرة فأتنا بالسيد المهدي ، وان رأيتها هادية فاتركه حتى يتم قراءته ، فامتثل ومضى فوجدها هادية وحج وتركه رضي الله عنه ورجع إلى الاستاذ (ر) » [٣] وهذا يدل على مبلغ اهتمامه

---

١ – حدثني الملك ادريس بهذه القصة واذكر انه قال عن موضع الزاوية انها بالاسكندرية وليس بالقاهرة كما قال البستاني .

٢ – البستاني دائرة المعارف مادة سنوسي .

٣ – احمد الشريف المخطوط ص ٧٩.

بأمور ولده، ولا ندري على التحديد مـا الذي كان يعنيه بتغير الاحوال في الحجـاز .

كذلك كان كبار الاخوان يقدمون على العزيات لزيارة شيخهم ، فكان يسمع منهم أخبار الزوايا ويصدر اليهم تعليماته .

حديث ابن السنوسي مع الدرناوي

وقد نقل لنا احمد الشريف في كتابه في معرض التدليل على مهدوية عمه المهدي حديثاً جرى في العزيات بين ابن السنوسي والشيخ محمـد بلوا الدرناوي أحـد الاخوان أجاب فيه الاول على أسئلة الثاني . واستعراض هذا الحديث يعطينا فكرة عن افكار ابن السنوسي السياسية في تلك الفترة وعن جوانب اهتمامات الاخوان . وقد اورد شكري هذا الحديث بتصرف متجاوزاً مسألة المهدوية. وعنه ننقل مقدمة الحديث كما نقلها عـما كتبه الدرناوي قـال « انه لما قدم استاذنا سيدي محمـد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي (ر) من الحرمين بغرة ربيع الاول ١٢٧١ (١٨٥٤) ونزل بقصر العزيات وشرع في بنيان زاويتنا توجهت قاصداً السلام عليه .. وجلسنا بين يديه وتفاوضنا في رحلته وما وقع له في الطريق . قال (ر) : كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس، ثم في أثناء السفر أتانا الاذن بالذهاب إلى هنا ». [1] ولم يورد احمد الشريف هـذه المقدمة بل بدأ كلامه في عرض اسئلة الدرناوي . وبعـد أن يذكر سؤالين يتعلقان بمدخل السنة القادمة وما يتوقع فيها وأن ذلك من علامات المهدي يقول : « وقال (أي الدرناوي) وأشار رضي الله عنه (اي ابن السنوسي) بالاستعداد فقال يجب على كل مسلم ان يستعد ويأخذ أهبته . ولم يصرح بالوقت والملحوظ من اشارته القرب.. وقال في أثناء كلامه متى يقع العام تخصب ارض طرابلس..

١ – شكري ص ٣٤ نقلاً عن ورقة وجدت بزاوية درنة .

وفي ذلك العام تؤخذ هي وتونس واسكندرية ويقتحمها أهل الجبـل الاخصر وهم جند المهدي .

وقلت له : يا سيدي أي القرانات (اي الدول) يأخذ الاسكندرية فقال : الانقليز . وقال ايضاً : ان النابلطان أخذ طرابلس غرب عام وفاة سيدي احمد الزروق وانزاحت أهل القرى والبادية إلى البساط وبنوا فيه مثل هذا القصر (يقصد قصر العزيات) ، ولعل هذا من بنيانهم . ولمـا فتحت طرابلس رجعت النـاس لأماكنهم ومواطنهم ، وأخذت طرابلس وسواحلها أيضاً سنة خمس وستين وفتحت عام مرور سيدي أحمد بن ناصر إلى الحرمين .

ومن هنا يعلم أنها تؤخـذ مرة ثالثة . وقد سمعت من الاستاذ أن من علامات المهدي أخذ تونس وطرابلس واسكندرية وسواحل الغرب ، ولا يمكثون في تلك الأماكن إلا قـدر شهرين ويأتي الله بمن يفتحهم جميعاً في ضرب شهرين وهم جند المهدي »[1] .

نستدل من هـــذا الحديث على أسلوب تفكير ابن السنوسي وعلى اهتمامات الاخوان . فالدرناوي يسأله أول الأمر عن مدخل السنة الجديدة ودلالتها، وقد كان عندهم اهتمام بمثل هذه الأمور نجد مثله في أمتنا قبلهم بعـدة قرون ، لذلك نلاحظ في كتاباتهم الاستدلال بالأيام وأرقام السنين والبحث عن دلالة كل رقم . ويجيب ابن السنوسي ذاكراً اليوم ، ونحن نعلم أنه درس الفلك في المغرب وبقي مهتماً به وعلّمه لتلميذه أحمـــد الريفي . ثم نرى ابن السنوسي يتحول إلى الحديث عن الاستعداد لأنه كان يتوقع حدوث شيء يوجب الاستعداد . وهذا الشيء ، كما يظهر من بقية حديثه ، هو غزو الكفار لديار المسلمين . وسيبـــدأ هذا الغزو — حسب قوله — عندما تخصب أرض طرابلس ، فتلفت بخصبها نظر

---

١ ـ احمد الشريف المخطوط ١٢١ .

عدوها القريب . وتوقع ابن السنوسي أن يأخذ الانكليز الاسكندرية يدل على فهمه الأوضاع السياسية التي سادت عصره ، كما يشير إلى معرفتـه بأطماع الدول الغربية في بلادنا. وهذا الوعي السياسي هو الذي جعله يتوقع أن يكون النابلطان (الايطاليون سكان نابولي) هم الذين سيحتلون طرابلس ، وهو يعتمد في توقعه على استقراء التاريخ من جهة وعلى دراسة الواقع المحيط من جهة أخرى . لذلك نراه يذكر كيف احتلت طرابلس مرتين من قبل ، ثم يذكر أنها ستحتل ثالثة – طبعاً ما دامت الدولة العثمانية في انهيار – ويذكر أن أهليها سوف يهاجرون إلى الصحراء . ثم يتوقع – ولعله كان يأمل ويرجو – القضاء على الأعداء بفضل جنود المهدي . والمدة التي يحددها لحدوث هذا كله – وهي شهران – لا تعني شهرين فقط، بل أراد من ذلك القرب مع ملاحظة «أن قريبهم بعيد وبعيدهم قريب » – كما يلاحظ أحمد الشريف – .

ونستطيع من حديثه هذا أن نفهم سبب اختياره مواقع استراتيجية لزواياه؛ فهو كان يتوقع مجيء يوم تتعرض فيه هذه الزوايا لغزو الايطاليين ، لذلك بناها أشبه بالقلاع ، وشرع في الوقت نفسه بتهيئة الاخوان للجهاد ليكونوا على أهبة عند حلول ذلك اليوم .

وبعد أن أقـام ابن السنوسي عامين في العزيات قرر التحول إلى الجغبوب . ويلاحظ أنه لم يزر زاوية البيضاء منذ مغادرته لهـا بعد بنائها ، كما أنه باعتزامه الانتقال إلى الجغبوب كان يريد الإيغـال في الصحراء . ويربط المؤرخون - وخصوصاً الغربيون منهم - بين هذا الانتقال وموقف الدولة العليـة منه . فهذا زيادة ينقل عن آدمز ورين « إن السبب الذي دفع ابن السنوسي للانتقال إلى الجغبوب هو شعوره بعدم رضا وارتيـاح السلطات العثمانية للنجاح الذي لاقته دعوته، ولذلك قرر التوغل في الجنوب حيث سيكون في مكان أكثر أمناً »[1].

---

١ – زيادة ٤٨ .

ويعلق زيادة بأن اختيـــار الجغبوب يمكن أن يقوّي هذا الرأي . ثم يورد قول رين ويراه جديراً بالاعتبار وهو : « أنه حتى سنة ١٨٥٥ ونتيجـة ازدياد شعور ابن السنوسي بعداوة الترك أكثر فأكثر ، وعـداوة علماء استانبول والقاهرة فكر بالانتقـــال من الجبل الأخضر وتأسيس مراكز بعيدة عن الساحل »[١] . كما ينقـل زيادة عن كيين قوله إن السنوسي تحرك إلى الجغبوب تحت ضغط القناصل الأوروبيين . ويتعرض شكري لهذه النقطة فيرى : « أن إنشاء الزوايا من جهة ، ثم انتشار تعاليم السيد وذيوع الطريقة السنوسية من جهة أخرى لم يلبث أن أثار عداء السلطات الحكومية (العثمانية) .. أضف إلى هذا أن علماء الدين الذين ما كانوا يرضون بأي جديد ـ والجديد دعوته للكتـــاب والسنة ـ سرعان ما زادت نقمتهم عليه ، خصوصاً علماء وشيوخ القسطنطينية ومكة ... لذلك أراد السيد أن ينشىء زاوية غير زاوية البيضاء تكون بعيـدة عن الساحل وعن متناول سلطان الحكومة »[٢] .

ويقول بريتشارد : « إن ابن السنوسي في عودته لبرقـــة يبدو أنه شعر بضرورة وحدة أعظم . وكان قد بلغ السبعين وشعر بدون شك بأن ما تبقى له من العمر يجب أن يصرف في العبـــادة والدراسة . كما يمكن أن يكون صحيحاً أيضاً ما يرد غالباً في مؤلفات الأوربيين من أنه رغب مكاناً بعيداً عن السلطات التركية التي بدأت تهتم بدعوته أكثر بعد نجاحها »[٣] .

أما ستودارد فيقول بعد أن يذكر نجاح ابن السنوسي في الدعوة : « بيد أنه لم يمض غير زمن يسير حتى باتت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعد لشأنه فساءت العلاقات بينه وبينها فنقل مقامه إلى واحة جغبوب »[٤] .

---

١ – زيادة ٤٩ .
٢ ـ شكري ٣٥ ، ٣٦ .
٣ ـ بريتشارد ١٤ .
٤ ـ ستودارد ، المجلد الاول .

ولا يورد البستاني شيئاً عن سوء العلاقات بين ابن السنوسي والدولة العثمانية وإنما يذكر أن سبب الانتقال هو « أنه أراد أن يعتزل مواطن الحكومات »[1].

أما أرسلان فيتجاهل فكرة سوء العلاقات ويرى أن السبب هو خشية ابن السنوسي من الأجانب « ويقولون إنه كان قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختار الإيغـــال إلى الجنوب والإقامة بالصحراء ، فعمّر زاوية جغبوب »[2]. ونود نحن قبل أن نعطي رأينا في أسباب هذا الانتقال أن ندرس علاقة ابن السنوسي بالدولة العلية على ضوء ما بين أيدينا من وثائق .

علاقة ابن السنوسي بالدولة العلية

لم تكن علاقة ابن السنوسي بالدولة العثمانية سيئة على الصورة التي عرضهـــا بعض المؤرخين الأوربيين ، بل إن الوثائق التي بين أيدينا تشير إلى حسن العلاقة بينهما . وقد رأينا كيف احتفل أشقر باشا بابن السنوسي ـ بعد أن اطمأن إليه ـ عنـد قدومه إلى طرابلس ، كما أوردنا ملاحظة شكري حول دلالة هذا الاحتفال حيث اعتبره اعترافاً من الدولة بدعوة ابن السنوسي . ولم يغير الولاة العثمانيون الذين تبعوا أشقر باشا على حكم طرابلس من هذا الوضع ، بل كان بعضهم على علاقة وثيقة بابن السنوسي وكان جلهم متفاهمين معه محترمين له . وتعطينـــا الرسائل المتبادلة بين ابن السنوسي والولاة ، فكرة عن هذه العلاقـة الطيبة . فقد جـــاء في رسالة بعث بها ابن السنوسي لوالي طرابلس محمد أمين باشا[3] ، بعد تأسيس الزاوية البيضاء : « ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنـا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق ،

---

١ ـ البستاني : دائرة المعارف ، مادة سنوسي .
٢ ـ ارسلان : المجلد الثاني ص ١٤٢ .
٣ ـ حكم محمد أمين باشا ولاية طرابلس بين ١٢٥٨-١٢٦٤ بعد أشقر باشا الذي حكمها في المدة ١٢٥٤ - ١٢٥٨ .

فهذا محقق لدينا ، وواجب المكافأة علينا، ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمارة، وغير ذلك مما لا يقدر علىمكافاتكم عليه إلا الله سبحانه، هذا مع بُعد المسافة واشتغالكم بمصالح الدولة العلية وقيامكم بأعباء سياسة الرعية ، فان هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم ، فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع ، ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع .. والاخوان المهاجرون دائماً لكم داعون » . ثم يتحدث عن عمله وعمل الاخوان في نشر العلم وإقامة شعائر الدين ثم يقول : « ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بني غازي للقيام بمصالح الدولة السنية فنعم ما فعلتم ، ونرجو أن يكون على قدمكم في طرق السداد والرحمة للعباد ، فأوصوه بذلك ، وادعوا له به فإن رضاء الحق في رضائكم عليه. ونحن والاخوانعليه راضون..» ثم يختم الرسالة بمواعظ مؤثرة[1] . فنحن نلمس من هذه الرسالة وداً قوياً بين ابن السنوسي والوالي ، ونستنتج منها رضا الوالي وتأييده لحركة ابن السنوسي .

وفي رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسي إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي الذي وردت عنه إشارة في الرسالة السابقة نرى ابن السنوسي يعهد للحاكم بمهمة رعاية الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها وذلك قبل سفر ابن السنوسي إلى الحجاز . وقد جاء في الرسالة : « ... فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها ، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بهمة حضرتكم ومنّة جناب والدكم (هنا بياض في الأصل) .. وكل من الزوايا حوله عربان وعلم جنابكم محيط بأحوالهم وتعدي بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم .. وقد سبق من جنابكم وجناب الأكرم الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها .. وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزيز

١ — انظر الرسالة بنصها الكامل في كتاب السنوسي الكبير للأشهب ص ١٣٩ وكتاب المهدي السنوسي للأشهب ص ١٤٨ .

خطابكم لا يستباح لها حصن ولا تخفر لهـا ذمة وتصير حرماً آمناً ... »[1] .
فهذه الرسالة أيضاً لا تدل على وجود علاقة سيئة بينهما بل على العكس نلمس فيها مودة وتعاوناً .

فإذا أضفنا إلى مدلول هاتين الرسالتين ما فعله ابن السنوسي من إرسال أحد الاخوان وهو الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي إلى استانبول حيث قابل السلطان عبدالمجيد وحصل منه على « فرمان » سنة ١٨٥٦ يعفي أملاك الزوايا من الضرائب ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها[2] ، نخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسي بالدولة كانت طيبة وحسنة طوال إقامته الأولى في برقـة . وقد أشار صادق المؤيد لهذا الفرمان الذي لم نعثر على صورة له . ثم سافر الشيخ أبو القاسم العيساوي من طرابلس إلى استانبول وحصل على « فرمان » آخر من السلطان عبدالعزيز يؤكد الفرمان الأول ، وأحضره إلى والي طرابلس .

وقد عثرنا في دار المحفوظات في طرابلس على صورة بيورولدي عالي (مرسوم ولائي) صدر في حق السيد المهدي السنوسي فيه إشارة لهـذا الفرمان وأمر باستمرار مفعوله وهو من والي الولاية حالت باشا إلى متصرف الجبل . وقد جاء فيه بعد التحية « وبعد فإن الشيخ العالم ... السيد الحاج بلقاسم افف العيساوي دام موقراً مرعياً بيده أوامر من أسلافنـا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالي الشأن في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لِمـا تحقق من حسن سيرته وخلوص طريقته وسريرته وعلمه وفضله وسلوكه مسلك استـاذه ذي الهداية والارشاد، موصل السالكين لإدراك المراد ، صاحب المقام الأنور الباهر، والنسب العـالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار ، عين أعيـان الأخيار السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي .. كما تشعر بأنه

١ ــ انظر الرسالة بكاملها في السنوسي الكبير للأشهب ص ١٤٤ .
٢ ــ انظر بريتشارد ص ٩١ والصادق المؤيد ص ٦٦ .

أسس زاوية باسم استاذه المشار إليـــه ، قاصداً بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الاستاذ ليعم النفع والارشاد ، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين رفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمـــال والوقار والاجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة .. وعدم التعدي على الزوار الوافدين عليها .. وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما هم عليه وأن لا يقاسون بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والاعشار الشرعيـــة وأن لا يطالب بميري ولا أعشار حسبما تضمنه الدركنا مع مزيد الاحترام ..[1] » .

وعليه فقد أعفيت الزوايا من الضرائب وأحيطت بالحماية القانونية وصـدرت الأوامر بمعاونة أفرادها . وهذا دليل قاطع على حسن العلاقات بين ابن السنوسي والدولة العلية إبان إقامته الأولى في الجبل الأخضر ، فهل تغير الحال بعد عودته الثانية من الحجاز إلى برقة سنة ١٢٧١ . الواقع أننا لا نلاحظ مثل هذا التغير ، وقد استمرت رسائله بعد انتقاله للجغبوب إلى حكام الأقاليم ، وتدل هـــذه الرسائل على علاقة حسنة بينه وبينهم . من ذلك رسالة وجهها إلى حاكم إقليم فزان في ٣ شوال ١٢٧٣ ، أي بعد تحوله إلى الجغبوب بأشهر يقول فيها بعـــد البسملة والديباجة : « ولدنا مصطفى باشا قائم مقـام فزان .. (ثم تحيات) .. وحمدنا الله على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم ... إنكم للفضل أهل ولأعمـــال الصالحات مأوى ... وفضائلكم لدى الخاص والعوام واضحة . وقد أخبرنا ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي عن جميع خيراتكم تفصيلاً... وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن شفيع يذكّر عبـــاد الله في تلك الناحية ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع إليها الشيخ أحمد التواتي لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض الكتب غير موجودة في خزائننا ويرجع إن شاء الله عاجلاً ، وها نحن داعون لكم بصالح الدعوات »[2] .

---

١ – دار المحفوظات طرابلس تاريخ البيورلدي سنة ١٢٨٧ .

٢ – نص الرساله الكامل في السنوسي الكبير للأشهب ص ١٤١ .

والرسالة بمجموعها تشير إلى علاقة طيبة وتدل على أن مصطفى باشا كان يعامل الاخوان معاملة طيبة . ويتضح هذا من رسالة أخرى بعثها ابن السنوسي لمصطفى باشا رداً على رسالتـه ، وفيها يقول : « فأنتم إلى الخيرات ساعون .. ولأمر الزوايا التي تحت إيالتكم واقفون ، خصوصاً التي أعتنم عليها ووقفتم على أمورهـا وهي التي بوادي (و) فأبشروا إن شاء الله بالخير الأبدي .. وقد أخبرنا الشيخ أحمد التواتي بما عملتم وما في الزاوية صنعتم جزاكم الله خير الجزاء ».. وتختم الرسالة بحديث جميل عن الزاوية ودورها[1] .

وقد يقول قائل إن هذه العلاقة بين ابن السنوسي ومصطفى باشا قد تكون شخصية ولا تعكس لذلك صورة علاقة ابن السنوسي بالدولة ، ونحن لا ننفي مثل هـذا الاحتمال ولكننا نراها أيضاً دليلاً على أن العلاقة بينه وبين الدولة لم تكن سيئة ، لأنهـا لو كانت كذلك لظهرت آثارها على سلوك موظفي الدولة ومنهم مصطفى باشا .

لقد كان ابن السنوسي ينظر إلى دولة الخلافـة كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره بل لعلها تفرض الحفاظ عليه وعدم االاصطدام به. لذلك جعل علاقته بها طيبة دون أن يتجاوز فيها حدود الرسميات ، مع أنه كان يرى أن الإمامة لا بد وأن تكون لقرشي وقد أوضح ذلك في كتابه « الدرر السنية » . ومع ذلك فوجود هذه العلاقه الطيبة لا يمنع ابن السنوسي من التفكير في الإيغال داخل الصحراء ليكون أطلق يداً وبعيداً عن احتمال حدوث أشياء معاكسة .

وكانت الدولة العثمانية ترى في الحركة بعض الفـائدة ما دامت لا تهدف لمعاكسة سياسة الدولة . ومع أن الدولة ربمـا استشعرت بعض التخوف من ابن السنوسي والتزمت الحذر ، إلا أن ذلك لم يمنعها من إبداء عطفهـا سياسة منها وتأليفاً له .

---

١ – انظر نص الرسالة بالكامل في السنوسي الكبير للأشهب ص ١٤٤ .

موقف العلماء منه

أما ما أورده المؤرخون عن موقف علماء استانبول والقاهرة من ابن السنوسي فإن تاريخ الحركة يدل على حدوثه ، ويشير إلى أن عـــدداً من اولئك العلماء وقفوا موقفاً شديداً منه . وقد سبق أن تحدثنا عن موقف علماء القاهرة منه في أول زيارة قام بها لمصر ، وعن موقف بعض علماء مكة منه ومن استـــاذه ابن إدريس وذلك لدعوتها إلى التمسك بالكتاب والسنة وفتح باب الاجتهاد .

وكان من الطبيعي أن يستمر هذا الموقف من ابن السنوسي بعد وفاة استاذه . وحدوث مثل هذا الموقف طبيعي في عصر اشتد فيه الخصام بين دعـاة التقليد ودعـاة الاجتهاد ، وهو طبيعي في كل آن لأنه يمثل النزاع بين القديم والحديث وبين المألوف والجديد . ولقـــد اشتد موقف أولئك العلماء من ابن السنوسي في آخر سني حياته بعد نجاح دعوته ونتيجة لازدياد أتباعـــه . وكان من أبرز معارضيه الشيخ محمد عليش صاحب الفتاوى المالكية وأحد علماء الأزهر الشريف. وقد أشار الإمام محمد عبده في كتابه « الإسلام والنصرانية » لهـذه العداوة في معرض حديثه عن عداوة علماء العصر للعلوم فقال : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيـــه بعض المسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له مـــا يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يخالف رأي مجتهد ومجتهدين ، فعلم بذلك أحـد مشايخ المالكية وكان المقدّم في علماء الجـــامع الأزهر ، فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بهـا لأنه خرق حرمة الدين واتبع سبيلاً غير سبيـل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه ، وإنمـــا الذي خلـّص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم عن سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقـاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكي » .

والاستاذ المالكي هذا هو الشيخ محمد عليش ، كما ذكر رشيد رضا ، وقـد

أورد شكري نقلاً عن دائرة المعارف أنه انبرى في عـام ١٨٤٣ لتكفير السيد السنوسي ونفي دعواه بعدم انقطاع الاجتهاد »[١] . وهنـــاك تفصيل لموقف الشيخ عليش هذا في كتابه «فتح العلي المالك فيالفتوى على مذهب الإمام المالك» المعروف بالفتاوى المالكية ، حيث أورد فيه عدة فتاوى تتعلق بابن السنوسي . من ذلك المسألة التي تقول : « ما قولكم فيمن كان مقلداً لأحد الأئمة الأربعة (ر) وترك ذلك زاعماً أنه يأخذ الأحكام من القرآن والأحاديث الصحيحة تاركاً لكتب الفقه مائلاً لقول احمد بن إدريس بذلك قائلاً إن كتب الفقه لا تخلو من الخطأ وفيها أحكام كثيرة مخالفة للأحاديث الصحيحة » . . .

وبعد أن يعدّد أقوالهم وأفعالهم يقول : « .. ومنها أن طائفة منهم نزلت ببرقة وبنت بها زاوية وجعلت لهـا حمى من البصر » ثم يتهمهم بالسرقة والقتل والكذب ويختمها بقوله : « فهل ما عليه هؤلاء الجماعة ضلال يجب الرجوع عنه والبادرة بالتوبة منه.. أفيدوا الجواب» [٢] . ويرد الشيخ عليش بجواب مسهب يدلل فيه على إغلاق باب الاجتهاد ويرفض بشدة اجتهادات السنوسي .

ويبدو أن مناقشات حاميـــة جرت بين الطرفين عن طريق الأسئلة إذ ترد بعد هذه المسألة مسألة أخرى يقدم لهـا عليش بقوله : « ثم ورد علي سؤال من هذه الشرذمة » ويذكر السؤال وهو : « الحمـــد لله الذي جعل الكتاب والسنة طريقة هذه الأمة وجعل العلماء الراسخين هداة هذه الأمـة ، أفتونا يا سيدي رضي الله عنكم في سدل اليدين في الصلاة هل هو من السنة وورد عن النبي (ص) فعله أو أمر به أو هذا اجتهاد من ابن القاسم الخ .. » .

ويرد عليش بمقدمة يهاجم فيها أصحاب البدع ، ثم يرد على مسألة سدل اليدين واصفاً السائل بقلة الأدب لتهجمه على ابن القـــاسم لأن في ذلك تهجماً على

١ ـ شكري ٣٦ .
٢ ـ عليش ، الفتاوى المالكية ص ٨٩ ـ الطبعة الثانية .

مالك[1] . ثم لم يلبث الموقف أن بلغ درجة عظيمة من التوتر ووصل درجة التهجم العنيف على ابن السنوسي لا يستغرب معها ما ذكره الامام محمد عبده من محاولة الشيخ قتله . ويبدو هذا التهجم في السؤال العنيف الذي وجه إلى الشيخ مصطفى البولاقي كبير علماء الأزهر ، وفي السؤال استصراخ « ما قول أهل العلم الذابين عن الشريعة المطهرة كل زائغ وآفك في رجل ظهر من أرض الحجاز إلى ناحية المغرب ومعه طائفة من الناس » ... ويلصق السائل بهذا الرجل وبطائفته كل نقيصة ... فجاء الجواب دليلاً آخر على ذلك التهجم حيث حفل بالقسوة والشدة ، بل واستعملت فيه ألفاظ غير مؤدبة وانتهى بالتكفير . ومع ذلك فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن ابن السنوسي لم يفاجأ بمثل هذه المواقف من بعض العلماء فقد ألفها وعرفها منذ أول عهده بالدعوة ، ولذلك فإنها لم تفت في عضده بل لعلها جعلته أكثر حذراً ودقة في اختيار مركز دعوته .

وجدير بالذكر أن هذه المعارضة لم تكن وقفاً على بعض علماء الأزهر بل أن ابن السنوسي جابهها في أماكن عدة . وقد عثرنا على رسالة يتبين منها قدوم عالم مغربي إلى بنغازي بعد وفاة ابن السنوسي مباشرة وقيامه مع أحد علماء بنغازي بالتهجم على السنوسية وصاحبها ، مما سبب نقمة الاخوان السنوسيين في بنغازي ودفعهم إلى الطلب من الحكومة إسكات الرجلين خوفاً من حدوث فتنة »[2] .

بعد هذا العرض لعلاقة ابن السنوسي بالدولة العلية ولموقف العلماء منه نعود إلى الحديث عن رأينا في أسباب تحوله إلى الجغبوب .

إننا نرجح أن فكرة اختيار مركز بعيد في جوف الصحراء وجدت عند ابن السنوسي منذ خروجه الثاني من الحجاز ، ولم توجد كرد فعل مباشر لموقف

---

١ – عليش ٩٥ وما بعدها .

٢ – دار المحفوظات .

الحكومة أو العلماء منه. ولقد أورد أحمد الشريف في رحلته ما يعزز هذا القول حيث ذكر بمناسبة سفر عمه المهدي إلى الكفرة حديث أحد الاخوان واسمه عقيلة الزوي عما جرى له مع ابن السنوسي قبل الانتقال إلى الجغبوب قال: « كنت مرافقاً للاستاذ (ر) في تغريبته الأخيرة ، ولما وصل إلى مصر سألني (ر) عن الجغبوب والكفرة وقال لي: هل بالجغبوب جبال بيض؟ قلت: نعم.. واستأذنته في الذهاب إلى سيوة وتركته في مصر وأمرني (ر) أن نأتيه في المحل الذي يكون مقيماً فيه، فلما سمعته قدم العزيات أتيته »[1] . فابن السنوسي يسأل عن الجغبوب وهو بعد في مصر ، ثم عندما وصل الجبل الأخضر اختار الاقامة بالعزيات الموجودة في السفح الجنوبي ولم يختر الاقامة في زاوية البيضاء مثلاً، وهو بذلك يريد التوغل لأنه يود اعتزال مواطن الحكومات حتى تكون له حرية العمل في تطبيق أفكاره ، ولأنه أيضاً يتوقع هجوم الأعداء ـ كما وضح من حديث للدرناوي ـ على الساحل، لذلك أراد أن يكون بعيداً حتى يتسنى لدعوته صد هؤلاء الأعداء . ويؤكد هذا الرأي ما قاله الاخوان لما حل بالجغبوب : « جعلنا بيننا وبين أعداء الله سبعة أصوار (أسوار) » .

أراد ابن السنوسي لتنفيذ عزمه على التوغل، أن يبدأ بدراسة أفضل الأماكن التي تصلح لأن تكون مركزاً للحركة ، لذلك بعث أثناء إقامته بالعزيات بمجموعة من الاخوان لدراسة موقع الجغبوب الذي يبدو أنه سمع من قبل عن جودته ، ففكر فيها تفكيراً أولياً منذ خروجه من الحجاز وسأل عنها عقيلة الزوي ـ كما رأينا ـ . ويذكر الأشهب أن الوفد المرسل كان قوامه عشرون شخصاً يرأسهم عمران بن بركة، وكانت مهمته التنقيب والبحث عن الموقع اللائق للمركز الجديد، كما يذكر أن الوفد عاد يحمل عينات من الماء والتراب والنبات ، وأن جميع أعضائه أصيبوا بالحمى في الجغبوب .

---

١ ـ احمد الشريف المخطوط ٢٨ .

وقد درس ابن السنوسي المعلومات التي وصلته وخرج من دراسته باختيــار الجغبوب[1] . وقد أورد أحمد الشريف عن عقيلة الزوي ما يؤكد قول الأشهب فقد قال عقيلة : « فلما سمعته قدم إلى العزيات أتيته ووجدت عنده أناساً كانوا بالجغبوب أرسلهم (ر) يرودون الجغبوب وقالوا له ماء مالح ، وهو ممر قطاع الطريق ولا فيه مصلحة لكم . فقال (ر)لا بد منه . وأمرني إذا ارتحل (ر) إلى الجغبوب أن نأتيه »[2] .

ويلاحظ من حديث عقيلة إصرار ابن السنوسي على اختيار الموقع بالرغم من تساؤل الاخوان عن الحكمة في هذا الاختيار واستغرابهم له . من ذلك أن أحد الاخوان قال لابن السنوسي: «أي حاجة لكم بهذا المحل فإن ماءه مالح وناموسه كثير» . فقال لهم :« نحن مأمورون بذلك ». وحكى لهم رضي‌الله عنه‌حكايات كثيرة منها ولادته وقراءته العــلم وجميع أحواله إلى ذلك الوقت وأنه مأمور ببناء الزوايا[3] .

ونقف قليلاً عند هذا الرد لنستدل منه على أسلوب ابن السنوسي في إقنــاع أتباعــه الذين كانوا يعتقدون بولايته . كما أنه هو نفسه كان يشعر بأنه مأمور . وقد حدثهم عن تاريخ حياته ليدلل لهم أن الله اختاره لأداء دور معين. وشعور ابن السنوسي هذا ينسجم مع طبيعته الميالة للروءى ومع صوفيته. وفي رأينا أن إصراره على اختيار الجغبوب إنما كان نتيجة اقتناعــــه الكامل بصواب نظرته وبصحة خطوته . وقد حدث هذا الاقتناع بعد دراسة وطول تفكير . وعلى أية حال فإن هذا الاختيار كان منسجماً مع وضعية الحركة. وقد تحدث أكثر من مؤرخ عن صحته وصوابه . من ذلك ما قاله أحمد حسنين « ولم يكن اختيــاره

---

١ – الأشهب السنوسي الكبير ص ٤٦ ،
٢ – احمد الشريف المخطوط ٢٩ .
٣ ـ احمد الشريف المخطوط ٢٩ .

للجغبوب اعتباطاً واتفاقاً ، وانما نظر في اختياره هـــذا بعين الحكمة والروية منذ قصد بانتخابها أن تكون مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية السلام بينهم جميعاً .. وكانت الجغبوب مركزاً أحسن اختياره ..» [1] كما قال بريتشارد « لم تكن الجغبوب مكاناً يصلح لحياة فخمة ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية . فهو خارج قبضة الترك والفرنسيين والمصريين ، وهو على خط الحج الرئيسي القادم من شمال افريقيـــا الغربي عبر مصر إلى مكة ، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجاري آخر من الساحل الى الصحراء إلى السودان ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإنهـــا كانت أكثر النقط توسطاً في برقة التي تشكل شبه جزيرة حتى أنه منهـــا يكون على مقربة من زواياه في برقة وطرابلس والصحراء الغربية في مصر والسودان » . [2]

انتقل ابن السنوسي من العزيات في آخر يوم من محرم ، ومر في طريقه على البطنان ونزل بالجغبوب في شهر صفر . وكانت الجغبوب « واحة غير مأهولة ، وماؤها مر ولا يكفي لسقاية أكثر من مساحة صغيرة من البساتين . [3] كما أن هواءهـــا ثقيل لانها تقع في واد تحيط بها الجبال . [4] وتتميز بموقع حصين لذلك اختارها قطاع الطرق لتكون مقراً لهم . [5] وكان العمل قد بدأ فيها قبـــل وصوله حيث شرع الاخوان في بنائها ، حتى اذا حل بها ابن السنوسي صار يشرف بنفسه على سير العمل . وقد أقيم فيها عدد من المباني الحجرية ، ففي وسطها كان المسجد والمدرسة ومسكن ابن السنوسي ويحيط بهذه الأبنية مساكن الاخوان والطلاب والعمال . وكان فيها أيضاً غرف للضيوف ، ومساكن للأرقاء [6] ، ومطابخ ، وآبار ،

---

١ – احمد حسنين في صحراء ليبيا .
٢ – بريتشارد ص ١٥ .
٣ – بريتشارد ص ١٥ .
٤ – الصادق المؤيد ص ٦٨ .
٥ – الاشهب ص ٤٦ .
٦ – لعل في الفقرة التي تبدأ بالسطر التاسع صفحة ١١٨ ما يلقي الضوء على هذه الكلمة .

وأفران وصهاريج الماء ، ومعاصر . »[1] ويحدثنا احمـد الشريف كيف جرى العمل في بنائها وينقل عن عقيلة الزوي توجيهات ابن السنوسي للاخوان أثنـاء العمل فيقول : « قال رضي الله عنه لسيدي عقيلة : أنتم جميعاً أم قسمتم؟ فقال : قسمنا. فقال : كل ثلث يعطي للزاوية ثلاثمائة ويغرس سبعمائة غرسة . وقـــال رضي الله عنه : انتم كم عرش فقال ستة عروش . فقال : كل عرش يخرج عشرة رجال الجملة ستون يحرسون الزاوية وفي العـام الذي بعده تبدل العشرة عشرة وهكذا،ويكون معهم خمسة أو ستة من الخيل تدور في البلاد بعد يوم أو يومين ويبنى السور ويكون مربعاً ويكون في كل جهة برج ـ وأشار بيده الشريفة إلى كيفية تربيعه ـ وتبنى الزاوية في وسط السور . وقال مخاطباً الحاضرين : الطير له عقل أم لا ؟ فقالوا: لا عقل له . فقال رضي الله عنه وهو لا يضع بيضه إلا فوق جبـل شامخ حتى لا يلحقه ذيب ولا ثعلب ولا غيرهما . وقـال : اليربوع له عقل ؟ فقالوا : لا. فقال (ر) : هو يجعل في جحره طرباقة وهي النافقاء فإذا دخل عليه الحنش خرج منها.وقال: تلقونها أحسن المحلات إذا اتى الحنش الأسود عليها من هنا ــ ورفع رأسه وأشار بإصبعه السبابة من الشرق الى المغرب .»[2] تبدو لنـــا من هذا الحديث مقدرة ابن السنوسي في التنظيم وفي التطبيق ، فهو ينظم ويشرف على التنفيذ ثم هو يدعو ويرشد ويتجلى ذلك في القسم الأخير من حديثه عندما تحدّث عن الطير واليربوع .. هذا ونستدل من حديثه على توقعه لغزو الأعداء . وتوقعه هذا هو الذي جعـله يفكر بالكفرة التي تقع في أقصى الجنوب بينما يؤسس الجغبوب . وقـــد ذكر عقيلة أن ابن السنوسي سأله مرة أثناء العمل عن الكفرة ثم قال: « لا بد لنا من زاوية فيهـا ، وان لم تقيموا بها (يقصد قوم عقيلة قبيلة الزوية) نجد الذي يقيم بها وهم اخواننا

---

١ ـ الأشهب ٤٧ ، بريتشارد ص ١٧ .

٢ ـ احمد الشريف، المخطوط ٣٠ .

البراعصة والعواقير [1] . »

تحولت الجغبوب بعد انتقال ابن السنوسي اليها من « واحة مالحة يأوي اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها » كما قال ارسلان « الى مهد أمان ومركز عبادة ومشرق أنوار . فغرس فيها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع في البناء وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء . » [1] ويجب أن لا نتوهم مع ذلك انها تجاوزت حدود قرية صغيرة . وقد ذكر بريتشارد أن عدد الاخوان والطلاب فيها كان عندما زارها الحشايشي أكثر من ثلاثمائة . كما ذكر الصادق المؤيد الذي زارها في عهد المهدي سنة ١٣٠٧ أن عدد سكانها كان لايزيد عن خمسماية من المقيمين دائماً يضاف اليهم خمسماية آخرين من غير المقيمين ينزلون بها لمدد مختلفة . [2] كذلك نوه عن الحقول التي تحيط بها وهي ملأى بأشجار النخيل وتزرع فيها الخضروات مثل البامية والملوخية والنعناع .

وابرز ما يلفت نظرنا في الجغبوب بعد انتقال ابن السنوسي اليها انها أصبحت مركزاً علمياً بفضل مسجدها ومدرستها ومكتبتها التي أسسها ابن السنوسي . ولا شك في أن هذا العمل منه يدل على مدى وعيه في أساليب الدعوة ، إذ أصبحت المدرسة مركزاً لتعليم مريدي الطريقة وتخريج الدعاة . ويبدو أن ابن السنوسي شعر بضرورة تدريب المريدين على الدعوة وتزويدهم بالثقافة اللازمة لأداء مهمتهم ولبناء شخصياتهم، كما رأى ضرورة توحيد مفاهيمهم وخصوصاً فيما يتعلق بالآراء التي ينادي بها . هذا ومن المتوقع ان يكون قد فكر في مشروعه هذا قبل قدومه الجغبوب بمدة حتى إذا ما استقر في

---

١ ـ ارسلان : ص ١٤١ .

٢ ـ بريتشارد ص ١٦ نقلاً عن دوفرييه. صادق المؤيد ص ٦٨ .

الجغبوب نفذه .

وإذا كان تأسيس مدرسة الجغبوب يدل على وعي ابن السنوسي فإن تأسيس مكتبتها يزيد في هذه الدلالة ويشير الى عقلية ابن السنوسي المستنيرة . ويجب أن نلاحظ أن الزمن الذي أنشئت فيه هذه المكتبة كان حوالي منتصف القرن التاسع عشر في فترة كان الجهل مخيماً فيهـا على أكثر ابناء العالم الاسلامي .. كما يجب ان نلاحظ أيضاً قيمة وجودها وسط صحراء جـل سكانها من البدو . وقد بذل ابن السنوسي جهداً عظيماً في تأسيسها وتزويدها بأكبر عدد ممكن من الكتب الثمينة . فكان يرسل الموثوقـين من الاخوان في بعثات لجلب الكتب الجيدة . وقد مر معنا انه أرسل محمد بن الشفيع إلى الصحراء الافريقية ومعه رسالة الى حاكم فزان من أجل إحضار بعض الكتب . وقد ضمت هذه المكتبة من المجلدات حوالي ثمانية آلاف ويذكر الأشهب أنها كانت تضم قسماً كبيراً من المخطوطات النفيسة ، وأن الامام لم يترك بلداً إسلامياً إلا واستجلب منـه الكتب . [1] وكانت هذه الكتب في مختلف المواضيع ففيهـا الفقه والفلسفة والتاريخ والأدب والتراجم والجغرافيا والحديث والتفسير . وقد أحسن عدد من الاخوان الاستفادة منها ونمت نتيجة لوجودها ووجود المدرسة الحركة الثقافية في ذلك المجتمع السنوسي . والحق أن ابن السنوسي كان كما يقول بريتشارد رجلاً واسع الثقافة وكاتباً بالاضافة الى كونه مولعاً بجمع الكتب [2].وإنه لما يؤسف حقاً ضياع جل هذه الكتب أثناء الاحتلال الايطالي . [3]

---

١ – الأشهب ص٤٧ .

٢ – بريتشارد ص ١٧

٣ – حدثني الملك ادريس كيف ضاعت هذه المكتبة . فذكر انه لما انتقل والده المرحوم السيد المهدي الى الكفرة نقل المكتبة معه حرصاً عليها . فعندما احتـل الطليان الكفرة استباحوها لمدة ثلاثة أيام وهجم الجنود على الكتب ، وكادت تضيع بكاملها لولا أن أحد الاخوان هناك نصح أحد المسؤولين الايطاليين ان تحفظ الكتب في =

بعد أن استقر ابن السنوسي في الجغبوب التفت الى نشر دعوته في افريقيا الوسطى . فقد فكر بالأقوام الافريقية الوثنية منذ اول شبابه وهز في نفسه تقصير المسلمين في تبليغها دعوة الإسلام ، وهديها الى الصراط المستقيم بينما يتوالى عليها المبشرون النصارى من كل جانب . ويرى بريتشارد أن تحول ابن السنوسي الى الجغبوب كان له صلة بتصميمه على تحويل التبشير بدعوته الى الجنوب . وذلك لأن جل سكان الصحراء من الوثنيين ولأن دعوته كانت بلغت حدها الأقصى في الانتشار في شمال افريقيا .(١) وهذا تفكير صائب لأن الاقوام الوثنية كانوا ارضاً خصبة لتزرع فيها السنوسية بذور الإسلام .

وقد عمل ابن السنوسي على الاستفادة من القبائل البدوية العربية التي تعيش في برقة وطرابلس وتتعامل في التجارة مع وثنيي افريقيا لنشر الدعوة هناك . وفي أثناء اقامته في الجغبوب قام بنفسه بالتجول في الصحراء الممتدة جنوبها وأمر بتأسيس عدد من الزوايا والآبار ، وهذا واضح من حديث احمد الشريف عن رحلة عمه المهدي حيث يذكر بعض الاماكن التي مروا بها والتي عرفها ابن السنوسي قبلهم. فهو يقول إنهم بعد خروجهم من الجغبوب «نزلوا بمحل يفترق منه درب السانية ، والسانية بير يسمونه العرب بهذا الاسم والاستاذ هو الذي أمر بحفره . (أي ابن السنوسي) . كما يذكر انهم مروا بقارة اطراد وأمامها محل

=متحف بنغازي أو اي مكان آخر ، فأعجب المسؤول بالفكرة وتم نقل الكتب الباقية إلى بنغازي . ثم نقلت عند قيام الحرب الثانية الى سلوق . وقبل أن يخرج الطليان شب حريق فيها يظن انه مدبر أتى على جزء آخر منها . هذا وقد بقيت منها كتب في مكتبة الاوقاف في بنغازي . ونقلت منها أخيراً الى مكتبة الجامعة الاسلامية في البيضاء . وقد اطلعت على مئات المجلدات الثمينة فيها وكلها مختومة بختم ابن السنوسي والمهدي .

١ - بريتشارد ٢٤ .

منخفض قال فيه الاستاذ الجد: « أن هذا المحل ماؤه قريب ومن عنده تنعطف الطريق للغرد من جهة اليسار . » (الغرد هي الرمال الكثيرة) . ثم هناك ثنية الحلفاية ووادي قطمير وفيه زاوية أسسها ابن السنوسي وعمـــل في بنائها اثنان من الإخوان أحدهما من الحجاز والآخر كان ملازماً لابن السنوسي ، ثم هناك زاوية تازربوا وهي اول وادي الكفرة وزاوية الجوف وقد أمر ببنائها وقال هي المقصود ويأتي فيها الخير الكثير . [1] وقد سبق أن ذكرنا ان ابن السنوسي أثناء بناء الجغبوب كان يفكر في بناء زاوية بالكفرة وأنه حدّث عقيلة الزوي وطلب منه ان تكون قبيلته زوية هناك ، وقد تحقق ذلك . كما عملت هـــذه القبيلة التي كانت على معرفة بقبائل الصحراء الوثنية في نشر الدعوة وعملت معها قبيلة المغاربة فحققوا نجاحاً لا بأس به .

وانتشرت السنوسية في تلك المدة في واداي على يـــد اميرها محمد الشريف الذي تعرف على ابن السنوسي وصادقه أثناء إقامته الاولى في مكة . ثم عندما اصبح محمد الشريف سلطاناً عام ١٨٣٨ قام بنشر الدعوة في بلاده . كذلك عمل ابن السنوسي بذكائه على إعداد عدد من الزنوج للتبشير في الصحراء بين القبائل الوثنية . ويذكر أكثر من مؤرخ أنه اشترى قافلة من العبيد كانت في طريقهـا من واداي الى الجغبوب فحرر أفرادها وقام بتدريسهم في الجغبوب ثم اعادهم لبلادهم فكانوا خير داعين [2] .

ولم يقتصر توسع الدعوة على الجنوب بل شمل أيضاً ليبيـا والحجاز . ففي ليبيـا تم إنشاء عدد من الزوايا في مصراته واورفلة ومزدة وحرابة ومرزق وزويلة وقطرونه . ، وكان يشرف على كل زاوية واحد من أفاضل الاخوان. أما في الحجاز فيذكر المؤيد أنه « زاد عدد الزوايا بعد انتقال الشيخ الى افريقيا بفضل نشاط وكلاء الزوايا . من ذلـك زاوية في رباح على ساحل البحر الأحمر . وزاوية في وادي فاطمة على بعـــد ثلاثين كيلومتراً من مكة، وزوايا المضيق

١ ـ احمد الشريف، المخطوط .
٢ ـ انظر دوفريه ١٩٠١٨، شكري ٣٩ .

وأصفان وايان في وادي الرباح . »[1] وقد كان ابن السنوسي على صلة مستمرة بوكلاء هذه الزوايا .

استقدام ولديه من الحجاز

وعمل ابن السنوسي أثناء إقامته في الجغبوب على استقدام ولديه محمد المهدي ومحمد الشريف من الحجاز حيث كانا يتلقيان العلم . فلما حل ابن السنوسي بالجغبوب « أمر أحد الإخوان وهو السيد عبد الرحيم – كما يروي احمد الشريف – بالرجوع الى الحجاز في تلك السنه للاتيان بالسيد المهدي . فتوجه سيد عبد الرحيم وحج وخرج بالسيد المهدي من مكة الى جدة في آخر ذي الحجة (من سنة ١٢٧٣) ونزل في بيت مصطفى فاضل الحضرمي وهو تاجر محب للاستاذ محبة قوية .. وارتحلا من جدة قاصدين السويس في مركب شراع ولم يتيسر لهم ريح يسير بها فوصلوا طور سيناء على خمسة وعشرين يوماً من جدة بعد أن مرا على الوجه وحوراء . ثم نزل الاستاذ العم ومعه سيد عبد الرحيم وسيد محمد الغماري بالطور ليسافروا براً الى السويس .. ثم اتجهوا إلى سيوة وانضم اليهم ركب من حجاج سيوة العائدين . ثم وصلوا الجغبوب ولاقاهم الاخوان الذين بها صحبة الاستاذ بالبارود والفرح والسرور والاستاذ واقف على السطح ينظر اليهم . . ثم دخل العم على الاستاذ الجد رضي الله عنه فوجده جالساً على سريره مبتسماً فسلم على يديه وركبته فسأله عن حاله وحال قراءته فاجابه بطيب الحال وحفظه القرآن فازداد سروراً... وكان ذلك في شهر المولد من سنة ١٢٧٤.»[2]

كان اهتمام ابن السنوسي بابنه المهدي عظيماً ، وكان ينظر اليه لا باعتباره ابناً فحسب بل بوصفه معقد آماله في متابعة حمل الدعوة من بعده . ويلاحظ ان

---

١ ـ الصادق المؤيد ص ٧٥ .

٢ ـ احمد الشريف المخطوط ٨٦ .

ابن السنوسي كان في ايامه الأخيرة شديد الاهتمام بتدبير أمر الدعوة لتستمر بعد وفاته . وقد وصل نتيجة دراسته للأوضاع السائدة بين المريدين الى ان المهدي سيكون خليفته المرضي عنه منهم . ولكن حيث ان المهدي كان صغيراً ، قد تقف سنه عقبة في تسلمه رئاسة الحركة لذلك شعر ابن السنوسي بضرورة ابرازه بينهم وتعزيز مكانته . وقد ظهرت في تلك الفترة أقوال في مهدويته ، ينسب أكثرها لابن السنوسي نفسه . ممـــا يدل على أن ابن السنوسي قال في آخر سنوات حياته بمهدوية ابنه المهدي . وقد نقل احمد الشريف عنه انه قـــال « لي ثلاث سنوات وانا عائش في ظل المهدي[1] » . كما قال في مرضه الأخير « ما خرجنا من الدنيا إلا استحينا من نور المهدي[2] » . وعندما سألته زوجته لمـــاذا اسمى ابنه المهدي قال : « نرجو الله ان يكون هو الإمام المنتظر »[3] . ويفهم من كلام احمد الشريف ان هذه الفكرة وجدت بذورها عنـــد ابن السنوسي قبل ولادة المهدي وإبان اقامة ابن السنوسي الأولى في الحجاز فهو يحكي « أنه كان جالساً ذات يوم مع عثمان المرغني فحلف له بالطلاق ان سيد احمد بن ادريس هو الامام فنهاه الاستاذ (ابن السنوسي) عن الخوض في ذلك فتغير المرغني من هذا النهي . فقال رضي الله عنه الآن يمشي لسيدي احمد يكدر خاطره عليّ فأرسل بالمشي الى سيد احمد قبل ان يسبقه المرغني . فحكى له ما جرى فقال سيد احمد الامام اسمه محمد وانا اسمي احمد والامام المهدي صغير السن وانا اليوم جاوزت السبعين لكن هو من جماعتنا »[4] . ثم يحكي احمد الشريف عن سيد محمد شمو « ان سيد احمد بن ادريس قال لو يعلم الناس السر الذي في اخينا محمد بن السنوسي لتضاربوا عنـــد بابه بالسيوف من اجل المزاحمة في الدخول . ثم قال السر الذي

---

١ – أحمد الشريف المخطوط ٨٧ .
٢ – « « « ٨٧ .
٣ – « « « ٨٨ .
٤ – « « « ١١٨ .

يعنيه هو السيد المهدي»[1]. فهذا الذي يحكيه أحمدالشريف يدل على ان التفكير في مسألة المهدي كان موجوداً عند الناس في تلك الفترة ، وأن ابن السنوسي فهم من اشارات استاذه أن المهدي سيكون من ابنائه . واغلب الظن انه تعهد هذا الحلم في نفسه لأسباب كثيرة تابعة من تحرقه على استمرار الدعوة ونجاحها ، فنتج عن ذلك اعتقاده في صحته . هذا بالاضافة إلى انه رآه وسيلة جيدة لرفع منزلة ابنه في نظر الاخوان ، وتشجيعه للقيام بدوره . ولو أننا نميل استناداً لما رواه أحمد الشريف إلى القول بأن جانب الاعتقاد في مهدوية المهدي كان كبيراً عند ابن السنوسي . ومع ذلك فإن المهدي فهم قول أبيه على أنه مجرد تشجيع . وقد أورد أحمد الشريف في معرض حديثه عن المصافحة حديثاً رواه عن عمه المهدي قال « ورواية المصافحة أن سيدي الوالد صافح الإخوان سنة خمس وسبعين بعد المئتين والألف يوم عيد الفطر . ولم أقدر على طلبها حياء منه رضي الله عنه ، واستصغاراً لسني ومرتبتي عن ذلك . فدخلت عليه وصرت أكبس اليدين الشريفتين ولما وضعت يدي على اليد الشريفة نويت بها المصافحة فتكلم إذ ذاك رضي الله عنه بكلمة لا يعتقد صحتها على ظاهرها إلا من لا يملك أدنى عقل قائلاً مخاطباً لمن كان معي : نحن من جماعة المهدي وهو أعلى منى مقاماً عند الله . فقال له الحاضرون : أهو من جماعتك أم أنت من جماعته ؟ قال رضي الله عنه : بل نحن من جماعته » ويعلق المهدي « وأنا ساكت خجل وكانت أيام شتاء وما قمت من بين يديه الا وثوبي قد ابتل عرقاً من الحياء ولا شك أن هيبته كلها فيما يعود نفعه على المسلمين ومثل ذلك من يريد ادرار ناقته فيوقف لها براً لتدر الحليب ثم قال : إن الاستاذ (ر) هذه عادته مع القاصرين ينهضهم بمثل هذا القول ولو تركهم على ما يرى الناس من حالهم كانوا شيئاً لا يعبأ به ولكنه أعلى الله مقامه يعلي مقام من لامقام لهحتى يتوهم الانسان في نفسه ويتوهم فيه غيره من المغفلين انه في هذا المقام . وكنت كلما سمعت منه شيئاً مثل هذا أقول يريد

---

١ - احمد الشريف المخطوط ١١٩ .

رضي الله عنه اختبار عقلي »[1] فهذا الحديث يقطع بأن المهدي لم يأخذ الكلام على ظاهره ، وانه فهم غرض والده منه على انه يريد رفع منزلته وإعلاء مقامه بين الاخوان وتشجيعه .

شعر ابن السنوسي في السنة الأخيرة من حياته بقرب أجله فاهتم باستقدام ابنه الثاني محمد الشريف من مكة فأرسل إليه من يأتي به . ويبدو من رسالة له تاريخها ١٣ محرم ١٢٧٥ أنه نوى السفر بنفسه إلى مكة في تلك الفترة لوصول أخبار سيئة عن مكة وعن طرابلس وجاء في الرسالة قوله : « غير أنه وردت علينا أخبار عن ناحية طرابلس بأنهم في خوف شديد أمن الله روعة المسلمين ، وأيضاً بلغنا من ناحية العقبة أخبار بأن مكة أخذت ومنع الحجاج من الحج ولا ندري هذا صحيح أم لا. وحيث سمعنا بهذا لا يسعنا إلا التوجه لتلك الناحية لكون الأهل والعيال هناك . ولا ندري إذا كان الأمر صحيحاً من الآخذ لها المسلمون كعسير ولاّ النصارى نسأل الله أن يجعل ذلك كذباً »[2] . ويظهر انه تبين عدم صحة هذه الأخبار لذلك اكتفى بإرسال من يأتي بابنه .

« وخرج محمد الشريف في ركب عظيم من أشراف مكة قاصدين المدينة ثم التوجه إلى ينبع ومنه إلى الحوراء ، فلما وصل بدراً أخذ غدرية صغيرة وصار يحرك فيها فانطلقت منها رصاصة أصابت كتفه فأتوا بالأطباء .. فأخرجوها بوضع الأمواس في النار حتى تحمرّ ثم يقذفون بها .. ومكث ببدر مريضاً أربعة أشهر .. وأرسل الاخوان الذي معه اجوبة لوالده يخبرونه بما قدره الله وقضاه من الاصابة بالرصاصة ببدر وأنهم مقيمون معه ومجتهدون في معالجته .. وأرسلوا له الرصاصة التي أخرجوها من كتفه .. »[3] وهكذا اضطر الركب للتأخر . ثم أرسل إليهم ابن السنوسي بعد انتظار قصير بالقدوم وكانوا بالحوراء على شاطىء

---

١ – أحمد الشريف ، الأنوار القدسية ٣٢ .
٢ – مجموعة الشيخ منصور المحجوب . الرسالة موجهة من ابن السنوسي لمصطفى المحجوب .
٣ – احمد الشريف المخطوط ٨٩ .

البحر الأحمر في آخر رمضان .. فارتحل محمـــد الشريف منها ثاني من شوال وركب البحر إلى بلدة صغيرة تسمى الوجه ثم رجـع إلى البحر ونزل بالقصير ومنه مشى بالبر إلى أن وصل بحر النيل ومنها سار إلى سيوة ومنها إلى جغبوب.. وفي أثناء ذلك كان ابن السنوسي متشوقاً لرؤيته يقول لأصحابه « ابطأ علينـا هـذا الولد » ويبين سبب استعجاله في استقدامه فيقول « نحن مرادنا نجمعهما (ولديه) ونتركهما مع عمران يقرأون العلم ونسافر ..» وقـد عنى بالسفر الموت والانتقال إلى الحياة الأخرى . « ووصل محمد الشريف الجغبوب في آخر يوم من ذي الحجة سنة خمس وسبعين ومعه جمع كثير من أهل سيوة .. » وأخبر ابن السنوسي بوصوله . وكان ذلك اليوم يوم فرح وسرور انطلقت فيه البنادق . ودخل الابن على أبيه فقبل راحتيه ورأسه ورجليه [1] .

ومرض ابن السنوسي فزاد شعوره بدنو أجـله . ويلاحظ انشغاله في تلك الفترة على مسألة خلفه وحرص على الاطمئنان حولها . ويروي أحمد الشريف عنه انه قال في مرضه الأخير « الصدر .. ملآن .. أين نفرغه .. وكان أحمد الريفي أمامه فقال : ياسيدي، هل هو سيدي المهدي ؟ فقال له : لا .هذا غني عنافما لنا عليه جميل فقد اعطاه الله ورسوله ». [2] وعمل ابن السنوسي على التمهيد لخلافـة ابنه المهدي له بين القبائل المختلفة ورأى منهم استجابة . وقد قال لبعض العرب مرة « مرادنا السفر والذي نخلفه لكم هل تسمعون كلامه أم لا ! فقـال له : يا سيدي إذا كان من أولادك الناس كلهم تتبع وإذا كان من أولاد الغير ففينـا من يتبع وفينا من يخالف . فقال رضي الله عنه : هـذا المحل لا يزال عامراً بأبناء الصلب والصدر إلى يوم القيامة » [3] .

واشتد عليه المرض الذي أصابه في شهر شعبان ١٢٧٥ حتى صار يغيب عن

---

١ - احمد الشريف المخطوط ٩١ .
٢ - « « « « « ٩١ .
٣ - « « « « « ٩٢ .

احساسه ، وكان يقول « أهل الله حملونا شيئاً كثيراً لو نزل على الجبال الراسيات لما اطاقته »[1] ثم ارتفع بعض ذلك المرض منتصف محرم عام سته وسبعين ثم تزايد عليه الألم والأسقام وصار يغيب احياناً ويفيق احياناً إلى ان دعاه مولاه يوم الاربعاء تسعة من صفر الخير بعد طلوع الشمس[2] » . وهكذا انتقـــل ابن السنوسي الى جوار ربه .

وقبل الدفن اجتمع الاخوان في المسجد يوم الخميس وقام فيهم عمران بن بركة خطيباً فألقى كلمة جامعة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد .. فأصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدى هدي سيدنا محمد (ﷺ) وشر الامور مستحدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

حمداً لمن قضى على جميع العباد بالموت وسدد سهمه للإصابة في جميع الوقت فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص ولا محيد عن الوقوع في شركه ولا خلاص، فلم ينج منه أمير ولا وزير ولا غـــني ولا فقير ولا شريف ولا وضيع ولا دني ولا رفيع ، حكم بذلك على سائر رسله وانبيائه وأهـل حضرته من أصفيائه وأوليائه وعلى الموت نفسه بعد ابقـــاء المقادير بالموت فلا محيد عنه ولا فوت وجعله منة يفتدى بها من امرار الاكدار وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار ، وصلاة وسلاماً دائمين مصحوبين باهداء كال الرحمة في كل وقت وحـين الى قطب دائرة الأنس وترجمان حضرة القدس محمـــد المحمود في رياض تلك الحضرات والموصوف بأوصاف الكمالات في جميع الارض والسماوات وعلى آله الأخيـار واصحابه الأطهار وبعد :

فلما منّ الله على أهل هذا القرن الثالث عشر الذي هو من شر القرون

---

١ – احمد الشريف المخطوط ٩٣ .

٢ – » » » » » .

الموعود بشدة الفساد والجهل والفتون حتى تعوذ منه السلف الصالح أن يدركوه ومع مالديهم من العلم والتقى خافوا الفتنة بعث سلالة نبيه وخليفته على أمته في عصره المبشر بالسلامة والنجاة من اقتدى بمثله وبأذياله تعلق ، بدلالة قوله عليه السلام « أهل بيتي كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق » ألا وهو حافظ العصر وقطبه وخلاصة الدهر وفجره شيخ الاسلام وخاتمة الأعلام انسان عين الوجود وبدر السعود المتبرك به شرقاً وغرباً والمتخذ حبه وسيلة وقرباً ذو المناقب الفخيمة الذي تضيق عن حملها الدفاتر ويعجز عن ضبطها كل بليغ ماهر ، مُعني الزمان على الاتيان بمثله ومحنث الحالفين بظهور شبهه كما قيل :

حلف الزمان ليأتين بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

استاذنا الأعظم وملاذنا الأكرم وولي نعمتنا الأفخم أبو المكارم فيض الفتح القدوسي سيدي ومولاي سيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الأدريسي رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة منزله ومثواه وجعلنا ممن أحبه وولاه بحرمة نبيه ومصطفاه ﷺ وكرم وعظم . فحيث سبقت له من الله سابقة السعادة وخص من بين أقرانه بالفضل والسيادة وتوجه بتاج المجد والمهابة وأسرى به لسماء العرفان وراثة لجده سيد ولد عدنان فأخلع عليه خلع الرضوان وأسرى به لسماء العرفان وأكرمه بلطايف الإحسان وأتاه الأذن الجازم في إرشاد الأنام وأخذ منه العهد والميثاق في ذلك وأخاف على نفسه من إصابة الفتنة إن لم يسلك تلك المسالك فلم يسعه إلا المبادرة لأمر الحكيم العليم . قال عزمن قائل : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . فقام رضي الله عنه مشمراً عن ساق الجد لتبليغ ما عهد إليه وتعليم العباد من علوم مالديه وإيقاظهم من الغفلات وانقاذهم من الحفر النارية والورطات لسبل السلامة والخيرات ، فارتكب الأخطار وكابد مشاق الأسفار لأجل إصلاح البلاد والعباد وارشادهم إلى طرق السداد والرشاد فلم يركن إلى ما فيه راحته وهناه إيثاراً لطاعة مولاه على هواه فصار يجدد معالم الدين ويحيي آثار سيد المرسلين حيث ما حل ، كأنه

في تعمير البقاع الميتة والقفار الخالية ودق إذ هطل فكفل رضي الله عنه الملة الاسلامية بعد تيتمها ونشر أعلام الحنيفية بعد انطوائها فتجددت بحمد الله الطريقة المحمدية والسيرة الأحمدية بعد انطماس آثارها وخبو أنوارها في جميـــع الأقطار . وطلعت شمس هديه في سماء العقول فاضمحلت الاغيار ، وشاع ذكره في الآفاق شيوع الشمس رابعة النهار ، وخلف في غالب الأقطار سيما الحرمين الشريفين وغيرهما من القرى والمدن والأمصار من ينوب في إيصال الخير إلى أمة النبي المختار بتعليم الكتاب والسنن والآثار ، فلما نجز الأمر الموعود ونفذ الأجل المحدود نزل به رسول سيده ومولاه وعلم انه لا بد من الاجابة للقاه . والحال انه رضي الله عنه توالت عليه فيوض تجليات الأحسن من فيض مواهب الامتنان وامتزج الجمال بالجلال من عظيم سطوات تجلي ذات الملك المتعال ، مصحوباً بالتأييـــد والرعاية والتسديد وكثرت الآلام بفيوض رضوان الملك العلام آوى إلى كهف الامتثال للآمر بالوصية في ذلك وان كان دأبه ذلك ولم يزل عليه ولا يزال وهو قوله عليه السلام : ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصية مكتوبة عنده ، فهرول لنيل سره وأوصى جميـــع مريديه وآله ومن تعلق بأذياله بالاشتغال بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله وأصحابه ، والعمل بها في الجليل والحقير والقليل والكثير ، وملازمة التقوى والديانة والمثابرة على العبادة وحفظ المروءة والصيانة والاخلاص في كل الأعمال والتجافي عن اتباع الهوى وسيىء الخصال. قال رضي الله عنه : لا شيء أوصي عليه لهم عندي من ذلك ، فهو عين مطلبي ومأربي ومقصدي ومرغوبي وديدني في حركتي وسكني ولم أزل عليه في يومي وأمسي ولا أزال عليه إلى حلول رمسي متمثلاً بلسان حاله وقاله بقول الشاعر :

أهيم بسعدى ما حييت وإن أمت   أوكل سعدى من يهيم بها بعدي

راضياً رضي الله عنه بجريان الأقدار سارحاً في بحار الرضا في كل جزء من أجزاء الليل والنهـــار متلذذاً بذلك غايباً عن الشعور لآلام التي هنالك متمثلاً بقول الآخر :

يا من يبشرني بقرب لقـــاء أعطيه من فرط السرور رداء

جزاه الله عنا وعن كافة أمة النبي خيراً .

اللهم روح روحه وقدس سره ونور ضريحه وطيب مضجعه وعطر شعره وأعل درجته وضعف حسناته وكثر مثوبته . اللهم افض عليه من برك ولطفك وجودك وكرمك وانعامك ورحمتك وإحسانك وامتنانك وافتح عليه أبواب جنانك وأنزله في سرادقات عزك وحضائر قدسك وزوايا انسك مع الذين أنعمت عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين . ونسألك اللهم بالوسيلة العظمى سيدنا محمد ﷺ أن تجعل ثواب ما قرأناه وبركة ما تلوناه في صحيفته ، وتدخل ذلك عليه بالروح والريحان والمغفرة والرضوان ، واجعله بزيادة الرضا منك عليه . وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجـله الطاهر وفرعه الزاهر وارثه الماهر ، سيدي ومولاي السيد محمد المهدي وصنوه المنيف وشقيقه سيدي ومولاي السيد محمد الشريف ، ويجبر بهما صدع الدين ويلم بهما شعث المسلمين ويصلح بهما افئدة الاتباع والمريدين انه ولي ذلك والقادر عليـه . وارض اللهم عن شيخه وشيخ شيخه وكافة مشائخه وآبائه واجداده وكافة الأولياء من عبادك وزدهم شرفاً وتعظيماً . اللهم انا وقفنا ببابهم متوسلين بهم إليـك في قضاء حاجاتنا ومهماتنا وانجاح طلبتنا وكفاية الشياطين من الجن والإنس ... وإزالة المحن عنا وحصول المنن ، وكفاية اذية الظالمين والمتمردين والمعاندين واختم بخاتمة الخـــير آجالنا فلا تخيبنا من نيل ما نرجوه ونؤمله ولا تردنا صفر اليد وانجز آمالنا فاقبل جميـــع مسائلنا واجعلنا محفوظين ببركتهم ملحوظين بعنايتهم مكتوبين في ديوان عبادك الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . واغفر لنا ولوالدينا ولمشائخنا ولإخواننا ولكل من حضر مجلسنا وأمن على دعائنا ولكل من أحسن إلينا وللمؤمنين والمؤمنات انك مجيب الدعوات . ربنـــا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا

ربنا انك رؤوف رحيم . ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير . وصل اللهم على عين فخر الحقائق الوجودية المطلقة اللاهوتية ومنبع الدقائق اللطيفة المفيدة الناسوتية سورة الجمال ومطلع الجبال مجلى الألوهية وسر اطلاق الأحدية عرش الاستواء الذات وجه محاسن الصفات مزيل برقع حجاب ظلمات اللبس بطلعة شمس حقيقة كنه ذات الأنفس عن وجه تجليات الكمال الإلهي الأقدس كتاب مسطور جمع أحدية الذات الحق في رق منشور تجليات الشؤون الإلهية المسمى كثرة صورها بالحق جانب طور الحقائق الروحية الأيمن المكلم منه موسى النفس بأنا الله لاإله إلا أنافي حضرة القدس يا كامل الذات يا جميل الصفات يا منتهى الغايات يا نور الحق يا سراج العالم يا محمد يا أحمد يا أبا القاسم جل كمالك أن يعبر عنه لسان وعز جمالك أن يكون مدرك الإنسان وتعاظم حنانك أن يخطر في جنان صلى الله سبحانه عليك يا رسول الله يا مجلي الكمالات الألهية الأعظم . اللهم صل عليه وعلى آله وأزواجه وذريته بكمال أحدية ذاتك وصفاتك وصل على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين واحشرنا معهم يا أرحم الراحمين . اللهم اجعلنا من المستسلمين إليك الواقفين بين يديك الدائمين في طاعتك وطاعة رسولك اللهم إن كنت لنا قبل أن نكون لأنفسنا فكن لنا بعد وجودنا كما كنت قبل وجودنا وألبسنا ملابس لطفك وأقبل علينا بحنانك وعطفك وأخرج ظلمات التدبير من قلوبنا وأشرق علينا نور التفويض في أسرارنا واشهدنا حسن اختيارك لنا حتى يكون ما تقضيه فينا وتختاره أحب الينا مما نختاره لأنفسنا . اللهم كما تفضلت علينا بجودك وكرمك وإحسانك بالإيمان بك وبرسلك وبمعرفة هذا السيد العظيم وصحبته والدخول تحت ولاية نظره وحجره فأتمم علينا ذلك برضاك الأكبر الذي لا سخط بعده وبغناك التام الذي لا فقر بعده وبعزك الدائم الذي لا ذل بعده وكن لنا ولإخواننا حيث ما كنا وحيث ما حلوا واغفر لنا ولهم ولوالدينا ووالدهم ولجميع المسلمين وانصر ولاة الأمر من المسلمين واهدنا وإياهم لاتباع سيد المرسلين واجعل دائرة السوء على اعدائك الكافرين وانصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين عليهم يا خير الناصرين

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»[1].

وتتبدى من هذه الكلمة نظرة اتباع ابن السنوسي إليه ، فهو — كما رأوه — مرشد أرسله الله لإرشاد الأنام في عصر اشتد فيه الفساد والجهل والفتون ، ومجدد لمعالم الدين لم يأل جهداً في القيام بدوره فنشر دعوته في القرى والأمصار وترك من ينوب عنه في إيصال الخير إلى الناس. وقد جاء وهو من نسل الرسول ليدعو إلى التمسك بالكتاب وسنة الرسول .

ويمكننا أن نلاحظ من حديث ابن بركة عن القرن الثالث عشر شعور الناس بفساد العصر وخوفهم من فتنة وتطلعهم لمرشد يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل . كما يستبين لنا من حديثه عن وصية ابن السنوسي الأساس الذي قامت عليه الحركة وهو الاشتغال بكتاب الله وسنة الرسول . ويبدو من الدعاء لولديه محمد المهدي ومحمد الشريف أن الاتباع نظروا لهما باعتبارهما معقد الآمال في اتمـــام العمل الذي بدأه أبوهما .

---

١ ـ أحمد الشريف ، المخطوط .

الفصل الثالث

شخصية ابن السنوسي وأفكاره

لفهم الحركة السنوسية ينبغي علينا فهم أفـــكار ابن السنوسي . والسنوسية تتألف من شقين : الفكرة والطريقة ، وكلاهما تابع من شخصيته .

ولقد ألف ابن السنوسي عدداً من الكتب ضمنها آراءه في عدد من المواضيع، ودراسة هذه الكتب تفيدنا في معرفة أفكاره وفهمها . وهذا ضروري لفهم الحركة السنوسية .

كتبه

لا نستطيع أن نحصر بدقة عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي ، ذلك أن بعضاً منها طبع ، وبعضاً آخر لايزال مخطوطاً ، كما أن بعضها الثالث فقد . وإن من المهم جمع هذه الكتب وحصرها لأخذ فكرة دقيقة عـن صاحب الدعوة السنوسية . وقد قام الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة بإجراء بحث عن « سيرة السنوسي الكبير وفقد المصادر »[1] تناول فيه حصر مؤلفاته فخطا في ذلك خطوة كبيرة ، نستشعر فائدتها عنـــد ملاحظة اضطراب مؤرخي السنوسية في ذكر الكتب التي ألفهـــا ابن السنوسي . فزيادة يذكر أن « السنوسي الكبير كتب تسعة كتب أحدها كان شعراً . »[2] ويذكر الأشهب لابن السنوسي ثمانية كتب مطبوعة وتسعة لم تطبـع . [3] اما شكري فيذكر اسمـــاء خمسة كتب مطبوعة وثلاثة لم تطبـع . [4] وهذه الأعداد الثلاثة التي وردت تقل كثيراً عن

---

١ ـ نشر البحث في مجلة كلية الآداب في الجامعة الليبية المجلد الاول ص ١٨٩ .

٢ زيادة ص ٧٣ .

٣ ـ الاشهب، السنوسي الكبير ٨١ .

٤ ـ شكري ص ٤١ .

العدد الذي أورده اسماعيل باشا البغدادي في كتابه « هدية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين » حيث نسب لابن السنوسي خمسة وثلاثين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ذكر اسماءها .[1] وهذا الاختلاف بين الأعداد الثلاثة الأولى وبين العدد الأخير ناجم عن ضياع عدد من المؤلفات أثناء هجوم الإيطاليين على الكفرة ونتيجة لاحتراق المكتبة في سلوق.[2] وقد بدأ الملك ادريس حفيد ابن السنوسي بطبع الكتب التي وقعت في يده من تأليف جده سنة ١٩٣٠ .

حصرها

وعلى أية حال فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسي هي :

١ – كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة الراصد .
مطبعة المعاهد بالقاهرة : آخر ١٣٥٣

٢ – السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين . وهو بهامش الكتاب السابق .

٣ – إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن .
الطبعة الأولى ١٣٥٧ – ١٩٣٨ مطبعة حجازي القاهرة .

٤ – المنهل الروي الرائق في أسانيد العلم وأصول الطرائق .
الطبعة الأولى ١٣٧٣ – ١٩٥٤ مطبعة حجازي القاهرة .

٥ – الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية .
الطبعة الأولى ١٣٤٩ . مطبعة الشباب القاهرة .
الطبعة الثانية ١٣٧٣ . « « « .

---

١ ـ انظر المجلد الثاني من الكتاب ص ٤٠٠ .

٢ ـ تحدثنا في هامش ص ١١٦ الفصل الثاني عن كيفية فقدان أكثر أجزاء المكتبة . وقد ذكر الملك أن ما وقع في يده من كتب جده وقع بعضه صدفة . كما سألته عن رأيه في العدد الذي اورده البغدادي فقال إنه كبير .

٦ – رسالة المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية

١٣٥٧ مطبعة الشباب القاهرة .

٧ – رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك .

الطبعة الأولى ١٣٧٤ مطبعة الشباب القاهرة .

٨ – شفاء الصدر بأري المسائل العشر [١] (الأري : العسل)

١٣٦٠ المطبعة المحمودية القاهرة

أما الكتب التي لم تطبع وورد لها ذكر في الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها فهي :

١ – الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغاربة والمشارقة . ورد ذكره في « المنهل الروي » صفحة ٦ ويسميه ابن السنوسي « فهرستنا الكبرى ». وورد ذكره أيضاً في هدية العارفين تحت اسم « الشموس الشارقة في تراجم مشايخي المغاربة والمشارقة . »

٢ – البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة . ورد ذكره في (المنهل) صفحة (٦) وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة . وورد في هدية العارفين بعنوان « البدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة .

٣ – الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية . ورد ذكره في «المنهل » صفحة ٧ . وورد في هدية العارفين بنفس العنوان مجرداً من «التعريف ». وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التي درسها ابن السنوسي وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم . وقد ذكر مؤلفه ابوابه في كتابه « المنهل » باعتباره سار على نهجه في تأليفه ».

٤ – سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد : ورد ذكره في « المنهل » وفي هدية

١ – كل هذه الكتب ذكرها الاشهب في السنوسي الكبير ص ٨١ . وذكر الدكتور شميرة ستة منها،ص ١٩٦ .

العارفين . وموضوعه فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسي.

ويورد الأشهب بالاضافة الى ثـــلاثه من هذه الكتب (لا يذكر الكواكب الدرية) اسماء كتب أخرى لم تطبع وهي :

٥ - رسالة جامعة في أقوال السنن وأفعالها . وهي منظومة وتوجد - كما يقول الأشهب - بمكتبة الملك . ولا يرد لها ذكر في « هدية العارفين».

٦ - هداية الوسيلة في اتباع صاحب الوسيلة . وهي منظومة وتوجد بمكتبة الملك . وقد وردت في « هدية العارفين » .

٧ - طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة. ويذكر الأشهب أنه لم يقف عليه وإنما يستدل وجوده بورود ذكره في احد كتابات ابن السنوسي وعلى ألسنة كثير من الاخوان . ولا يرد له ذكر في « هدية العارفين » .

٨ - رسالة شاملة في مسألتي القبض والتقليد . ويقول الأشهب انها موجودة بمكتبة الملك . ولا ترد في « هدية العارفين » .

٩ - رسالة السلوك . ويقول الأشهب : انها موجودة بمكتبة الملك . وترد في هدية العارفين بعنوان « منظومة السلوك .. » .

١٠ - شذور الذهب في محض محقق النسب . يقول الأشهب أن موضوعه تاريخ أســـلافه . ولا يذكر أين رآه . ولا يرد له ذكر في هـــدية العارفين . (١)

وبالاضافة إلى هذهالكتب كلها يورد صاحب «هدية العارفين» أسماءعددآخر ينسبه لابن السنوسي . وعناوين الكتب التي يذكرها بالاضافة الى السابقة هي :

١ - ازاحة الاكنة في العمل بالكتاب والسنة .

٢ - اشراق الشموس السنة اليقينية على تراكم اعتراضات الاربعينية .

---

١ - الأشهب، السنوسي الكبير ٨٢، ٨٣.

٣ – مواهب القيوم في تذييل روضة الفهوم .
٤ – بغية السول في الاجتهاد والعمل بأحاديث الرسول .
٥ – تحف المحاضرة في آداب التفهم والتفهيم والمناظرة .
٦ – تحف المنيفة المشتملة على زبـــدة ما الجهابذة بعض مذهب الإمام أبي حنيفة (هكذا) .
٧ – التحف الشريفة في أوائل مشاهير الامهات الحديثية .
٨ – رسالة الفلاح في الفتح والنجاح .
٩ – ريحانة الحبوب في عمل السطوح والجيوب .
١٠ – سيف النصر والتوفيق وغاية السلوك والتحقيق .
١١ – فحم الأكباد في مواد الاجتهاد .
١٢ – قرة عين أهل الصفا في صلوات المصطفى .
١٣ – لوامح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن .
١٤ – كتاب عصمة الرسل .
١٥ – مجموع مسانيد الإمام أبي حنيفة .
١٦ – مختصر بغية الطلاب في علم الانساب .
١٧ – مختصر مسند الإمام أحمد .
١٨ – مختصر المواهب البارية .
١٩ – الأصولية في العمل بالكتاب والسنة .
٢٠ – مفتاح الجفر الكبير .
٢١ – المواهب السرية في منتقى الأوضاع الحرفية .
٢٢ – نزهة الجنان في أوصاف مفسر القرآن .
٢٣ – رسائل في ختم الكتب الستة ومسند الإمـــام مالك والشافعي وشرح البسملة في اثني عشر علم وغير ذلك .[1]

---

١ ـ هدية العارفين ص ٤٠٠ المجلد الثاني ، مجلة كلية الآداب ص ٢٠٢ .

وهكذا يكون المجموع أكثر من أربعة واربعين ما بين كتاب ورسالة، إذا صحت نسبة الكتب التي وردت في هدية العارفين إلى ابن السنوسي . ونحن لا نستبعد وجود مثل هذا العدد لأن حوالي نصفه موجود فعلاوطبع بعضه، أما الباقي فمناوينها توحي بالعلاقه بينها وبين الأولى . كما أن معرفتنا بنشاط ابن السنوسي في التأليف وكتابة المختصرات تجعلنا نرجح نسبة هذا العدد من الكتب اليه .

مواضيعها

شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع ، ولو أننا حاولنا تصنيفها لرأينا أن أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية ، وهذا يتفق مع شخصية ابن السنوسي التي أبرز ما فيها الجانبان الفقهي والصوفي . كما أن فيها كتاباً او كتابين يتناولان مواضيع تاريخية . ويظهر من عنوان احدى الرسائل أن موضوعها في الرياضيات وهي التي عنوانها « ريحانة الحبوب في عمل السطوح والجيوب ». وقد مر معنا ان ابن السنوسي درس الرياضيات في فاس كما أنه علمها للاخوان ، وكان احمد الريفي من المتضلعين منها - كما ينقل ارسلان عن احمد الشريف - . وبين الكتب عدد لا بأس به يتناول مواضيع دينية مختلفة كآداب التفهيم والمناظرة ومختصرات لكتب أئمة المذاهب . ويلاحظ في هذه الكتب أن بعضها يتشابه الى درجة كبيرة حتى يمكن وجود خمسة منها تتناول موضوعاً واحداً ، كما هو الحال في فهرسته الكبرى « الشموس الشارقة » ثم مختصرها « البدور السافرة » ثم « سوابغ الأيد » ثم « المنهل الرائق » ثم « الكواكب الدرية » . والمؤلف نفسه يشير الى هذا التشابه ، الذي نلاحظ مثله كثيراً فيما كتبه مؤلفو ذلك القرن من المسلمين . ولعل لأسلوب ابن السنوسي التعليمي وتدريسه لعدد من الطلاب علاقة في دفعه لكتابة المختصرات . وعلى أية حال فإن هذا التشابه يدفعنا الى الاكتفاء باختيار نماذج من تأليفه تتناول المواضيع التي بحثها لنأخذ فكرة شاملة عنها .

المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق

عنوان هذا الكتاب يشي بموضوعه ، فهو مرجع لأسانيد العلوم التي أخذها المؤلف عن أشهر علماء عصره وأجيز فيها ثم درّسها لطلابه وأجازهم فيها ، ومرجع للطرق الصوفية التي درسها مع ذكر تسلسل العلماء الذين علموه اياها وربطهم بمن سبقهم حتى نهاية السلسلة .

يقول ابن السنوسي في أول كتابه بعد الحمد « أما بعد : فقد وقع الاجتماع في بعض ما قدّر لنا من الرّحل حال الترحال من محل إلى محل بجماعة وافرة وعصابة فاخرة ذوي علوم زاخرة وخيم عاطرة ، فكم فيها من جهابذة نحارير وأئمة نقد فائق التحارير ما بين مريد السلوك الى عرفان مالك الملوك ، ومريد الأخذ والاجازة رائم التبرك بأسانيد من أجازه ، في أقطار واسعة برحابها الشاسعة منهم زمر بنواحي الأعراض وأطراف الجريد وآخرون بطرابلس الغرب وآخرون مراسلون من تونس وما حواليها من البلاد .. وآخرون بالمعمور من زوايا برقة القافرة وآخرون بالبعض من كور مصر القاهرة .. فحصلت بيننا وبين من أمكن الاجتماع به منهم المؤاخاة الأكيدة والخلة السديدة مع تواتر المزاورات ولذيذ المحاورات .. فتشوقت اذ ذاك انفسهم الزكية .. إلى الأخذ والإجازة بما لها من القوانين المستجازة فطلبوا لذلك من هذا العبد الحقير .. الإجازة والاخبار بجميع مروياته ... فاستخرت الله تعالى واجزتهم بجميع ما يصح لي وعني روايته ، وما حصل لي والمنة لله تحقيقه ودرايته ... وأجزت كلا منهم أن يجيز ... بالشرط المعتبر عند أهل الأثر .. » ثم يذكر أبن السنوسي انه احال الأسانيد لرواياته على الفهارس الأربعين التي وصلت اليه من اساتذته ، وانه لعدم تيسر الاطلاع في وقت تأليفه على تلك الفهارس رأى أن يفصل لهم خصوصاً وأنه كان على جناح سفر . ثم يقول : « أخذت ما اشتهر تعاطيه من كتب المنقول والمعقول .. عن أئمة عظام .. منهم مغاربة ومنهم مشارقة » ويبين أنه ذكر اسماءهم في كتب أخرى له . ثم يحدثنا عن مخطط كتابه « الكواكب الدرية » والفصول التي

احتواها ، وأنه حذا حذو ذلك الكتاب في كتابه هذا. وبعد ذلك يبدأ برواية الأسانيد .[1]

ويشتمل الكتاب عدا المقدمة والخاتمة على اثني عشر باباً ، يشتمل الأول على روايات أسانيد كتب الأئمة العشرة ، والثاني على بعض مشاهير السنن العشر ، فمشاهير المسانيد العشر فبعض مشاهير الصحاح الزائدة على الستة ، فبعض مشاهير المعاجم ، فبعض مشاهير المختصرات ، فبعض مشاهير كتب الأحكام ، فبعض مشاهير كتب السير والشمائل ، فبعض التفاسير الأثرية والتأويلية. أما الخاتمة فمن أربعين طريقاً صوفياً . وهو يذكر ان الأبواب التسعة الأولى استوفت ما ينيف على مائة كتاب من مشاهير كتب الحديث ، وانه أغفل ذكر نحو من ماية وخمسين أخرى في البابين التاليين خوف الاملال .

يهمنا من هذا الكتاب أنه يعطينا فكرة واضحة عن العلوم التي درسها ابن السنوسي ، والطرق التي تعرف عليها ، والعلماء الذين أخذ عنهم في الحالين . ويبدو من الكتاب أن اطلاع ابن السنوسي كان واسعاً حتى انـــه أحاط بعلوم عصره التي كان للعلوم الدينية منزلة الصدارة بينها . كما يظهر جلياً أن دراسته جمعت بين الجانبين الفقهي والصوفي .

ونفهم من حديثه في المقدمة أنه بعد أن درس هذه العلوم قام بتدريسها في مختلف الأماكن التي حل بها كطرابلس وتونس والقاهرة وبرقة ، وهذا يؤيد ما ذكرناه في ترجمة حياته من قيامه بالتدريس في مختلف تلك البلاد .

الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية

ألف ابن السنوسي هذا الكتاب في التاريخ ، بالاضافة الى الكتب التي ألفها عن العلوم التي درسها والعلماء الذين أخذ عنهم والتي يمكن اعتبارها من الكتب

---

١ ـ انظر المنهل الروي الرائق ص ٣ ، ٤ ، ٧ .

التاريخية ، ولا نجد في قائمة كتبه كتاباً آخر يماثله . وقـــد يكون لكتاب « مختصر بغية الطلاب في علم الأنساب » علاقة بالتاريخ .

موضوع هذا الكتاب هو تاريخ ملوك الادارسة الذين حكموا المغرب والدول التي أقاموها . وفي مقدمته يتحدث ابن السنوسي عن فضل علم التاريخ المشتمل على علم الانساب ويورد أقوال العلماء والمؤرخين في هذا الصدد مبيناً أهمية معرفة النسب ذلك أن معرفة النسب ضرورية لاختيار الإمام ، كما أن للنسب اعتباراً حتى في الزواج عند الشافعية . ثم يذكر اسماء بعض من صنفوا في علم الانساب من العلماء ، ويذكر ما ورد في الأثر عـن علم التاريخ وفضل كتابته ، ونلمس عنده احتراماً لأهل البيت الذين يدور الحديث في الكتاب عن بعضهم . وهـو يقول عن كتابه « كهذه الرسالة الموضوعة في نبذة سرية من أحوال بني صاحب الرسالة ذوي الفضل والجلالة والعـــلا حائزي قصب السبق في كل ملأ المسمى بالدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية وما في حكمها من السادات العلوية من له ولاية ودولة في الأقطار المغربية . » ويبين محتويات الرسالة « مشتملة » على مقدمة وست دول . الدولة الأولى الفاسية ومـــا في ايالتها . الدولة الثانية التلمسانية وما في نواحيها . الدولة الثالثة الغمارية ومـــا في حكمها . الدولة الرابعة السبتية وما في حكمها . الدولة الخامسة الاندلسية وما في حكمها . الدولة السادسة الصحراوية وما في حكمها . وسترى لكل واحدة بياناً شافياً على ما عند صاحب القرطاس والمغرب وما في العبر لابن خلدون التونسي ومـــا في سلاسل الفصول لابن خلدون التلمساني وما عمدة الطالب لابن عنبة . »

ويتولى ابن السنوسي بعـــد ذلك سرد أخبار هـــذه الدول ويتطرق لفتح العرب للمغرب وكيفية قدوم ادريس الأكبر اليه . ثم يختم حديثه بذكر اسماء حكام المسلمين من عهد الراشدين حتى المائة الثانية عشرة .

ولا عجب أن يهتم ابن السنوسي بتاريخ الادارسة ويدونه ، ولقد ذكرنا ان من العوامل التي أثرت عليه كونه من سلالتهم . ونحن نلمس عنـــده في مقدمة

كتابه اعتقاداً بوجوب كون الأئمة من قريش حيث يورد كلام الماوردي في الأحكام السلطانية إذ يقول : « حكى أن الاجماع على كون الإمام قرشياً ثم قال ولا اعتبار بضرار حيث شاع فجورها في جميع الناس . »[1] كما نلمس عنده احتراماً لآل البيت الذين ينتسب اليهم . ونستطيع أن نستدل من كتابه هذا أنه كان لا يرى شرعية الخلافة العثمانية ولو انه للظروف المحيطة بالمسلمين آنذاك رأى ضرورة السكوت عن هـذا الأمر وتجنب الاحتكاك بالسلطة العثمانية .

أسلوب ابن السنوسي في كتابه هذا يماثل أساليب مؤرخي المسلمين عامة . وهو فيه يقوم بالسرد دون التحليل والتعليل . ومادة الكتاب تدل على غزارة اطلاع ابن السنوسي . وقد ذكر شكري أن لهذا الكتاب قيمة كبيرة في تاريخ الامارة السنوسية لأنه يتضمن تاريخ السلالة المنتسبة لقريش[2] والأحق بالخـــلافة .

السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين

يقول ابن السنوسي في خطبة الكتاب مبيناً سبب تأليفه « وبعد فقد حصل لنا ولله الحمد التام بأئمة اعلام وجهابذة من أهل الله فخام ، ووصل الينـــا من طرائقهم أخذاً واجازة عدة وافرة وجملة متكاثرة ذكرنا كلها أو جلهـــا في فهرستينا الشموس الشارقة ومختصرها البدور السافرة مع ما وصل من العلوم الينا وصحت روايته لدينا، ثم بدا لي أن أنتخب من تلك الطرائق أربعين سوية وأفردها برسالة مبينة لأسانيدها السنية لتكون قريبة المنال .. ولذلك سميتها السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين ، وأذكر كيفيتها وما يتعلق بها لأن حكم تلقين الذكر وأخذ العهد ولبس الخرقة حكم الحديث الشريف الصحيح».[3] كما يتبين

---

١ ـ الدرر السنية ص ٤ .

٢ ـ شكري ص ٤٢ .

٣ ـ السلسبيل ص ٣ .

لنا أيضاً أن موضوع الكتاب هو هذه الطرق الصوفية الاربعين وما يتعلق بها من تقاليد . ويبدأ المؤلف حديثه بمقدمة ثم يتبعها بالكلام عن الطرق واحدة واحدة ، وتتضح لنا من خلال حديثه آراؤه الصوفية .

فهو يذكر في المقدمة أن الطرق الى الله كثيرة وربما بعدد أنفاس الخلائق ولكنها في الحقيقة واحدة إذ مطلوب الكل واحد . وفي رأيه « أن الأخذ عن الطرق الكثيرة حسن بلا ريب لما فيه من التعلق بأذيال الاخيار والتوسل بجانب الأبرار . »[1] ويبين أن الكتاب هو ملخص زبدة رسالة شيخ مشايخه العجيمي مع إضافة من عنده .[2]

أول هذه الطرق « المحمدية » ومبناها كما يقول ابن السنوسي « على متابعة السنة في الأقوال والأحوال والاشتغال بالصلاة على النبي في عموم الأوقات. »[3] ونفهم من كلامه أنه يرى ضرورة وجود الشيخ ليساعد الفرد على التخلص من آفات النفس كالرياء والعجب ، وبدون هذا الوجود تصبح الطريقة صعبة . ثم يورد اسماء بعض الكتب المؤلفة في السيرة ومن انفعها – في رأيه – للمريد كتاب « كفاية المريد وحلية العبيد » للخرومي وكتب الغزالي « التي هي المرهم الشافي لجريح الأهواء . »[4] والطريق الذي يجب أن يسلكه المريد ليتدرج في مراتب

---

١ – السلسبيل ص ٤ .

٢ – جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن السلسبيل المعين ما يلي «وهذا المصنف هو أغرب مصنفاته كلها فبينما يسوق الروايات التي اشتمل عليها مصنفه بما يفهم انه تلقاها شفاهاً اذا به يعترف بأنه نقلها عن الرسالة لحسن عجيمي التي حاكاها سيدي مرتضى الزبيدي في رسالته عقد الجمال . ونجد الفصل المكتوب عن ذكر الحلاجية منقولا حرفاً بحرف في آداب الذكر لأبي سعيد القادري الذي كتب في الهند عام ١٠٩٧ هـ . مما يوحي بوجود مصدر مشترك اخذ عنه الكاتبان ولعل هذا المصدر هو الادراكات للأحمدي الشناوي . ص ١٦١.

٣ – السلسبيل ص ٧ .

٤ – السلسبيل ، ص ٨ .

السلوك هو ان يصحح عقيدته اولاً وأن لا يقدم على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه فيتعلم ما يحتاج اليه من الفقه على أحد المذاهب الأربعة ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب وتنقية السر . ومن أسباب حدوث ذلك طيب المطعم وسماع احاديث الترغيب والترهيب . ثم ليشتغل المريد بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال كالصلاة على النبي . ويسهب المؤلف في الحديث عن فضل الصلاة على النبي فالمداومة عليها مع استحضار محبة النبي تجلي القلب وتصفي السر حتى أن عدداً من المشائخ كانوا يشتغلون بهذه الصلاة حتى صاروا يأخذون عن النبي ويرونه يقظة ، وهو ينقل عن أحدهم أبي البقاء المكي أنه أدرك الشيخ الامام أحمد الدجاني « فأخبرني أنه قرأ القرآن على النبي (ص) مناماً ويقظة » . ويختم المؤلف حديثه عن هذه الطريقة بذكر بعض ادعيتها وإثبات سلسلة السند التي أخذها عنها .

الطريقة الصوفية عند ابن السنوسي وغيره من المتصوفة وسيلة للارتفاع بالنفس ومغالبة شهواتها الفاسدة . ومن حديثه عن الطريق الذي يجب أن يسلكه المريد ليتدرج في مراتب السلوك نلاحظ أنه يحدد خطوات مناسبة كتصحيح العقيدة ، والتفقه وتزكية النفس ، كما يلاحظ عنده اهتمام كثير بالصلاة على النبي (ص) . ولقد سبب التطرف عند بعض الصوفية انحرافات كثيرة . وموقف ابن السنوسي من هذه الانحرافات يتضح من نقده لبعضها . ففي حديثه عن الطريقة الثانية « الصديقية » يقول بعد ذكر ادعيتها وسندها منبها «دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس ولكونهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها فمثلهم كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلاسراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته فالله هو الولي الحميد[1] » .

---

١ - السلسبيل ٥٣ .

وفي حديثه عن الطريقة « السهروردية » يقول عن المنتسبين إليها وإلى الطريقة « الخاتمية »: «والغالب على المنتسبين إلى هذه الطريقة والتي قبلها الجمود مع الأحوال والوقوف مع التعريف حتى أن طائفة منهم تسمى المطاوعة سد على كثير منهم باب السلوك إلى حضرات الأكملية وحجبوا بالتجليات الصورية .. بل ابتلي بعضهم بالتعلق بالشاهد وهو الحدث الحسن الوجه . . ولا شك أن هذه طريقة خطر ومزلة قدم . »[1] ويتعرض ابن السنوسي إلى انحرافات أخرى ولكنه يحاول تعليلها ويذكر حكمها . من ذلك انه يذكر في حديثه عن الملامتية انهم يخشون الرياء لذلك يفعلون ما ينفر الناس منهم « فمنهم من يرتكب بعض المحرمات التي هي أخف ضرراً من العجب .. ومنهم من ينفر الخلق عنه بالتظاهر بالجنون .. جرياً على قاعدة من ابتلي ببليتين فليرتكب أخفها »[2] . ويعلق على ذلك بقوله : ولا ينبغي الانكار على هؤلاء وإن كان لا يقتدى بهم في هذا الأمر فقط لبعد مراميهم . نعم إن عاقب الحاكم المتظاهر بهذه الأمور على مقتضى الشريعة لا يأثم ، ولا حرج عليه من الله في ذلك ، إلا أن الغالب على الصادق في حاله أن يكون له سلطان على الخلق فلا يتوصل إليه بأذى ». [3] فهو يعترف ضمناً بأنهم يسيئون للمجتمع وللحاكم الحق في عقابهم ولكنه لا ينفي صدقهم لذلك لا ينبغي الانكار عليهم وإن كان لا يقتدى بهم . وهو يتحدث عن جماعة منهم يصلون ويصومون ويعملون سائر أعمال البر خفية ويتظاهرون بخلاف ذلك من المحرمات ككشف العورة وأكل الحشيش وشرب المغيرات والواحد منهم — حسب رأيه — ممن تنقلب له الأعيان وتطوى له الأرض كقضيب البان — دلالة على منزلتهم العالية — أما حكم هؤلاء المخربين لظاهر الشريعة « فإن المرتكب منهم للمحرمات إما أن يعتقده العارفون من أرباب القلوب أو يكون المنكر الذي تلبس به غير فاحش فإن كان صغيرة مع ظهور الخارق فينبغي حسن الظن .. أو كان بخلاف

---

١ — السلسبيل ص ٨٠ .
٢ — » » » ٩٠ .
٣ — السلسبيل ص ٩٢ .

ما مر فيتوقف فيه وينكر ظاهره ما ينكره الشرع ، ويحسن فيه الظن إن كان ممن يغيب عن حسه .. أما إن كان صاحياً مرتكباً للمعاصي الفاحشة عن علم اعتقاد العارفين فيه فيساء الظن به ويحبس لينزجر »[1] . ويقبل ابن السنوسي الغيبيات التي ساد الاعتقاد فيها عصره فهو يذكر مثلاً « أن الشيخ أبي الحمايل يروي القرآن العظيم عن بعض التابعين من الجن وهو عن بعض الصحابة من الجن وهو عن رسول الله .. »[2] كما يذكر في حديثه عن الشاذلية « أن من الاسرار التي يتداولونها فيما بينهم عند كل شدة أن يقرأ أحدهم يس عشر مرات بعد الفجر قبل صلاة الصبح ثم يقول اللهم يا من هو أحون قاف آدم هم هاء أمين سبعين مرة أن تفعل لي كذا فإنه يكون بإذن الله ، وكان الشيخ الشاذلي يقول إن ذلك هو الأسم الأعظم ».[3] وفي حديثه عن الطريقة الشطارية يذكر أن « لأهل هذه السلسلة في فن الدعوة والعمل بها طرق عديدة من اشرفها دعوة الكليات والجزئيات ، وهو أن ينظر ما يوافق اسم المريد من الأسماء الإلهية فيؤخذ للنصاب حروفه اللفظية والمكتوبة . » ثم يوضع لكل حرف عدد وتجمع الأعداد وتقسم على أيام الخلوة ولياليها ويضرب مثلاً لذلك وتكون نتيجته التجلي .[4] وهو يرى الاستعانة بالأرواح المقدسة . كما نراه في كتابه يصف اساليب الذكر في هذه الطرق مبيناً تتابع الحركات والادعية التي تقال وكيفية إخراج مخارج الحروف أثناء ذلك . وهو ينتقد في حديثه عن « القلندرية » تضييع الأوقات فيقول : « دخل الغلط على كثير من المتعمقين في عدم المبالاة بعمارة الأوقات واسترسلوا في تناول الشهوات .. وهو خطأ .. فإن تضييع الأوقات من نزغات الشيطان الرجيم . »[5] ويختم ابن السنوسي حديثه بإثبات قصيدة تجمع بي طريقي

---

١ – السلسبيل ص ٩٤ .
٢ – » » .
٣ – » » » ٨٥ .
٤ – السلسبيل ص ١٢٤ .
٥ – السلسبيل ص ١٥٦ .

الاقطاب والعلماء ، هذا الجمع الذي اختطه هو طريقاً له .

يجمع هذا الكتاب آراء ابن السنوسي الصوفية ، ولو أن هذه الآراء لا تعني الطريقة الصوفية السنوسية لأن ابن السنوسي في الطريقة لم يتبع كل ما ورد عن الطرق الاخرى بل اختار شيئاً جعله مضمون طريقته . وهذا ما سنشرحه في موضع آخر .

المسائل العشر « بغية المقاصد في خلاصة المراصد » .

يبين ابن السنوسي في أول كتابه سبب تأليفه الكتاب . فقد وصلته وهو بالمدينة المنورة اسئلة عديدة من اناس كثيرين خصوصاً من اليمن والمغرب مضمونها الاستفسار عن صحة مايقوله المعترضون على اتباع الكتاب والسنة فقط وخصوصاً فيما يتعلق بأحوال الصلاة من رفع اليدين وقبضهما والبسملة الخ .. طالبين تحقيقها وإثبات ادلتها . وذلك للرد على بعض المتفقهة الذين دأبهم التشنيع على العامل بالسنة .

ويلجأ المؤلف – على عادته في كل كتبه – إلى بحث الموضوع من أصوله والاحاطة به من جميع الجوانب . يبدؤه بمقدمة في جلالة مقادير أئمة السلف ومن حذا حذوهم ، واعتصامهم بالكتاب والسنة . ثم يبحث في المرصد الأول في تحديد معاني المذهب والفتوى والقضاء ، ثم يتناول بالتفصيل الفتوى ويتعرض فيها للتقليد ، ثم يتحدث في الباب الرابع عن انواع الاجتهاد وانواع المجتهدين فيبين حقيقة وشروط المجتهد ثم يعرض لموقف الناس من العمل بالحديث . وفي المرصد الثاني يشرح كيفية صلاة أهل الاصطفاء فيصف صلاة النبي ويذكر أركان الصلاة وفروعها ثم يذكر نصوص الأئمة في المسائل العشر وهي : رفع اليدين في الصلاة ، والقبض ، والسكتات الثلاث ، والاستعاذة ، والبسملة ، والتأمين ، والتكبير لقيام الثالثة ، والسلام ، والقنوت ، وتطويل الصلاة وتقصيرها . مفرداً لكل منها فصلاً . ويختم كتابه بالحديث عن النفوس السبعة ، وهي الامارة واللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة .

أما أبرز الافكار التي وردت في الكتاب فهي أن ابن السنوسي لا يرى التقيد بما ورد في المذاهب الأربعة بل الاعتماد على الكتاب والسنة . وأئمة المذاهب أنفسهم « متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ قوله ويترك الا الرسول [1]» . وهو ينتقد بشدة طائفتين . الأولى تجمع بعض دخلاء الصوفية الذين لا يحفلون بالعلوم الشرعية وتجمع الأخرى بعض متغالي اتباع الأئمة الذين تعصبوا لمذاهبهم . ومن حديثه عن الاجتهاد يتضح أنه لا يؤمن بإغلاق بابه ، كما أنه لا يرى وجوب التقليد بالنسبة للعالم . وهو يبسط شروط المجتهد ويذكر احتمالات عدم وصول بعض الأحاديث للأئمة . ويخرج من ذلك أن بإمكاننا أن نرجع للأحاديث التي وصلتنا . ويتحدث بعد ذلك بالتنصيل عن أدلة في المسائل العشر التي خالف فيها المذهب المالكي . وفي من حديثه عن النفوس السبع يتضح طريقه في الجمع بين طريقتي العلماء والاقطاب طريقة فهو يرى ضرورة التأمل وينقل عن الغزالي قوله: «من لم يكن له نصيب من علم الباطن أخاف عليه سوء الخاتمة.»[2] ثم يذكر بعض مصطلحات طريقة الأقطاب كالمراقبة والمشاهدة والشهود وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والعبودية والسر . ويرى أن كل نفس محجوبة بعشرة حجب وأن للنفس سبع مقامات . فأما النفس الأمارة فهي صاحبة الجهل والبخل وبقية الشهوات الفاسدة وعلى الانسان أن يكون منها على حذر وأن يتخلص من آفاتها بالذكر الكثير وتقليل الطعام والمنام . وأما النفس اللوامة فهي التي لها رغبة في المجاهدة ولها أعمال صالحة ولكن بعض الشهوات الفاسدة تدخل عليها ، ويمكن التخلص من هذه الشهوات بالمجاهدة وهي تقليل الطعام والمنام والكلام وكثرة الذكر . والنفس الملهمة هي التي قويت على المجاهدة لكنها لم تخلص من جميع مقتضيات البشرية « فيخشى على من غفل عنها أن يهوي الى أسفل السافلين فينبغي لك أيها السالك أن يكون باطنك معموراً

١ – المسائل العشر ص ٥ .
٢ – المسائل العشر ص ١٨٠ .

بالحقيقة الإيمانية وظاهرك معموراً بالشريعة الإسلامية »[1] . والنفس المطمئنة هي التي لا تفارق الأمر التكليفي شبراً ولا تلتذ إلا بأخلاق المصطفى . والنفس الراضية هي صاحبة الفناء الثاني الذي هو محو الصفات البشرية وعلامة عـــدم الالتفات للخلق. والنفس المرضية هي الجامعة بين حب الخالق والمخلوق. والنفس الكاملة هي التي لا يفتر صاحبها عن العبـــادة .

إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن

موضوع هذا الكتاب هو موضوع الكتاب السابق ، وتكاد بعض أبحاثه أن تكون تكراراً لأبحاث «خلاصة الراصد.» وهو يدخل في نطاق الرد على مقلدي الأئمه والدعوة إلى العمل بالحديث والقرآن . وقد صنفه ابن السنوسي في مقدمة ومقصد وخاتمة . فالمقدمة في بيان جلالة مقدار الأئمة ، والمقصد فيه ثـــلاثة أبواب ، الأول في وجوب التمسك بالكتاب والسنة . وفيـــه يذكر أن دلالة الكتاب والسنة واحدة ويدلل على وجوب اتباعها ويشرح طرق العمل بالحديث. والباب الثـــاني في الاجتهـــاد ، حيث يبين حقيقته ويشرح الشروط الواجب توفرها في المجتهد ويدلل على تحريم الاجتهاد مع وجود النص، ويرد على زعم انقطاع الاجتهاد ودعوى أنه اجماع . والباب الثالث في التقليد ويذكر فيه ما ورد في ابطال المذموم منه وما ورد من أقوال العلماء في انحصاره في الأئمة الأربعة. ثم يبين الفرق بين الاتباع والتقليد . أما خاتمة الكتاب فهي في سنن أهــل الله وسبيل عملهم إلى الله. ولئن كانت المقدمة والابواب تبحث بحثاً فقهياً فإن الخاتمة تتناول مراتب اليقين وتبحث في المصطلحات الصوفية التي مرت معنا في « السلسبيل ». فكأن ابن السنوسي يحرص دوماً على الجمع بين الطريقين الفقهي والصوفي .

ويلاحظ في الكتاب أن تبويبه جيد ، كما أن أسلوب المؤلف في عرض

---

١ - المسائل العشر ص ١٨٨ .

حججه ومناقشته جيد أيضاً . ويستدل من الكتاب على سعة اطلاع ابن السنوسي وعلى رفضه القول بانقطاع الاجتهاد . ويبدو من عناوين الكتب التي ألفها ابن السنوسي أن عدداً منها يدور حول هذا الموضوع .

مقدمة موطأ الامام مالك (ر)

يذكر ابن السنوسي سبب تأليفه للمقدمة فيقول : « لما جرت عادات قادات الأمم في ابتداء قراءة كتب السادة الأئمة بتقديم تعريف بهم وبيان مصطلحات كتبهم .. طلب مني بعض مريدي رواية الموطأ .. فوضعت له هذه العجالة .. في مقدمة وبابين وخاتمة . »[1] المقدمة في أول من دون هذا العلم العظيم وكيف كان حالهم قبل تدوينه في القديم . فابن السنوسي يبين كيف اهتم الصحابة والتابعون بحفظ الأحاديث ثم كيف احتاج المسلمون إلى تدوينها بعد انتشار الإسلام . ويذكر أول المدوّنين وتاريخ التدوين ثم طريقة التصنيف عند كل منهم . والباب الأول فيما للعلماء في مدح الموطأ والباب الثاني في التعريف بمؤلف الموطأ (ر) وفيه يتحدث حديثاً قيماً عن حياة الإمام مالك مبيناً علمه وفضله وتقواه وتمسكه بالكتاب والسنة . وتتناول الخاتمة نبذة عن علم مصطلح الحديث وعن بعض ألفاظ الكتاب، ثم يذكر المؤلف اتصال سنده بالموطأ فيبين أنه أخذه على طريقتي المغاربة والمشارقة .

حديث ابن السنوسي فيه حديث المعلم الفاهم الذي يقدم المادة الغزيرة لطلابه بأسلوب سلس بسيط . ويلاحظ قارئه اعجاب مؤلفه بالإمام مالك ، واطلاعه على علوم التاريخ والفقه والحديث . ويبدو أن ابن السنوسي بحث عدداً من كتب الأئمة وتناولها بالشرح ، وهذا واضح عند استعراض اسماء كتبه .

المسلسلات العشر

رسالة صغيرة في عشرة أحاديث مسلسلة . « والأحاديث المسلسلة – كما

---

١ – مقدمة الموطأ ص ٣ .

يقول ابن السنوسي – من اجل المسموعات وأفضل المرويات لاشتمالها على مزيد الضبط والاتقان . »[1] «وخير المسلسلات ما كان فيه دلالة على اتصال السماع وعدم التلبيس » ويذكر ابن السنوسي أنه قد وصل اليه من الأحاديث المسلسلة ما يناهز المائتين ذكر أغلبها في الشموس الشارقة وذكر عشرة منها في رسالته هذه.

وطريقة ابن السنوسي في رسالته هي ذكر الحديث ثم اثبات سلسلة السند مع وصف طريقة الرواية . فالحديث الثاني مثلاً وهو « من صافحني أو صافح من صافحني الى يوم القيامة دخل الجنة » يتلقاه كل واحد عن شيخه مع مصافحته وسند الحديث يصل دوماً إلى الرسول . والحديث الثالث هو حديث المشابكة ، وفي تلقيه تحدث مشابكة الأيدي . كما تتم الضيافة في حديث الضيافة عند التلقي وهكذا .

ويرى ابن السنوسي في هذه المسلسلات كفاية لمن أراد الاتصال بالنبي والانتساب اليه وإلى أصحابه فذلك مما يدل على حرص صاحبه على الاقتداء والاتباع على قدر الامكان . ويبدو أن لهذه المسلسلات قيمة كبرى عند الصوفية .

ابن السنوسي المفكر

من هذه الكتب نستطيع تكوين فكرة عن ابن السنوسي المفكر ، بعد أن استعرضنا جوانب تفكيره المختلفة . فقد تعرفنا على ابن السنوسي المؤرخ الذي يمتاز بغزارة معلوماته ويعتز بتاريخ أجداده ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش . وقد قادنا هذا إلى فهم رأيه في الخلافة العثمانية . كما لاحظنا أن أسلوبه في كتابة التاريخ لا يخالف أسلوب مؤرخي المسلمين ويقتصر مثله على سرد الحوادث ويسلم بالخوارق . وتعرفنا على ابن السنوسي المعلم الذي يتقن توصيل

---

١ – المسلسلات العشر ص٣ .

وتبسيطها لطلابه ، ويقبل بجد على كتابة الرسائـــل العلمية والمختصرات لهم بأسلوب سلس مشوق . وتعرفنا على ابن السنوسي الفقيه المتصوف الذي يجمع بين طريقتي العلماء والأقطاب، وهذا الجانب من أبرز جوانب شخصيته الفكرية.

وآراء ابن السنوسي الفقهية على جانب كبير من الأهمية بالقيــاس إلى عصره الذي عاش فيه . فهي آراء يمكن وصفها بأنها جريئة جداً ، وقد جابه نتيجة لمناداته بها معارضة قوية – تحدثنا عنها في معرض حديثنا عن موقف العلماء منه – يمكن تقديرها عنـــد قراءة فتاوى الشيخ عليش فيه . [1] والحق أن دعوة ابن السنوسي للتمسك بالكتاب والسنة باعتبارهما مصدري الشريعة الإسلامية دعوة تستحق الإعجاب . وهو فيها قوي الحجة منطقي لا ينكر ما للأئمة من فضل كبير ولكنه يأبى الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالامكان الرجوع إلى التتبع والاطلاع على أحاديث قد لا يكونون اطلعوا عليها وما دام بالامكان التفكير والاستنباط مع ملاحظة تغير الظروف. وقد أحاط في كتابيه «البغية» « وإيقاظ الوسنان » بكل ملابسات هـــذه القضية ودلل على صواب رأيه . ويرى بعض الباحثين أنه تأثر في دعوته هذه بابن تيمية الذي نادى قبله بستة قرون بالتمسك بالحديث والقرآن . [2] ويبدو أن ابن السنوسي اطلع على كتب ابن تيمية أثناء إقامته في الحجاز كما تعرّف على آرائه من خلال احتكاكه بدعاة السلفية من الوهابية الذين اتخذوا كتب ابن تيمية مرشداً لهم . ويجب التنويه إلى أن هذا التـــأثر بآراء ابن تيمية والوهابية لم يتجاوز مبـــدأ الدعوة لأن ابن السنوسي اختار لنشر دعوته أسلوباً آخر غير أسلوبي ابن تيمية وابن عبـــد الوهاب كما سنرى .

كذلك فإن رد ابن السنوسي على الزعم القائل بانقطاع الاجتهاد بـــدعوى

---

١ – انظر ص ٨٩ من فتاوى عليش.

٢ – زيادة ٨١٠٨٠ .

اجماع العلماء على اغلاق بابه ، ومناداته بفتح هذا الباب شيء يستحق الاعجاب أيضاً . وخصوصاً انها جاءت في وقت تحجر فيه الفكر الاسلامي. ولقد قرن ابن السنوسي دعوته هذه بالتطبيق فكان ان خالف وهو المالكي المذهب والثقافة مذهب مالك في بعض المسائل ، ومنها المسائل العشر التي ذكرناها ، فكان يقبض في صلاته ويقنت بعد الركوع ويقصر في الصلاة اثناء السفر الخ ... وقد حذا اتباعه حذوه . ومع ان هذه المسائل قد تبدو صغيرة لأنها فرعية جداً الا أن اهميتها تكمن في أنها مثال وتطبيق للمبدأ المهم الذي اعتمده ابن السنوسي في معالجتها وهو التمسك بالكتاب والسنّة وفتح باب الاجتهاد .

أما بالنسبة لآرائه الصوفية فإننا نلاحظ إيمانه بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف ، ونلمس عند ابن السنوسي تعمقاً في دراسة الصوفية ولا عجب فقد تعرف عليها منذ صباه وتمسك بها حتى آخر حياته ، وهو يؤمن بالصوفية كما يؤمن بالتمسك بالكتاب والسنة . ويرد على من يستنكر مثل هذا الجمع بين طريقتي الاقطاب والعلماء فيقول « قد يسري في وهم من ليس له رسوخ قدم في علم القوم أن احوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة كما فاه به بعض الجهلة تغالياً أو تنقيصاً فاعلم ان سبيل القوم رضي الله عنهم اتباع النبي (ص) في الجليل والحقير وكلما ازداد احدهم اتباعاً كلما ازداد كمالاً لكون الكمال الكلي عندهم في كمال الاتباع والا فليس منهم أو ناقص عندهم فإن اعمالهم عندهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح فيه قبلوه وما لا نبذوه [1] » .

فالصوفي كما يراه ابن السنوسي يتقيد في طريقه بالكتاب والسنة .

ابن السنوسي الداعية

لم يقتصر ابن السنوسي على تسجيل افكاره في كتبه بل عمل على

– المسائل العشر ص ٤٦ .

نشرها ، كما ان افكاره نفسها تطورت ونمت حتى تبلورت في حركته التي قام بها . ولقد رأينا في تاريخه كيف استأذن استاذه ابن ادريس بالدعوة وأسس زاوية أبي قبيس. فكأنه لم يشأ الاقتصار على ان يكون عالماً بل أراد تطبيق افكاره بنفسه . ويبدو تطور هذه الافكار عندما نقارن بين اوامره لمريديه بالصلاة والصوم والذكر في أول دعوته ثم بتحويلهم للعمل في بناء الزوايا والمساجد بعدما تبين له خطأ الاقتصار على العبادة .

وقد تصدى ابن السنوسي لقيادة حركته فنجح في ذلك نجاحاً كبيراً لما تميزت به شخصيته الدعوية من صفات . فهو يبدو لنا من خلال الاخبار التي وصلتنا عنه ذكياً واعياً لما حوله مؤمناً بدعوته منسجماً مع افكاره خبيراً بالأحوال المحيطة به . ولذلك نراه يحدد هدفه ويتبع اسلوباً ناجحاً لوصوله. وقد اختار الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة اسلوباً له ، كما تعمق في فهم المجتمع الذي اراد هدايته في برقة والحجاز . ونجح في مهادنة السلطة العثمانية الممثلة في طرابلس وبرقة وفزان برجال الحكومة من وال وحكام ، حتى ان علاقاته بهم تجاوزت الرسميات إلى المودة والتقدير والتعاون ، وهذا يبدو من المراسلات التي جرت بينه وبينهم . وقد ظهرت مقدرته الدعوية في تأليف قلب أشقر باشا بعد ان كان يريد به سوءاً في جلسة واحدة ، وتأليف قلوب بعض العلماء الحاضرين. كذلك كان عنده وعي عظيم للسياسة المحلية والعالمية وقد ظهر هذا الوعي في حديثه مع الشيخ الدرناوي وفي تخطيطه لمواقع الزوايا . وكان يتصف أيضاً بالحزم في قيادته بالاضافة إلى الحلم والمرح ، وكان يعطي من نفسه لاخوانه مثلاً ، كما كان اسلوبه في تعليمهم سهلاً . وما ورد عنه من اخبار يوضح هذه الجوانب.

فمثلاً كان ابن السنوسي يكثر من استخدام القصة الرمزية لتفهيم اخوانه ومريديه باعتبارها وسيلة تعليمية ناجحة وسهلة الفهم عليهم . من ذلك قصة حكاها ابنه المهدي حين أمر بالخروج من الجغبوب وشق ذلك على اهلها . وقد أراد ابن السنوسي من القصة ان يبين لابنه وللاخوان اهمية القيادة في الجماعة

وضرورة المحافظة على القائد الذي هو بمثابة الرأس من الجسم . والقصة كما قالها المهدي « كنت جالساً مع سيدي (ر) وتكلم معي كلاماً طويلاً في الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب ثم حكى لي حكاية بأنه كان كبير قوم ارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان ، فبينما هم في اثناء الطريق وإذا بالعدو قد ظهر عليهم فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يأوون إليه ، فلما لم يروا شيئاً قالوا لم يبق الا القتال ، وكبير القوم معه ولد . فصار الولد كلما رأى العدو آت من جهة حوّل أباه إلى جهة أخرى . فقال له بعض القوم : أنت ما شغلك الا أبوك. قال لهم : نعم رجل كألف والف خفاف كاف . فقال (ر) صدق الولد ، متى كان الرأس موجوداً فالذي يذهب يأت الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه »[1].

كذلك كان يكثر من ضرب الامثال كوسيلة تعليمية . من ذلك حديثه للاخوان اثناء بناء الجغبوب حيث كان يشرف بنفسه على العمل ويخطط بناء السور على شكل مربع ثم يخاطب الحاضرين فيقول لهم :

« الطير له عقل أم لا ؟ فقالوا :لا عقل له . فقال (ر): هو لا يضع بيضه الا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذيب ولا ثعلب ولا غيرهما . وقال (ر): اليربوع له عقل ؟ فقالوا له : لا . فقال (ر) : هو يجعل في حجره طرباقة وهي النافقاء فإذا دخل عليه الحنش خرج منها . وقال (ر) : تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الاسود عليها من هنا واشار باصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب . »[2] فهو هنا يسأل ليصل إلى الجواب ، ويمثل بالطير والجربوع . والحق ان هذه الحادثة تعكس مقدرته الدعوية والتنظيمية .

وكان ابن السنوسي ضابطاً لأتباعه يحسن توجيههم ولا يتهاون في معاقبة

---

١ ـ احمد الشريف ، الرحلة ص ١٠ .

٢ ـ احمد الشريف ، الرحلة ص ٢٩ .

المنحرف منهم حفاظاً على الانسجام في العمل مع الفكرة . وقد حكى احمد الشريف في رحلته عن أحد الاخوان واسمه المدني التلمساني أنه كان مقدم احدى الزوايا في الصحراء « فثار بها للجهاد في كافر وأمه جاءا سائحين ، الكافر يداوي الرجال وأمه كحالته تداوي النساء ، فلم يشعرا الا والجاهد قد قام عليها ومعه المعاون سيد عبد الهادي الفاسي خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة والمعاون متقلداً سيفاً قد أخرج من نصله قدر ثلاثة اصابع لارهاب العدو ، فصادفا حاكم البلاد وهو تركي فقال لهم القايم للجهاد : اليوم يخرج النصراني من البلاد . فقال له : امهله اليوم وغداً يخرج . فقال له الجاهد : لابد أن يخرج اليوم . فتلطف التركي معه فلم يفد . فقال له : أنت مهبول يا سي الشيخ . فانتهره المجاهد فقال له : أنا مهبول يا حمار وخلفهما كل من قاربهما في الحال من اهل البلاد ثم جاء أكابر أهل البلاد وأرادوا تسكين هذه الثورة فما سكنت الا بشدة وقع فيها ضرب بعض المشايخ ، ضربهم اصحاب القائم . وخرج النصراني وأمه في تلك الليلة . فلما وصل الخبر إلى الاستاذ الجد أرسل إليهما فسبق المعاون فهجره أياماً حتى قدم القائم فخاصمهما وقال لهما : أنا ارسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين ؟! ولم يرجعا إلى محلهما . »[1] فهذه الحادثة تعطينا فكرة عن ضيق افق مقدم الزاوية وعن موقف ابن السنوسي من انحرافه ، وعن الاسلوب الذي اتبعه في عقابه . فهو يهجر المعاون أياماً دلالة على شدة غضبه ثم يخاصم الاثنين ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة ويعزلهما عن عملهما . وموقفه الشديد هذا لا يستغرب لان تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسي في الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة .

وكان ابن السنوسي يعطي اتباعه المثل من نفسه في ضبط النفس والحلم . ومما حكاه احمد الشريف عنه . ان رجلاً درقاوياً (من اتباع الطريقة الدرقاوية)

---

١ ـ احمد الشريف ص ٢٠ .

أتاه اثناء نزوله في سيوة في تغريبته الاولى من الحجاز « وأساء الأدب معه . ومن جملة كلامه للاستاذ (أي ابن السنوسي) قال له : نحن نكسر رؤوس الرجال . فقال له الاستاذ : انتم تكسرون الدلاع (البطيخ) . فلما سمع الاخوان بذلك أرادوا أذيته (يعني الرجل) فقال لهـم الأستاذ : اتركوه عنكم واختفى الرجل خوفاً من الإخوان . »[1]

وكانت روحه مرحة يحسن المزاح اللطيف ويحسن استخدامه في موضعه . ومما تحدث به احمد الشريف عن اقامته في سيوة ان جميع الإخوان اصيبوا بالحمى – وذلك لانتشار البعوض في سيوة – « فالذي بريء منهم جـاء واشتكى للأستاذ وقال له : سبحان الله يا سيدي الإخوان كلهم مرضوا بالحمى . فحكى له الأستاذ حكاية قال له: كان جماعة يصلون فتكلم واحد منهم في الصلاة فرد عليه واحد بجانبه بقوله : الناس لا يتكلمون في الصلاة . فقال له المتكلم :او لا يحملها الإمام ! فالتفت اليهم الإمام وقال لهم : والله ما نحملهـا على قران . »[2] وقد اراد بهذه الحكاية المضحكة أن يخفف عن الإخوان المرضى ويصرف الأخ الشاكي عن الشكوى .

وكان يلجأ إلى الاستفادة من المناسبات لتوضيح افكاره ، ويضمن في حديثه الترغيب والترهيب . من ذلك أنه اثناء مرضه بالحمى في سيوة – بعد ان مرض الإخوان – « سمع صيحة عند الغروب فقال : ما هذا الحس(الصوت) فقيل له: هؤلاء درقاوية . فقال لهم : يحرفون لفظ الجلالة يقولون : لا إلاهـا ايلاء الله يمدون الهاء من إله ويولدون ياءين همزة الأولى ويأتون بهمزة الاستفهام قبل لفظ الجلالة . » ثم قال لهم « سيدي العربي الدرقاوي عند قرب وفاته جمع تلامذته

١ ـ احمد الشريف الرحلة ص ٦٧ .

٢ ـ احمد الشريف الرحلة ص ٦٧ .

وقال لهم ، ما وافق الكتاب والسنة من طريقتنا هذه فخذوه ومـــا خالفها فاتركوه ، وما كنت افعله في حالة الجذب لا تفعلوه فمنهم من امتثل ومنهم من مشى على تلك الحالة وله مدة اربعين سنة وهو في حالة الجذب . » ثم قال « لأي شيء نأمركم بقراءة النحو؟ لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول (ص)» ثم قال : « بالكم تقولون الذي يقرأ النحو ما نوصله إلى الله . بالكم تقولون الذي يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله . بالكم تقولون الذي يرعى الابل ما نوصله إلى الله ، وهكذا .وعدّ اشياء كثيرة . لا كيف ما نوصل صاحب لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله ، نوصل غيره ! ثم سكت هنيهة وقال : اعلموا ايتها الطايفة أن ليس على وجه الأرض من هو افضل منكم. كررها ثلاثاً فلما رأى الإخوان فرحوا بذلك قال لهم (ر) « أنا إيش كنت نقول . صاحب الحمى يخترف كثيراً وما بي إلا الحمى . فانكب الإخوان عليه يقبلونه وكل من كان ماسكاً عضواً قبّله . وفي الحاضرين سيد عبد الله التواتي فنهض قائماً وقبل يديه وقال : قبلناها يا سيدي وسمعناها . »[1] وهكذا نراه يعلق على صيحة فيبين انحراف بعض الدرقاوية وينتقل منهـا إلى وصية استاذه الدرقاوي بالتمسك في الكتاب والسنة ثم ينتهز فرصة حديثه عن تحريف لفظ الجلالة ليحث إخوانه على تعلم النحو . ثم يعلن لهم انهم جميعاً سيصلون إلى الله بواسطته ، وليس الأمر مقتصراً على العبّاد فقط . ويبدو من حديثه هذا ان فكره تطور بحيث أصبح يرى ضرورة توزع الأعمال ودفع الإخوان لممارستها جميعها بدل الاقتصار على العبادة بمعناها الضيق .

ومن القصص التي تعطينا فكرة عن مزاحه ما رواه احمد الشريف من أن احد الاخوان وهو محمـــد بن الشفيع أرسل للاستاذ يستأذن في الصوم ففهم الأستاذ أنه يريد الصوم الكاسر لشهوة النفس . فعندما أراد الزواج في البيضاء خاطبه ليلة الزفاف ممازحاً بقوله :« نرسلوك إلى سيوة مع الشيخ يوسف يزوجك

---

١ ـ احمد الشريف ،الرحلة ص ٦٨ .

بأربعة نسوة . وكان ابن الشقيع راغباً في الزواج ولكنه فزع وقال : يا سيدي أربع نسوة ! قال له نعم وفي ليلة واحدة .

وتبدو لنا جوانب عدة مضيئة من شخصيته الدعوية في رسائله التي كان يبعث بها سواء للاخوان أو لغير الإخوان ، إذ يتجلى فيها داعية خبيراً بالنفوس. ففي رسالة بعث بها في محرم١٢٧٦ إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب يقول موصياً الإخوان « والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد بالقول والعمل ، والتخلي عن التواني والكسل ، وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيد الناس ، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى التوصية فيما هو بين يديه ، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعياً قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة [1] . » وفي رسالته إلى أهل وجنقة يقول — داعياً إياهم — بعد السلام والديباجة « وبعد فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية احوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنة نبيه محمد (ص) وثانياً فإنا ندعوكم بدعاية الاسلام من طاعة الله ورسوله قال تعالى في كتابه العزيز : يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول .وقال تعالى: من يطع الرسول فقد اطاع الله.وقال تعالى: من يطع الله ورسوله فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من اقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال ، وحج بيت الله الحرام واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور وغير ذلك مما حرم الله ورسوله .فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه

---

١ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب .

خسران ولا يحوم حول حماه حرمان . وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلموهم مـــا فرض الله ورسوله عليهم ، ويهدوهم إلى سبيل الرشاد ، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي اقامنا الله عليها ، ننبه الغافل ونعلم الجاهل ، ونرشد الضال . ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين . وعندما قدمنا لهذه النواحي اشتغلنا بدلالة العباد إلى الله ، وما رأينا أحداً من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه . والآن فإن اتباعنا – جماعة زوية – الذين هم أهل تزر المعلومة عندكم قدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبوا منا بناء زاوية بموقع تزر المذكورة . وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وابناءكم كتاب الله تعـــالى وسنة نبيه محمد (ص) واصلاح ذات البين بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم ويأخذون ابناءكم واموالكم عاملين بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . وبقوله تعالى : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكـم واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . » وبقوله تعالى « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بـــين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله فسنؤاتيه أجراً عظيماً » . فبذلك يحصل التعاون على الـــبر والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان . » وبقوله (ص) : « كونوا عباد الله اخواناً وعـلى الدين اعواناً »، وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ». وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فيقدم عليكم بعض ابنائنا يعلمون ابناءكم كتاب الله . ويعلمون رجالكم سنة رسول الله (ص) ولا تخافون بعـد ذلك إن شاء الله أحد وترون من فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيـد . وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من هو حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة ، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين وبمنه وكرمه آمين . ودمتم بخـير وعافيــة . ونعم متواترة

ضافية .[1] فرسالته إلى شيخ زاوية الطيلمون فيهـــا حث على العمل وتوجيه القائد المرشد لاتباعه . بينما نلمس في رسالته إلى أهـــل وجنقة أسلوبه في الدعوة وهـــو أسلوب ذكي مؤثر . والحق أن شخصيته الدعوية تبرز في كل رسائله تقريباً مهما كان موضوع الرسالة ، وانتقاله من الحديث العادي فيهـــا إلى بث أفكار دعوته يأتي طبيعياً . ففي إحدى رسائله إلى مصطفى باشا حاكم فزان يقول : « وقد أخبرنا الشيخ احمد بن أبي القاسم التواتي بما عملتم ، وما في الزاوية صنعتم جزاكم الله خير الجزاء وأزال عنكم ما كان هماً وضيراً آمين . والزاوية في الحقيقة إنمـــا هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده وقد قال تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . » والمتسبب في الخير والدال عليه كالمباشر ، لأن النبي (ص) قال : « الدال على الخير كفاعله ، وفاعله في الجنة . » وقال أيضاً (ص) « من بنى مسجداً لله ولو مفحص قطاة بنى الله له قصراً في الجنة . » والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بهـا البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والباد ، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان . . »[2]

ويتجلى تفكير ابن السنوسي السليم في مجال نشر الدعوة فيما رواه المؤرخون عن شرائه لقافلة من العبيد وتحريره أفرادها ثم تعليمهم وإعادتهم إلى أهاليهم لنشر الإسلام بينهم. فلهذه الحادثة مدلولات كثيرة، فبالاضافة الى بروز الجانب الإنساني فيهـا بوهب حرية أفراد القافلة وتعليمهم فهناك جانب البناء بإرشادهم وجانب الذكاء في الدعوة بتوجيههم إلى أهاليهم ، ليكونوا أقدر دعاة بينهم . كما يتجلى توجهه السليم لإخوانه وطلابه فيما روي عنه من أن بعض الطلبة التمسوا منه أن يعلمهم الكيميـــاء . فقال لهم : « الكيمياء تحت سكة الحراث »

---

١ ـ نقلا عن الاشهب السنوسي الكبير ص «١٥٠» .تاريخ الرسالة ٤ محرم ١٢٦٦ .
٢ ـ « « « « « ص ١٤٣ .

وأحياناً كان يقول لهم «الكيمياء هي كد العرق واليمين» كما كان يشوق طلابه إلى القيام على الحرف والصناعات ويقول لهم مشجعاً «يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم». وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم «يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا.»[1] وبعد.. فإنه يمكننا بعد القاء هذه الأضواء على شخصيته الدعوية القول بأنه يقف في الصف الأول بين الدعاة الموفقين، وأنه كان موهوباً وناجحاً في هذا المضمار.

عوامل حركته وأهدافه

توضحت أمام ابن السنوسي طريق العمل بعد سنوات طويلة تعلم فيها علوماً كثيرة واكتسب خبرات عظيمة وتعرف على احوال المسلمين وفي أثناء هذه السنوات تحول ابن السنوسي من شاب ميال للرؤى يفكر في احوال المسلمين ويتألم لها ويتحرق رغبة لعمل شيء ويستغرق في العبادة حتى يشعر بالصلة الوثيقة بينه وبين رسول الله (ص)، إلى رجل مجرب واع لما حوله فاهم مهمته ودوره، فقام بحركته التي كانت هناك عدة عوامل أثرت في تكوينها.

وقد تحدث أكثر من مؤرخ عن هذه العوامل، فذكر «البهي» «أنه تأثر بأحوال العالم الإسلامي في عصره التي اشعرته بضعف المسلمين ضعفاً اقتصادياً وخلقياً ودينياً واجتماعياً، واشعرته بضعف السلطة الممثلة بالخلافة العثمانية، بالاضافة إلى شعوره بضغط العالم المسيحي على المسلمين لا لاستغلاله اقتصادياً فحسب بل لممارسة الحروب الصليبية في صورة أخرى.»[2] كما ذكر «زيادة» أن رحلاته اطلعته على أحوال المسلمين المتأخرة، كما اطلع بنفسه على تأخر السلطة العثمانية وانحطاطها. ومما أثر عليه تأثيراً كبيراً تقدم ونجاح المسيحية في افريقيا.

---

١ ـ ارسلان ـ، وتروى هذه الأقوال عن محمد المهدي ايضاً.

٢ ـ البهي ص ٦٦.

وتأثر في أساليبه بطريقتي العلماء والصوفية .[١] وهكذا فإن عدداً من مؤرخي السنوسية يرون أن حركة ابن السنوسي انما ظهرت نتيجة ضعف المسلمين وضغط العالم المسيحي على البلاد الإسلامية . ولقد بحثنا نحن في الفصل السابق العوامل المختلفة التي أثرت وساهمت في تكوين شخصية ابن السنوسي ، وفي رأينا انها هي التي أوصلته إلى تحديد هدفه وطريقته والقيام بحركته . ففي صباه هزته أوضاع بلده الجزائر وفساد حكم الترك فيه كما تأثر من سماع أخبار التقدم المسيحي في افريقيا الوثنية وتألم لقعود المسلمين عن القيام بواجبهم في الدعوة إلى الله . ثم ازدادت هذه المؤثرات قوة مع الزمن ومع سياحته . إذ اطلع على ضعف السلطة العلوية في المغرب وعلى فردية محمد علي في حكم مصر وعلى فرض الحكم في الحجاز وعلى عجز الدولة العثمانية الواضح في مختلف اجزائها . كما أدمى قلبه احتلال الفرنسيين لبلده واطلع في رحلاته على اطماع الاوربيين فيوطنه الإسلامي فكان ان اهتز لهذا التحدي . فشمر بمسؤوليته في محاولة إصلاح أحوال أمته ، وزاد من شعوره بهذه المسؤولية كونه ادريسياً شريفاً وعيشه في جو صوفي .

أما أهدافه التي فكر في العمل لتحقيقها فكانت أول الأمر عامة دونما تحديد دقيق ، إذ اراد النهوض بالمسلمين . ولا بد أنه تساءل عن كيفية النهوض بهم وفكر طويلاً حتى توضحت له الطريقة واستبانت أهدافه بدقة . وقد اختلف المؤرخون في آرائهم عما إذا كان هدفه الإمامة أم مجرد الإصلاح . فذكر شكري رأي « لوي رين » الذي يقول بأن هدف السنوسية كان الامامة أو تشييد صرح الدولة الثيوقراطية في العالم الإسلامي وانها ما كانت تريد الوصول إلى هذا الهدف عن طريق العنف . ثم علق عليه بقوله : « ومع ذلك فالباحث لا يجد دليلاً على أن الإمامة كانت هدفاً للسنوسية في مختلف أدوارها . بل إنه كان من الواضح أن منشأ نقد السيد السنوسي لدولة الخلافة في عصره كان

---

١ - زيادة ص ٨٥ ، ٨٦ .

رغبته في أن تظل الدولة العثمانية – ما دامت قائمة وما دامت دولة الخلافة – ذلك السياج الذي ينبغي أن يحيط العالم الاسلامي ويدفع عنه عدوان المعتدين . كما أن كل ما أحدثه إخفاقها في تحقيق هذه الرغبة وكونها – دولة الخلافة – لا تستند على أساس وشروط صحيحة في تأليفها وقيامها هو أن صار مبتعداً عنها. ولم يكن من سياسة السيد وخطته مناصبة دولة الخلافة العداء أو الخروج عليها [1]. »ويوافق الاشهب شكري في تعليقه ويبين أن ابن السنوسي لو فكّر في ذلك لما كان مخطئاً [2].وقد وصف بريتشارد دعوة ابن السنوسي بأنها تبشيرية اصلاحية .ويرى البهي أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة وأن الدارسين الغربيين يحلو لهم أن يوجدوا شقاقاً بين السنوسيين والخلافة العثمانية أساسه رغبة السنوسي في الاستقلال والملك من جانب وحرص الخلافة العثمانية من جانب آخر على امبراطوريتها ويصف البهي هؤلاء الدارسين بالدس [3] . وقد أجاب الملك ادريس بالنفي على سؤال عما إذا كان جده يرمي إلى اقامة دولة اسلامية . وذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفاً طيباً عندما اعفى السلطان عبد المجيد الإخوان من دفع الأموال الأميرية ، ولأنه أيضاً كان يخشى أن يكون حاكماً لأن الحاكم يظلم احياناً وهو يعلم واحياناً دون أن يعلم [4] . وفي رأينا أن ابن السنوسي مع إيمانه بأحقية القرشي بالخلافة لم يرَ اثارة موضوع الخلافة لأنه رأى أن من غير المناسب وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف حول « الخلافة » . ولذلك ركز تفكيره على جوانب الاصلاح الأخرى . فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الاسلام وتربطهم شريعة الله . وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع صد اعداء الإسلام ورد أطماعهم . وأغلب الظن أنه انتهى بتفكيره إلى أن النجاح في تحقيق هذا

١ – شكري ص ١٨ .
٢ – الاشهب ،السنوسي الكبير ص ١٠٨ .
٣ – البهي ص ٧٥ ، ٧٦ .
٤ – في حديثي مع الملك ادريس .

الهدف لابد وأن ينتهي بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافــــة . وقد اختار ابن السنوسي طريق التعليم والإرشاد طريقاً لإصلاح المجتمع ، وكان يشعر بأن وظيفته في تعليم الناس شيء اقامه الله عليه وقد عبّر بنفسه لأهل وجنقة في رسالته لهم عن شعوره هذا حيث قال : « وقد طلب منا أناس .. أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلموهم مـا فرض الله ورسوله عليهم ويهدوهم إلى سبيل الرشاد ، وعزمنا على ذلك لكون هـــذه الوظيفة هي التي اقامنا الله عليها ، ننبه الغافـــل ونعلم الجاهل ونرشد الضال . » ونحن ميالون للقول بأنه بعد أن نجح في تكوين نواة المجتمع الذي كان يسعى إليه فكر بأن قيادة هذا المجتمع ستنقذ العالم الإسلامي وتحكمه ، ولذلك رأيناه يرفع منزلة ابنه المهدي ويتحدث عـن جنود المهدي الذين سينقذون الوطن الاسلامي من غزاته الكفار . كما يمكننا أن نستدل من محاولته نشر زواياه في مختلف اجزاء العالم الاسلامي أن هدفه كان يتصف بالشمول ، ولذلك فكر في زيارة القدس والشام . ولا يستغرب هذا الشمول لأنـــه مرتبط بنظرة ابن السنوسي للعالم الإسلامي باعتباره أمة واحدة . ولا تتناقض هذه النظرة مع كون دعوتـــه اقتصرت على مناطق معينة لأن هذا الاقتصار تابع عن أسباب سندرسها .

أقوال المؤرخين فيه

مما لا شك فيــــه أن نجاح ابن السنوسي كان عظيمـــاً بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي جابهتـــه . ويعود الفضل الأول في هـذا النجاح لشخصيته الفنية بميزات كثيرة . وقد تحدث عدد من المؤرخين عنــــه فقال بريتشارد : « إن أحداً لا يستطيع انكار أن ابن السنوسي كان رجلاً عظيماً وأن ما حققه في حياته كان عظيماً . ومما يقال عنه إنه كان طوالاً بين الرجال ، وخطيباً مصقعاً وذا مظهر متميز ، ومعلماً حكيماً . ويمكن تقـدير شخصيته الدينية عندما نلاحظ أن عدداً من الجزائريين والتونسيين والمراكشيين تأثروا إلى درجة عظيمة بشخصيته حتى أنهم غادروا أوطانهم وتبعوه في رحلاته ، وأن بدو الجزيرةالعربية وليبيا -الذينهم أناس غافلونغير مبالين -قبلوه مرشداً لهمفي

الناحيتين الروحية والزمنية . وكذلك فإن قدراته الجسمية كانت ملحوظة . فقد درس بجد منذ أن كان ولداً صغيراً في المدارس القرآنية في موطنه الأول وفي الشمال الافريقي والجزيرة العربية ، واستمر مقبلاً على المعرفة في مكتبته في جغبوب حتى وفاته . كما أنه علم في مدارس الجزائر ومراكش وتونس وطرابلس وبرقة ومصر والحجاز واليمن . وقد صرف أشهراً كثيرة من حياته في الاسفار مع قوافل الجمال البطيئة ، وحج ثلاث مرات إلى مكة . وبالرغم من هذا النشاط الجم فإنه وجد وقتاً لكتابة عدد من الأبحاث. وقد بدأ مهمته كرئيس لنظام تبشيري جديد في وقت متأخر من حياته إذ كان في الخمسين عندما أوجـــد الزاوية الأولى في الجزيرة العربية . واستطاع في خلال العشرين السنة التالية أن ينشر السنوسية في غرب الجزيرة العربية وفي شمال افريقيا . وقد استمر النشاط الدعوي في هذه الامكنة بعد وفاته حيث كانت تنشأ الزوايا الجديدة وتنتشر باستمرار وخصوصاً في الصحراء والسودان [١] » .

وقال زيادة : « كان نجاح ابن السنوسي عظيماً ، ويمكن أن يقدر هـــذا النجاح بصورة أفضل إذا ما تذكرنا العقبات التي وقفت أمامه وعمل ضدها . ومن المؤكد أن نجاحه يعود إلى شخصية قوية كانت علمية وروحيـــة ومثالية ومتميزة عن رفاقه ومعاصريه [٢] » . وتحدث رين عن الكمال المثالي والتفوق العلمي الذي امتاز به ابن السنوسي ، والاخلاص العظيم مما اعطاه سلطة عظيمة على من كانوا على احتكاك به [٣] . كما تحدث آدمز بمثل هذا عن ابن السنوسي وختم كلامه قائلاً :

« وعلى أية حال فإن ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحس عملي دقيق للأحداث [٤] » . .

---

١ ـ بريتشارد ص ١٨، ١٩ . ٢ ـ زيادة ص ٥٠ . ٣ ـ رين ٤٩١ .
٤ - Adams 10

ووصفه ستودارد بأنه « كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح [1] » . كما قال فيه المؤرخ التركي أحمد حلمي : « إن من يمعن النظر في عظمة المقصد وجلالته وفي قدرة الوسائط وفقدانها وجسامة المشكلات التي اقتحمها المؤسس وقاسها على الجمعيات الأوربية والشرقية لايمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه [2] » . أما الأشهب فرأى في شخص ابن السنوسي « أمة قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن فكان عدواً للجهل وخصماً للاستكانة وضداً للأفكار العقيمة [3] » .

والحق أن ابن السنوسي فرد من النخبة المؤمنة تعهد نفسه بالرعاية عاملاً على الارتفاع بها ، ودرس الواقع المحيط به الذي كانت تعيشه أمته المسلمة ، وفكرّ طويلاً في حقيقة الداء الذي كان متغلغلاً في أمته ، والعلاج الشافي له . حتى إذا ما استبانت له طريق الاصلاح قام يدعو الناس إليها . ويُعجب الدارس لتاريخ ابن السنوسي من إخلاصه لافكاره ودعوته ومن دأبه على العمل ومن تحرر فكره ومن جمعه بين القيادتين الفكرية والتنظيمية ومن شيمه وأخلاقه الكريمة. وتبرز هذه الصفات كلها في صفحات حياته فقد نذر نفسه لدعوته وأفكاره ولم تثنه العقبات عن الاستمرار في العمل ، ونادى بالاجتهاد في وقت كانت المناداة به كفراً في نظر الناس ، وألف الكتب ونظم الحركة ثم تحلىّ طوال حياته بأخلاق الفرد المسلم . ومع أن ابن السنوسي سبق عصره في أمور منها دعوته الاجتهادية ونظراته السياسية الا أنه أخذ من عصره بعض سماته . وموجز القول إنه رجل عظيم .

---

١ ـ ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي المجلد الأول . ٢ ـ نقلاً عن الأشهب ١٧٨ برقة .
٣ ـ الأشهب برقة ١٧٧ .

الفصل الرابع

محمد المهدي السنوسي
ونمو الحركة السنوسية

ولادتــه :

محمد المهدي هو الابن الأكبر لمحمد بن عـــلي السنوسي وخليفته في رئاسة السنوسية . وقد ولد – كما سبق وذكرنا – في الجبل الأخضر في محل يقال له ماسة، يقع بجانب زاوية البيضاء، في شهر ذي القعدة من سنة ١٢٦٠هـ.(الموافق نوفمبر ١٨٤٤ م .) . ويذكر احمد الشريف في تاريخه « أن ابن السنوسي كان في درنة عند ولادة ابنـــه المهدي ، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية قال : كان رجل يخرز طبلاً فمر به جماعة وهو يخرز . قالوا له : مــاذا تفعل ؟ قال : أذايبس تسمعون صوته . ثم قال لحميه احمد بن فرج الله : هذا المولود الذي ازداد على ابنتك يقف موقفــاً يجري فيه الدم مجرى الماء في الوادي . وكتب لعمران بتسميته محمــد المهدي وبعد مدة أرسل بالقدوم بزوجته إلى درنة وتسليم ابنه للمرضعة [1] . » ويبدو مما رواه أحمد الشريف أن سرور ابن السنوسي بولادة المهدي كانت عظيمة « حتى أن مريديه لم يروه قط في مثل تلك للسعادة اللهم إلا ليلة زفافه بأم المهدي » . ومبعث هذا السرور بالإضافة إلى ما يبعثه الشعور بالأبوة من سرور هو شعور ابن السنوسي الذي كان قارب الستين عندما رزق بابنه بأن هذا الابن سيخلفه في القيام بالدعوة ويكمل ما بدأه هو من أعمال . وهذا الشعور ظاهر من الحكاية التي قالها لمن حوله فكأنه ذلك الرجل الذي يخرز طبلاً ويعد أمراً. وعندمـــا

---

١ ـ احمد الشريف ، المخطوط ص ٧٤ .

سئل عما يفعل افهم سائليه بأن ما يعمله لا يظهر إلا بعد إتمام الطبل حيث يسمع الصوت ، وكذلك بالنسبة له فإن الناس سيعرفون أهميـة ما رتب عندما يشب ابنه وينضج ويقوم بدوره .

وقد بقي ابن السنوسي في درنه بجانب أهله إلى أن وُلد ابنه الثاني سنة ١٢٦٢ هـ . (الموافق ١٨٤٦) .« وعندما كتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثاني رد له الجواب بتسميته محمد الشريف قائلاً له : إننا لا نحيد بأسماء ابنائنا عن أسماء النبي (ص) وإنما يختلفون في الألقاب والكنى فكما سميت الأول محمد المهدي ليحوز أنواع الهداية فسمي هذا محمد الشريف ليحوز أنواع الشرف .. ثم شرق للحجاز [1] » .

وتعهد ابن السنوسي ولديه بالرعاية والتربية واضعاً نصب عينيه الدور الذي يجب أن يقوما به وخاصاً المهدي بنصيب أكبر من الاهتمام . وقد كان على اتصال دائم اثناء اقامته الثانية في الحجاز بالإخوان الذين عهد إليهم بمهمة الاشراف على ولديه في برقة. وعندما أتم المهدي الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للاخوان الكافلين له قائلاً : ادخلوه الكتاب وعلموه الوضوء والصلاة . ففعلوا كما أمر . ولما توسط في السابعة أرسل إليهم يوجهونه إليه مع زوج خالته [2] . وقـد تحدثنا في الفصل الثاني عن رحلة المهدي هذه . وبقي محمـد المهدي في الحجاز – بعد أن غادره أبوه إلى برقة – ليتلقى علومه وقد تبعه أخوه ومكث معه في الحجاز . ثم عاد المهدي إلى برقة بعـد انتقال والده للجغبوب فوصلها سنة ١٢٧٤ . وقد نقلنا أخبار رحلته هذه في الفصل الثاني . وعاد بعده أخوه محمد الشريف قبل وفاة والدهما بقليل .

ويلاحظ أن ابن السنوسي عني عناية كبيرة في السنتين الأخيرتين من حياته

---

١ ـ احمد الشريف ، المخطوط ص ٧٦ .

٢ ـ احمد الشريف ، المخطوط ص ٧٦ .

بتوطيد مركز ابنه المهدي بين الإخوان ، واهتم اهتماماً كبيراً بإلقاء الأضواء عليه والرفع من شأنه . وأغلب الظن أنه فعل ذلك لشعوره بدنو أجله فرغب أن يقوي أبنه ليخلفه في رئاسة الحركة حرصاً على مستقبلها . كما أنه أراد أن يتغلب على احتمال وقوف سن المهدي الصغيرة عقبة أمام توليته .

ومما يروى عنه في هذا الصدد أنه قال : نحن من جماعة المهدي . فقالت له زوجته البسكرية :هو الذي من جماعتك أو أنت من جماعته ؟ فقال : لا نحن الذي من جماعته . » كما قال في مناسبة أخرى « المهدي له السيف والشريف له الكتاب . ثم ألبسه السيف وقال له تقدم لتصلي بنا . » وقال أيضاً : « لي ثلاث سنوات وأنا عائش في ظل المهدي [1] . » ويذكر الاشهب أن ابن السنوسي كان يقف احتراماً للمهدي عندما يستأذنه للخروج . وأنه أصلح له حذاءه مرة وقال للإخوان « اشهدوا أنني خدمت المهـــدي » بينما كان العرق يتصبب من جسم المهدي [2] . كما حكى الحشائشي في معرض حديثه عن المهدي « أن والده كان يقبل كفه فرحاً به لما يرى فيه من الكمال الرباني [3] . » وفي مرض ابن السنوسي الأخير قال : « ما خرجنا من الدنيا إلا استحينا من نور المهدي [4] . » ويبدو أن المهدي فهم غرض والده فاعتبر كلامه هذا مجرد تشجيع ولم يأخـــذه على ظاهره — وقد أوردنا كلامه لأحمد الشريف في هذا الصدد [5] — ولو أنه يبدو لنا أيضاً أن ابن السنوسي لم يقل في ابنه ما قال لمجرد توطيد مركزه فقط بل اعتقاداً منه أيضاً بما يقول وإعجاباً منه بأخلاق ابنه وشمائله .

طفولته وعناية والده به :

ويمكننا أن نستنتج من الأخبار القليلة التي رواها مؤرخو السنوسية عـن

---

١ ـ احمد الشريف ، المخطوط ٩١، ٩٢ . ٢ ـ الأشهب المهدي ص ٨٧ .
٣ ـ الحشائشي المقال ص ٧ . ٤ ـ احمد الشريف المخطوط ١٢٠ .
٥ ـ انظر الفصل الثاني .

طفولة المهدي وصباه أنه كان ذكياً ، حسن الخلق ، رفيع التربية . وهذا يفسر لنا إعجاب والده به إلى درجة أن يقبل كفه فرحاً به . ويروي الأشهب نقلاً عن الملك ادريس قصة تبين أخلاق المهدي مؤداها أن جواداً مسرجاً قدم في مرة من المرات ليركبه المهدي وهو في سن الثالثة عشرة فرفع رجله ليضعها في ركاب السرج فلم تصله فتقدم أحد الإخوان وانحنى ليطأ المهدي على كتفيه حتى تصل رجله الركاب . فرفض ذلك رفضاً باتاً واقتاد الجواد إلى حجر فعلاه وركب الجواد . وقد استحسن والده هذا التصرف وابتسم راضياً [1] . ويقول الأشهب « وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه فكانوا يبدون إعجابهم . »ويروي ستودارد قصة لم أجد لها أصلاً في أي مصدر آخر عن شجاعة المهدي هي أن ابن السنوسي أراد اختبار ولديه فدعاهما إليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما إلى الأرض ، فهوى المهدي بنفسه فأدرك الأرض سالماً ، ولبث الآخر في عالي النخلة فقال ابن السنوسي لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدي إنما هي لولدي هذا المهدي الذي لم يتردد في تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل [2]. »

والقصة بعيدة التصديق ظاهرة الوضع تبدو فيها المبالغة . ومما يؤكد حكمنا هذا عليها أن أخبار المؤرخين تتفق على أن ابن السنوسي لم ينص صراحة على خلافة ولده المهدي له. وعلى أية حال فلو أن القصة كان لها أساس من الصحة وخلصت من المبالغة لدلت على شجاعة المهدي وجرأته وورعه . هذا ويمكننا القول إن ابن السنوسي اطمأن قبل وفاته إلى قوة مركز ابنه بين الإخوان. وقد أوردنا ما يدلل على ذلك وهو حديثه لبعض رجال القبائل حول رأيهم فيمن

---

١ – الأشهب المهدي ص ٨٧ .

٢ ـ ستودارد، المجلد الأول .

يخلفه فكان ردهم أنهم سيمتثلون إذا كان ابنه الخليفة

كما حرص ابن السنوسي أن يزوج أبنه المهدي في حياته ، فزوّجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنـــة عمران بن بركة وذلك سنة ١٢٧٥ – ١٨٥٨ . وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياتــه سنة ١٨٩١ [١] .

مبايعته

وعندما توفي ابن السنوسي في صفر ١٢٧٦ كانت سن محمد المهدي حوالي ستة عشرة سنة ، ومع ذلك فقد بايعه جميــع الإخوان رئيساً للسنوسية . وقد وضح هذا الاتجاه لمبايعته في الخطبة التي ألقاها عمران بن بركة في تأبين ابن السنوسي وقبل دفنه حيث دعا فيها قائلاً « . . وأن تجمل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدي ومولاي السيد محمد المهدي، وصنوه المنيف وشقيقه سيدي ومولاي محمد الشريف، ويجبر بهما صدع الدين ويلم بهما أفئدة الاتباع والمريدين إنه ولي ذلك والقادر عليه.»[٢] وينفرد الأشهب في الحديث عن ظهور رأي يرى العهود بمهمة الطريقة مؤقتاً وإلى حين أن يكبر المهدي لشخص آخر هو عبد المتعال بن احمد بن ادريس ويقول الأشهب « إن السيد عبد المتعال التحق بوصية استاذه السنوسي بعد وفاة والده وبدأ يأخـذ عنه العلوم ، وصحبه من الحجاز إلى الجغبوب . . وكان يكبر الامام المهدي سناً وفي هذه الحالة كان من رأي السيد فالح الظاهري أن يعهد للسيد عبـد المتعال

---

١ ـ الأشهب المهدي ٧٧ .

٢ ـ أحمد الشريف ، المخطوط ص ٩٦ .

بمهمة الطريقة السنوسية مؤقتاً ليتفرغ المهدي لإتمام تعليمه . غير أن هذا الرأي ولد ميتاً ولم يأخذ به الاخوان بل اجمعوا على مبايعة المهدي .. وقد بايعوه وفيهم الظاهري قبل دفن ابن السنوسي [1] » .

دراسته

وتابع محمد المهدي وأخوه محمد الشريف دراستيهما بعد وفاة والدهما ، وقرأا العلم على اثنين من كبار الاخوان هما عمران بن بركة وأحمد الريفي . ويبدو أن ابن السنوسي رسم ذلك قبل وفاته إذ يروي عنه أحمد الشريف أنـــه قال في مرضه الأخير وهو في انتظار قدوم ابنه الثاني من الحجاز « مرادنا نجمعهما (يعني ولديه) ونتركهما مع عمران يقرأون العلم ونسافر [2] . » ويعرفنا أحمد الشريف بعمران بن بركـــة فهو من بلدة زليطن بطرابلس الغرب ، ولد سنة ١٢١١ هـ. وتوفي سنة ١٣١١ هـ . بالجغبوب ، والتقى بابن السنوسي أثناء مروره بطرابلس سنة ١٢٣٨ فرغب في مرافقته ولكن ابن السنوسي أجل ذلك حتى يستدعيه ثم استدعاه قبل تغريبته الأولى من الحجاز . وأصبح عمران من كبار الاخوان الذين يعتمد عليهم ابن السنوسي وقد قال عنه مرة « أخونا عمران يأخذ من حضرة الحق بلا واسطة [3] . كذلك يعرفنا أحمد الشريف بأحمد الريفي ، فهو مولود ببلدة قلعية بالريف سنة ١٢٤٤ هـ. وتوفي بالكفرة سنة ١٣٢٩ هـ . والتقى بابن السنوسي في الحجاز سنة ١٢٦٧ هـ. فلازمه وأصبـح من كبار الاخوان وقد شبهه ابن السنوسي بالملائكـــة وكان على حد قول أحمد الشريف . « بحراً في جميع العلوم وقد قرأ في فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب والهندسة والرياضيات [4] » . وقد تلقى بعض هذه العلوم عن ابن السنوسي» .

١ – الأشهب المهدي ص ٢٩ . ٢ –احمد الشريف ، المخطوط ٩١ . ٣ – احمد الشريف المخطوط ١٠٨ . الأنوار القدسية ص ١١ . ٤ – أحمد الشريف المخطوط ص ١٠٨ ، ارسلان ص ١٦٠ ، ج٢ .

ولقد كان لهذين الرجلين دور كبير في تنشئة المهدي وفي تسيير دفة الحركة . والواقع أن شخصية محمد المهدي بدأت تتكون في حياة والده الذي ساهم في رسم خطوطها الرئيسية بتربيته على نمط معين . وأنهـــا اكتملت بعد ذلك وساهم استاذاه في توضيـــح تلك الخطوط .وقد سارا في تعليمه على النهج الذي أخذاه عن ابن السنوسي . ولو أننا تأملنا الدراسة التي تلقاها محمد المهدي لرأينا أنهـا الدراسة التقليدية التي سادت في عصره والتي تلقاها من قبله والده والاخوان . فقد حفظ القرآن الكريم كما حفظ الكثير من المتون الفقهية وغيرها من الكتب العلمية السائدة في عصره وتلقى بعض هذه العلوم عن والده وأكثرها عن احمد الريفي . ويذكر الحشايشي أن المهدي « أخذ القرآن العظيم عن مؤدبه الشيـخ هاشم السفاقسي وعن الحافظ الشيخ سيدي مدين وأخذ علوم التفسير والتصوف عن والده وعلوم الادب عن فريد عصره الشاعر الشيـخ محمد ابو سيف والحديث والأصول عن الشيـخ احمد الريفي وجميـع هؤلاء الفحول من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط والمغرب الأدنى، فبرع في سائر العلوم معقولها ومنقولها وكان معتنياً كثيراً بعلوم القرآن والتفسير [1] » . ولا شك في أن هذه الدراسة وهؤلاء المدرسون قد أثروا في رسم الاتجاه الذي سيسير فيه المهدي وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه والده قبله . كما ساهموا في تكوين شخصيته التي قادت الحركة مدة طويلة .

وقد تميزت هذه الشخصية بصفات عدة أبرزها أنها قيادية ، ويلاحظ أن مربّوه ركزوا على هذه الصفة . كما أنها كانت مصبوغه بصبغة الإسلام حتى عكست أفعال المهدي خلق المسلم . ومما ساعد على ابراز هـــذه الصفات الجميلة بالاضافة إلى التربية استعداد المهدي الذي كان متوقد الذكاء . وقد بدت عليه مخايل الذكاء منذ طفولته وأقبل على العلوم وحفظ القرآن وهو لم يبلغ الرابعة

١ ـ الحشايشي المقال ص ٦ .

عشرة وفي قول ، وهو في الثامنة . ولقــد وصلتنا له أكثر من صورة وصفية من أناس شاهدوه وتحدثوا معه .

وصفه

يقول أحمد الشريف في وصفه « . . . فهو مربوع القامة ليس بالطويل ولا بالقصير ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، واسع العينين أكحلهما ، أهدب الأشفار أشعر الحاجبين أقرنهما بخط رقيق من الشعر الخفيف ، أقنى الأنف يرى فيه احديداب ، مدور اللحية كثها ، واسع الفم أفلج الثنايا ، واسع الجبهة أصلع الشعر ، شثن الكفين ، بعيد ما بين المنكبين ، خمصان القدمين ، في خده الايمن خال ، يقتصد في مشيته ، وهو رضي الله عنــه يتكلم فيما يبدو له ولا يقول إلا حقاً ، منطقه حكمة أكثر ضحكه التبسم واذا اشتد به الضحك ضحك حتى تترقرق عيناه بالدموع ولا يسمع له صوت ولا قهقهة وإذا أراد التكلم يمسح بيده على فخذه اليمنى ولسانه فيه ثقل في بعض الكلمات وهو رضي الله عنه أجل الناس ورعاً وأكثرهم زهداً ، أوقاته كلها معمورة بالعبادة المتنوعة ولا ينــام في الغالب إلا نحو ثلاث ساعات ما بين ليل ونهار . وهو رضي الله عنه من الغاية العظمى في العــلم والحلم والشفقة والرأفه والرحمة على جميع الأمة ولا يحقر أحداً ويقوم لقاصده الكبير والصغير والجليل والحقير . متواضع خاضع خاشع بالمؤمنـــين رؤوف رحيم يمشي على الارض هوناً وعليه السكينة والوقار ، شديد الحيــاء لا يقابل أحداً بما يكره ، ذو هيبة وسطوة كأنه اسد ضاري ، كفه اسخى من البحر الزاخر والغيث الماهر كأنما عناه القائل بقوله :

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وهو رضي الله عنه أكمل الناس خلقاً وخلقاً ، وراثة مصطفوية غير مشوبة بأخلاق دنية ، كما قد قيل يثبت للوارث ما ثبت للموروث . قال البوصيري :

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف   وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

ولما قدم من المدينة ودخل على والده طلب لوحه لينظره فوجد أوله «وإنك لعلى خلق عظيم» فاستبشر به رضي الله عنـه غاية وصار كل من دخل عليه من الاخوان يخبره فكان فيه إشـارة وبشارة . فهو سليمان زمانه ملوكانه وحكمة لقمانه، وصوته داودي وجماله يوسفي وخلقه محمدي .»[1] ويعطينا هذا الوصف فكرة واضحة عن المهدي بالرغم من أننا تلمس فيه مبالغة قـد تكون طبيعية بالنسبة لأحمـد الشريف الذي كان شديد الاعجاب بعمه إلى درجة أنه لا يرى فوق طبقته أحداً إلا سيد الكائنات (ص) — كما نقل عنه شكيب ارسلان ـ ونستطيع مع ذلك بتخليصنا الوصف مـن المبالغة ومن أثر أسلوب عصر الانحطاط أن نتوصل إلى أن المهدي كان يتمتـع بأخلاق رفيعة بالاضافة إلى وسامة في الوجه . وهذا ما يؤكده صادق المؤيد في وصفه له . وقد قابله مرات أثنـاء زيارتيه له في الجغبوب والكفرة عندما بعثه السلطان عبـد الحميد . فصادق المؤيد يقول : «هو أبيض الجسم متوسط القامة أسود الحاجبين واللحية، جميل الصورة لدرجة عظيمة جداً، تظهر على وجهه علامة البشاشة ولا تفارقه أبـداً . وهو مثل أبيه عالم يعمل بعمله . وعنده مكتبة كبيرة جداً وتصله كل الكتب التي تطبع في مصر بواسطة مريديه . محادثته لطيفة ومفيدة ومع ذلك فهو لا يتكلم كثيراً .

ويلقي وجهه المنير الممزوج بالحـلاوة الهيبة والحب في قلوب من أمامه . وهو متواضع فوق الحد ورقيق الجانب يقابل زائريه واقفاً فإذا قبلوا يده قبل أيديهم بدوره .. والسيد المهدي غني ولكن لباسه متواضع وحياته متواضعة كذلك، فـهو يجلس على بساط فوق حصير سواء في الجغبوب أو في الكفرة . ويتألف لبـاسه من ثوب وجبة وبرنس كبير، ويغطي عمامته بطيلسان

---

١ — احمد الشريف المخطوط ١١٨ . انظر أيضاً فؤاد شكري ص ٥٧ مع وجود بعض التعـديل .

(قماش رقيق) وهو يقابل كل من يأتي لزيارته أحسن مقابلة ويستضيفهم ثلاثة أيام . وهو محبوب ومحترم في الشمال الافريقي ويعتبره أتباعه قطب الزمان وحتى اليهود والنصاري في برقة يحلفون باسمه . » [1] ويـدل هذا الوصف الصادر عن رجل يعتبر مثقفاً بالنسبة لعصره ، ومحايداً في عواطفه على أن شخصية المهدي كانت قوية تتحلى بأخلاق فاضلة ، وكان تأثيره على الناس عظيماً كما أن وسامته كانت ملحوظة . وقد أطلق عليه أتباعه لقب البدر للتعبير عن روعة هـذه الوسامة . ويرد هذا اللقب في عدد من الكتب العربية والأجنبية . [2] وفي قصيدة لأحد الاخوان واسمه السني ، يمدح فيها المهدي يقول :

لله ما أورث البدر السنوسي من   نفـع لأمة خير الخلق ينتشر

كذلك يصفه الحشايشي صاحب الرحلة الصحراوية قائلاً : « ... محمد المهدي المشهور بالبدر لجماله .. أما نعته فكأنك تراه فهو أبيض اللون ، أطول من الربعة أقرب لاستدارة الوجه منه إلى الطول ، أحور ذو شعر كثيف بذراعيه ، بوسط لحيته شيب ، أقنى الانف جميـل المنظر يغلب عليه السكوت والمودة والوقار ، رخيم الصوت دمث الاخلاق تميل النفوس لرؤيته .. وأما لباسه فهو الشاشية التونسية المشهورة بالجبل الاخضر ويجعل تحتها كمة عراقية بيضاء تظهر حواشيها من تحت الشاشية ويجعل فوقها عمامة لطيفة مقدار أربع طيات ويلبس سورية وفوقها نـوع قفطـان اسكندراني يلتف فوقه بحرام من صناعة الجريد أو الغرب ليس به حرير . ثم يجعل فوق جميع ذلك برنساً جريدياً من النوع العال وينتعل بلغة من عمل فاس . هذا المعتاد غالباً

---

١ ـ المؤيد ص ٦٨ .

٢ ـ يرد مثلا في كتاب Falls : Three Years in Libya Desert وفي كتاب احمد الشريف .

في لبسه ولبس غالب السنوسيين. وللشيخ رضي الله عنه ولإخوانه حب كثير في الروائح الطيبة خصوصاً العطر الورد فهو عندهم من أنفس النفايس ..»[1] فهذه الصور الوصفية الثلاث تتفق في إبراز المهدي كنموذج كامل للزعيم الديني المسلم كما كان يبدو في القرن الماضي، وكما لا يزال يبدو في بعض قطاعات المجتمع الإسلامي في هذا القرن. وإذا كان الرحالة هاملتون قد وصف محمد بن علي السنوسي بأنه يمثل القديس العربي فإن هذا الوصف يصدق بالقدر نفسه على المهدي. والواقع أن المجتمع الإسلامي توارث في أحقابه المتتالية الصورة المثلى للإنسان المسلم وحرص عليها وعلى استكمالها. ومع أن بعض التطورات كانت تدخل عليها بفعل الزمن والبيئة إلا أن خطوطها الرئيسية ومثلها العليا بقيت كما هي، واستمرت التربية تستهدف استكمالها.

سير العمل في الجغبوب

بقيت الجغبوب مركز الحركة الرئيسي بعد وفاة ابن السنوسي، حيث استقر بها محمد المهدي. وقد دام بقاؤه فيها حوالي ست وثلاثين بين (١٢٧٦ – ١٣١٣) (١٨٥٩ – ١٨٩٥)، انتقل بعدها إلى الكفرة. وفي خلال تلك السنوات كان المهدي يشرف على سير الحركة من الجغبوب، ويعاونه عدد من كبار الاخوان يكونون ما يشبه المجلس الأعلى للنظام، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا. ويقول الأشهب إن المجلس كان يضم بالاضافة إلى كبار الاخوان المقيمين في الجغبوب كبار رؤساء الزوايا .. وأنه كان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم الأمور برياسة محمد الشريف ثم تعرض قراراته على المهدي.[1] وقد وزعت الأعمال الرئيسية على أفراد هذه الفئة من كبار الاخوان فاختص كل واحد منهم بجانب، فكانت لمحمد الشريف

---

١ ـ الحشايشي، المقال.

أخي المهدي مهمة الإشراف على الجانب العلمي ؛ وقد أشار والده لاتجاهه العلمي في قوله : « للمهدي السيف وللشريف القلم . » أما الآخرون فواحـــد للقضايا المالية وثان للمراسلات وثالث للمقابلات وما إلى ذلك من اختصاصات يحتاجها النظـــام .

وقد انتظم سير العمل في الجغبوب التي نمت حتى اصبحت قرية – كما يقول المؤيد – وكان عدد سكانهايقارب الألف نصفهم من المقيمين والنصف الآخرمن غير المقيمين ينزلون فيها لمدة مؤقتة . وظهر على الجغبوب طابع الحركة السنوسية فحفلت بالنشاط العلمي والزراعي . ويتحدث الأشهب والمؤيد عـن انتظام سير العمل في المعهد حيث وزع تلاميـذ المدارس القرآنية على أقسام ورتبت بدقة أمور الدراسة وكل ما يتعلق بالطلاب . كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة الخ . كما استصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور .[٢] وقد ارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الافريقي والصحراء وبين مصر والمغرب . كما كانت قبلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية . كذلك انتظم سير العمـــل في الزوايا بفضل التنظيم الدقيق الذي سادها . وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين ، فالرسائل مستمرة بين المهدي ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل في طريقها ، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال . وتضمنت الرســائل تعاليم المركز للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز بالاضافة إلى أخبار الحركة والإخوان .[٣]

---

١ – الاشهب ، المهدي ص ٣٥ .

٢ – الأشهب ، المهدي ٤٤ ، المؤيد ص ٦٨ .

٣ – هناك مجموعة كاملة من هـــذه الرسائل بحوزة الشيخ منصور المحجوب شيخ الجامعة الاسلامية في ليبيا . وقدكانت فيحوزة ابيهوجدهمن قبله . وهي رسائل مبعوثة من ابن=

نمو الحركة

ونمت الحركة السنوسية في عهد المهدي نمواً ملحوظاً ، فتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف . وانتشرت هذه الزوايا في صحراء ليبيا وعلى طريق مصر وطريق تونس وفي واداي وانحـــاء أخرى من الصحراء الكبرى . ومن الملاحظ أن هذا الانتشار كان أكثر ما يكون في الاراضي الصحراوية وبـــين قبائل بدوية . ولقد كان من اسباب هذا النمو السريع للحركة في عهد المهدي بالاضافة إلى طبيعة الحركة التي تتفق مع حاجات المجتمعات القبلية ، ما يتعلق بالمهدي نفسه . من ذلك طول المدة التي قضاها رئيساً للنظام إذ تجاوزت أربعين سنة ، فتمكن أثناءها من تركيز العمل الذي بدأه والده ، ووجد متسعاً من الوقت لتوطيد دعائم النظام والتعرف على مختلف قبائل الصحراء ونشر الدعوة بينهم . ومن ذلك أيضاً اعتقاد عامة تلك القبائل بمهدويته مما جعلها تهرع لتقديم الولاء له وتخلص في اتباعه . ثم إن سياسته التي استهدفت البعد عـــن السلطة العثمانية وتجنب الاحتكاك بهـــا وبالاوربيين دفعته إلى حصر جل اهتمامه بنشر الدعوة في الصحراء . كما كانت اخلاقه ومزاياه الشخصية من الأسباب المهمة في اقبال سكان الصحراء عليه . ويحسن بنا أن نقف هنا لنتناول بالبحث موضوع مهـــدويته .

مهـــدويته

يتبين من دراسة تلك الفترة أن جل اتباع السنوسية كانوا يؤمنون بمهدوية محمد المهدي ويقولون بها . وقد تردد هذا القول في شعرهم وزجلهم وكتاباتهم وأحاديثهم ، من ذلك ما جاء في قصيدة قالها أحد الاخوان واسمه الشيخ حسن

=السنوسي والمهدي إلى مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون . وتظهر هذه الرسائل التي درسناها انتظام الاتصال بين المركز والزوايا ، كما تعطي فكرة عن سير الحركة من الداخل .

وفا ونقلها احمد الشريف في تاريخه وجاء فيها :

إمام جليل بشرتنا به العلا على أنه المهدي قد كان في المهد
إمام إلى بيت النبوة ينتمي ولا شك عند اثنين في أنه المهدي [١]

ومن ذلك الفصل الذي أفرده احمد الشريف في تاريخه للتحدث عن دلائل مهدويته مستنداً إلى الاحاديث النبوية الواردة في ظهور المهدي وعلى ما قاله ابن السنوسي في هذا الصدد . وقد لاحظ بعض الرحالة الأوربيين أن بدو الصحراء اعتقدوا بمهدويته ولم يؤمنوا بحقيقة موته عند وفاته . [٢]

ولو أننا بحثنا عن أول بروز هذه الفكرة لرأينا أنها ظهرت في حياة ابن السنوسي الذي نعتقد أنه كان مؤمناً بها . ونعتمد في قولنا هذا على ما أورده احمد الشريف من حكايات عن جده ، من ذلك مناقشة ابن السنوسي مع عثمان المرغني حول المهدي واحتكامها لاستاذهما ابن ادريس الذي نفى قول المرغني عنه بأنه ـ أي ابن ادريس ـ المهدي، وأشار إلى ان سر المهدي في ابن السنوسي ـ وقد أوردنا الحكاية في الفصل الثاني ـ ومن ذلك ما قاله ابن السنوسي لزوجته البسكرية عندما سألته لماذا سمّى ابنه المهدي ! فأجاب : « ليحوز جميع انواع الهداية ونرجو الله أن يجعله هادياً ومهدياً» وفي رواية أخرى « رجوت أن يكون المهدي المنتظر . » ولقد سبق أن قلنا إنه من الممكن ان يكون ابن السنوسي قد قال بهذا القول واعلنه لاعتقاده به من جهة وليعزز موقف ابنه الصغير السن عند وفاته .

وبعد وفاة ابن السنوسي نمت فكرة مهدوية المهدي وانتشرت وصار لها براهينها عند الناس ، بعد أن التمسوا لها ما يعززها من الاشارات والظواهر.

---

١ ـ احمد الشريف المخطوط ص ٥ .

2 - Falls : Three Years in Libia Desert .

وقد ساعدت بعض الاشارات والظواهر على تثبيتها مثل كون اسمه محمداً واسم أبيه محمداً واسم أمه فاطمة ووجود شامة على خـده وبلوغه الاربعين في سنة ١٣٠٠هـ وولادته قرب بلدة ماسة.[1] ولكن السبب الرئيسي لخروج هذه الفكرة ليس هذه الاشارات والظواهر وانما شيء آخر يتعلق بوضع المجتمع وظروفه . أما تلك الأشياء فتأتي بعد ذلك للتدليل والاثبات .

إن السبب الرئيسي الذي دفع ابن السنوسي للاعتقاد بمهدوية ابنه هو سوء أوضاع المجتمع الإسلامي وقوة التحدي الذي جابهه من الغرب . فضعف السلطة العثمانية وعجزها عن ضبط الامن خصوصاً في المناطق النائية، وفساد الإدارة، وتفكك الدولة ، والتأخر الاقتصادي والانحطاط الخلقي من جهة ثم بروز قوة الغرب الاوربي ومحاولته التسلط على مصر ثم نجاحه في احتلال الجزائر وتهديده للوطن الاسلامي كله من جهة أخرى جعل ابن السنوسي يطيل التفكير في هذه الاوضاع ويتلمس الحلول لها ، وقد رأى نتيجة فهمه للظروف المحيطة به مـا سيحل بوطنه الاسلامي على أيدي الاوربيين فتوقع غزو الكفار لوطنه واحتلالهم له ـ وظهر هذا التوقع جلياً في حديثه مع الشيخ الدرناوي ـ . ثم قاده التفكير الطويل في طريقة الانقاذ المحفوفة بصعوبات جمـــة إلى أن يرجو ويتمنى ظهور مهدي يكون الانقاذ على يديه . وذلك بالقيام بالدعوة في مكان منعزل بعيداً عن كل ضغط حتى يتكون جيش المهدي ويقوى فيعود لتخليص بلاد المسلمين مـن الكفار والمفسدين ـ وقد وضح هذا أيضاً في حديثه مع الشيخ الدرناوي ـ[2] كذلك فإن سوء أوضاع المجتمع الاسلامي وقوة التحدي الغربي هي التي هيأت عقول الناس لتقبل الفكرة ودفعتهم لانتظار منقـــذ مهدي . ويقول احمد الشريف « وبعد

١ ـ هناك اعتقاد بين المغاربة ان المهدي يخرج من ماسة . وهناك بلدتان تحملان هذا الاسم إحداهما في المغرب الاقصى والأخرى في الجبل الأخضر . كما انهم يعتقدون بأن المهدي سيخرج من أب اسمه محمد وأم اسمها فاطمة وسيكون له شامة تميزه الخ.

٢ ـ احمد الشريف المخطوط ١٢١ .

ظهوره رضي الله عنه (يقصد المهدي) استبشرت الأمة بالفرح ورفـــع الجور والقسط وظهور العدل .» [1] كما أورد قصيدة أنشدها احد الاخوان واسمه محمد السني وقال عنها « انها قصيدة بليغة يذكر فيها - الشاعر - غربة الدين وجور ولاة الاحكام الملحدين ونبذهم الشريعة المطهرة وعملهم بالقوانين ، ويبشر بطلعة سيدنا الامام الذي نوه بـه جده سيد الانبياء .» ويبـدأ الشاعر قصيدته بذكر زعزعة الدين ثم يسترجع ذكرى الرسول (ص) وكيف قضى واصحابه على الكفر ثم يتسـاءل : هل هناك من منقذ للدين الآن، ثم يبشر أن المنقذ جاء وهو المهدي . [2] فهذا يشير الى انتظار الناس للمنقذ بعد أن ساءت الاحوال . وقد أورد أحمد الشريف اكثر من حكاية تدل على هذا الانتظار فقال : « وحكى سيد محمد السني عن الشيخ محمد البغدادي في شوال ١٣١٤ بمدينة طرابلس أنه رأى في المنام شخصاً مديد القامة من أكابر الصالحين أهل الكشف ، والناس محدقون به يسألونه عـــن أشياء وهو يخبرهم؛ قال فجئت لأسمع وانظر . قال : فسأله شخص : هل السنوسية على الحق؟ فقال بكلام قوي : على الحق . فقال : ويقال المهدي منهم . فقال له : منهم. فقال له : هل خرج ؟ فقال : نعم خرج. فقال: وأذن له الله؟ فقال : أذن له . فقال : وأنت أذنت له ؟ فقال: نعم أذنت له.»

....« وحكى أيضاً عن السعيد السعيد وهو موسوم بالصلاح انه لمدة سنتين أو ثلاثة رأى وهو في طرابلس كأن قائلاً قال له : ان الإمام المهدي قــد ظهر . قال : فمشيت أقصده وإذا يتبعه خلق كثير منهم مؤمنون ومنهم منافقون . أعوذ بالله من الكفر والنفاق قــال : فإذا هو رضي الله عنه يميز بين المنافقين من المؤمنين . قال : فادركني خوف شديد وخشيت أن يعدني من المنافقين . فقال فجئته وسلمت عليه وإذا هو متأهب للجهـــاد فقلت في نفسي : أمضي معهم للجهاد وانتظرت ما يبدأني به فقال : أنت وفرج هــــذا أمسكوا المطبخة

---

١ – احمد الشريف المخطوط ص ٣٥ .

٢ – « « « ص ٣٥ وما بعدها .

واطبخوا الطعام .[1] فهاتان الحكايتان – اللتـــان قصدنا اثباتهما كما أوردهما احمد الشريف – تكشفان عن عقلية ذلك المجتمع وتشير الاولى إلى ايمان هذه العقلية بالغيبيات وإلى توقع ظهور المهدي، كما تبين الثانية اقتران ظهوره بالجهاد. أما الفصل الذي كتبه احمد الشريف عن الاحاديث الواردة في المهدي وعلامات ظهوره واثبات مهدية عمه فيدل على حرص بعض علمـاء السنوسية على اثبات الاصل الديني للفكرة بالطريقة العلمية السائدة في ذلك العصر وهي الاعـــتماد على المنقول .

إن ظاهرة خروج « المهدي » وايمان الناس بالمهدوية من الظواهر التاريخية التي تكررت في تاريخنا الاسلامي . ومن الملاحظ أنها كانت تظهر كلمـا اشتد الضغط على مجموعة من الناس ، فتجد هذه المجموعة متنفساً لها في انتظار منقذ. وقد اقترنت هذه الفكرة بالدين فزادها الايمان بالغيبيات قوة واشتعـــالاً . والسبب في اقترانهـــا أن من طبيعة شعوبنا انقيادها للدين وميلها للغيبيات مما يدفعها إلى إلباس إرادتهـــا واحلامها ورغباتها ثوب الدين . ومن المتوقع ان تكون الاحاديث الشريفة التي وردت في موضوع المهدي المنتظر ممـا ساعد على اقتران فكرة المنقذ بالدين ، ولو أن ابن خلدون يضعف هذه الاحاديث .[2] وقد أفاد انتظار الناس للمنقذ في انهم حالما يخرج المنقذ – وهو عادة فرد من النخبة – يلتفون حوله ويسيرون وراءه لرفع الظلم عنهم وتغيير الاوضاع التي يشكون منها .

ولقد عمّ القول بمهدوية المهدي السنوسي بين الاخوان حتى قال بـه عامتهم وبعض علمائهم ، ويرى الأشهب أن هذا القول كان محصوراً في العامة[3] ،

---

١ _ احمد الشريف المخطوط ٢ : ٤ .

٢ _ انظر أحمد امين ،المهدي والمهدوية ص ١٠٨ .

٣ _ الاشهب ، المهدي ٨٩ .

ولكن الواقع أن عدداً من علماء السنوسية قالوا به ومنهم احمد الشريف. وهناك من لم يقل بذلك منهم ، ولو أن هؤلاء لم يعملوا على تغيير الفكرة السائدة .

ومما يروى عن أحمد الريفي أنه سئل عن مهدوية المهدي فأجاب «ليس على الله بعزيز أن يكون المهدي المنتظر ، وعلى كل حال فهو خير هاد ومهدي في وقتنا هذا ونحن قد اكتفينا بهديه [1] » . فهذا الجواب فيه دبلوماسية .

شخص واحد أعلن معارضته لهذه الدعوى وأبى الموافقة على القول بمهدوية المهدي السنوسي ، ذلك الشخص هو محمد المهدي نفسه . والأخبار الموثوقة متواترة على أنه كان ينفي هذا القول وينهى اتباعه عنه . ومع أنه سمع من أبيه قوله لكبار الأخوان « نحن من جماعة المهدي .. » ولا بد أنه سمع اقوالاً أخرى إلا أنه فهمها على أنها نوع من التشجيع له وعمل على رفع منزلته أمام الاخوان وخصوصاً وأنه صغير السن . لذلك نراه يقول لأحمد الشريف معلقاً على قول أبيه « وهذه عادته مع القاصرين ينهضهم بمثل هذا القول ... وكنت كلما سمعت منه شيئاً مثل هذا أقول: يريد (ر) اختبار عقلي [2] . » ومما يروى عن المهدي أن زوجة أبيه البسكرية سألته : أصحيح أنك المهدي المنتظر ؟ فأجابها : قيل لي إن هناك من يخرف بهذه الخرافة[3]. وقد أشار البستاني إلى عدم مسايرة المهدي لأتباعه في قولهم بمهدويته فقال : إن آهل البادية يعتقدون أنه المهدي المنتظر . قيل إن أباه كان ينوه لتلامذته بأن ابنه هـــذا هو المهدي ولذلك سماه محمد المهدي . ومهما يكن من صحة هذا القول فلا مراء في أن أهل البادية تعده كذلك وهم ينتظرون قيامه بفارغ الصبر ، وهو على ما يظن لا يقوم بدعوى المهدية على إرادة مريديه واتباعه [4]» . وعند سؤال الملك ادريس بن المهدي عن رأي أبيه

---

١ – الاشهب المهدي ص ٩٣ .
٢ ـ أنظر الفصل الثاني . ـ الانوار القدسية ص ٣٤ . ٣ ـ الاشهب ، المهدي ص ٩٣ .
٤ ـ البستاني ، المجلد العاشر ، مادة سنوسي .

في قول أتباع الطريقة بمهدويته أجاب : « كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة ، وأبداً لم يعتقد به . ولقد حدثني أحمد الشريف مرة أنه كان جالساً مع عمه يتناولان طعام العشاء فسأله عمه المهدي : ماذا كتبت في رحلتك ؟ فذكر له ما كتب ومنه الفصل الذي يتحدث عن مهدوية عمه . فكان أن نهره عمه بغضب وقال له : ما دليلك ؟ فرد أحمد الشريف : هذا ما يقوله الاخوان . فأسكته المهدي غاضباً [1] . ومع أن نفي المهدي لهذه الدعوى لم يمسحها من أذهان الاتباع إذ استمروا على الاعتقاد بها ، وكل ما تغير في الأمر هو أن كبار الاخوان لم يكونوا يذكرونها أمامه ، فإن فعله هذا يدل على استقامة تستحق الاعجاب ، ويعزز ما ورد في وصفه من صفات حسنة كان يتحلى بها .

وبينما كان اتباع السنوسية يقولون بمهدوية المهدي ظهر في السودان من ادعى المهدية وهو محمد أحمد المعروف بمهدي السودان ، وقد حاول هذا الأخير استمالة المهدي وعقد صلات طيبة معه ولكن المهدي رفض ذلك ، وموقفه من دعوة مهدي السودان يعزز رأينا في رفضه القول بالمهدوية .

علاقته بمهدي السودان

ويبدو أن محمد أحمد عندما قام بدعوته سمع بالحركة السنوسية ونجاحها في صحراء ليبيا وما حولها فرغب بضم هذه الحركة إليه واختار سبيل استمالة المهدي السنوسي فكاتبه ولكن المهدي لم يرد عليه ، ويبدو أن الرسالة الأولى لم تصل المهدي لأننا لانجد إشارة لها في كتب السنوسية ، كما أن محمد أحمد يرجح ضياعها ، ثم كتب محمد أحمد رسالة أخرى في سنة ١٣٠٠ [2] وأرسلها مع أحد

١ ـ قال الملك هذا في حديثه .

٢ ـ لارسال الرسالة في سنة ١٣٠٠ مدلول خاص ، ذلك أن الاعتقاد كان موجوداً عند بعض القطاعات في المجتمع الاسلامي بأن خروج المهدي المنتظر سيكون في سنة ١٣٠٠ .

اتباعه واسمه « الطاهر اسحق » وهو من اهالي البلاد الواقعـة غربي دار فور ، وقد أورد ابراهيم فوزي باشا [1] نص الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد : فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن عبد الله إلى حبيبه في الله محمد المهدي ابن الولي السنوسي . فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقي العباد إلى مقام التقريب ، قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الاعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل ، وقد كاتبناك لمـــا سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك فلم ترد إلينا المكاتبة وأظن عدم وصولها إليك حتى أني ذاكرت جميـع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء المعنيين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعوني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين . وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من المهات ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير ، والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير . فأمرني رسول الله ﷺ أن أكاتب بها الشرق والغرب من غني أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الاشقياء،وصاروا في التكبر . مع أن النبي (ص) قد خلفني بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والاقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام . وأعلمت أنه لا ينصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته (ص) ولا زال التأييد من الله ورسوله

---

١ ـ ابراهيم فوزي،السودان بين يدي كتشنر وغوردن الجزء الاول ص ٢١٦ وما بعدها .

يزداد ، وأنت منا على بال حتى جاءنا الاخبار فيك من النبي (ص) ، أنك من الوزراء لي ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيهـــا النبي «ص» خلفاء خلفائه من أصحابي فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق وأحدهم على كرسي عمر ، وأوقف كرسي عثمان وقال : هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول . وأجلس أحـــد أصحابي على كرسي عليّ رضوان الله عليهم أجمعين . ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء خلفاء رسول الله (ص) . واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهـــدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون كالسيد احمد بن ادريس فانه قد قال « كذبت في المهدي أربعة عشر نسخة من نسخ أهل الله . » وقال «سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها ». وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقوال المحققين ولا سيا وأن المهدية لا تدعي لكثرة اعدائها وقوتهم وعلى أنها لما ظهرت أنا بينهم اظهرهم في اشد الضعف والقلة فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا في الدنيا يوماً واحـــداً من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب فألقى الله في قلوبهم الرعب ومـــدهم بالخيبة . وقد أمرنا النبي (ص) بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له قدير ، بلصق جبل يقال له ، ماسة ،فجمعوا جموعهم إلينا مراراً فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار. يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي .وقد أعلم(ص) أن من شك في مهديتي كافر وكررها ثلاثاً ومراراً يقول من أنكر مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي ومن جعل الله له شكوكاً وشبها تصده عن الايمان بمهديتي فيخذله الله في الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد . فإذا بلغك جوابي هذا إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها أو تهاجر إلينا والسلام » .

٥ رجب ١٣٠٠

فلما وصل الرسول إلى المهدي وأطلعه على الرسالة لم يجاوب المهـدي بخطاب بل قال « إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان بن عفان (ر) في إحدى غزواته مع رسول الله (ص) ولا جواب عندي على هذا الكتاب » . ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[1] . وقد أشار البستاني إلى رفض المهـــدي فقال : « ولما دعــاه محمد أحمد المتمهدي أن يكون خليفته الثالث رفض ذلك رفضاً باتاً وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكناً مع المتمهدي بل إذا جــاءه محارباً يحاربه »[2] .

أما ستودارد فيثبت الرفض ويزعم أن المهدي أجاب على الدعوة بقوله : « من هذا الفقير المسكين من دنقلة ألا أستطيع أن أكون المهـدي إذا شئت » . وفي رأينا أن هذا الجواب لا يخرج عن المهدي وإنما تتخيله عقلية غربية تكتب عن الشرق في القرن المـــاضي . ويتضح من جواب المهدي — كما أورده إبراهيم فوزي وكما حفظته ذاكرة الإخوان — أنه حدد موقفـــه من دعوة محمد أحمد فرفضها مشيراً إلى انحراف الداعي بانزال نفسه منزلة لا يعلو إليها .

وقد نتج عن موقف المهدي هذا أن محمد أحمد أمسك عن الكلام في شأنه ولم يحاول تكفيره عجزاً، لأنه اعترف للمهدي بمنزلة عظيمة وأثنى عليـــه كثيراً في رسالته . وهناك أقوال غير متواترة عن محمد أحمد أنه تنبأ بأن المهدي السنوسي سيموت قتيلاً ، وأغلب الظن أن هذه الأقوال صادرة عن التعايشي خليفة محمد أحمد — كما يرى إبراهيم فوزي . ذلك أنه بعد وفاة محمد أحمد قــام التعايشي وأثار موضوع المهدي السنوسي بعد أن أمسك محمد أحمد عن الخوض فيه ، فصعد التعايشي المنبر وقال : « إن المهدي (السوداني) أخبره بأن خلافة عثمان أمرها مفوض له وأنه إن شاء أبقاها للسنوسي وإن شاء أعطاها غيره » .

---

١ — إبراهيم فوزي ص ٢١٦ . أورد الأشهب مثل هذا الجواب في : المهدي ، ص ٥٨ .
٢ — البستاني ، دائرة المعارف ، مادة سنوسي .

وكان يقصد – كما يقول إبراهيم فوزي – بهذه المقدمة إعطاء الخلافة لأخيه أو لابنه وأراد التمهيد لذلك أمام العامة الذين حفظوا ما قاله محمد أحمد في المهدي السنوسي ، ثم أعلن بعد ذلك أنه طُرد من الحضرة النبوية منذ أعرض عن دعوة المهدية . ويظهر من رسالة أرسلها والي طرابلس إلى المهدي السنوسي بتاريخ ١٧ صفر ١٣٠٣ أن جرائد مصر نشرت رسالة موجهة من المهدي إلى أتباع السوداني ينصحهم فيها بترك الهرج والمخاصمات واجتناب الحركات ويخبرهم بأن الدولة العلية ترسل من لدنها لمصر مأموراً خاصاً . ويستفسر الوالي عن صحة ما نشرته الجرائد بعد أن يرجح احتمال وقوع ذلك الذي يدل على محبة واخلاص المهدي للسلطان الخليفة – على حد تعبير الوالي[1] – . ولا ندري مدى صحة هذا الخبر الذي نشرته الجرائد المصرية لأننا لم نعثر على ما يؤيد أو ينفي الخبر .

وعلى أية حال فقد نتج عن موقف المهدي من حركة محمد أحمد أن هذه الحركة لاقت مقاومة في السودان الغربي ، فإعراض المهدي عنها جعل أهل واداي وباقرمة وبقية ممالك السودان الغربي حيث تنتشر السنوسية أعداء ألداء لحركة محمد أحمد ، ويذكر الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه ماذا يكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته فكان رد المهدي : « إنه إنما يعنى بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً لا حرباً بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفوراً عظيماً بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها والجرائم التي يرتكبها في السودان »[2] . وقد قامت هذه الممالك بمحاربة التعايشي فحدّت من انتشار حركته في السودان الغربي . ويمكننا أن نوجز القول في مسألة مهدوية المهدي في أنه لم يقل بها ولم يقر أتباعه القائلين بها ولم يؤمن بمهدوية محمد أحمد ولم يستجب لدعوته .

---

١ – نص الرسالة في الملحق وقد نقلناها عن دار المحفوظات في طرابلس .

٢ – الأشهب ، المهدي ٥٨ .

سياسته :

أما بالنسبة لسياسته فقد كرّس المهدي جهوده للبنـــاء الداخلي في الحركة واختط طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهـد المستطاع بالقوى المحيطة به . وهو في سياسته هذه إنما سار على النهج الذي رسمه والده من قبله . ويمكننا أن نصنف القوى المحيطة به في قوتين رئيسيتين إحداهمـا الدولة العثمانية والأخرى الدول الأوروبية . وإزاء كليهما حرص المهدي على اتخاذ العزلة سياسة له ، فـلم يعمل على معاداتها ولم يرض بالتحالف معها . وقـــد قصد من وراء ذلك أن يتجنب المشاكل التي يمكن إن تحدث نتيجة المعـاداة أو التحالف ، كما أراد أن يتفرغ لأمر واحد هو نشر دعوته وتعزيز قوته ، ولذلك نراه يوجه جل اهتمامه للعمل في داخل الحركة . وقد استهدف هذا العمل بناء القوة المـادية للسنوسية ونشر دعوته بين قبائل الصحراء .

ويحدثنا شكيب أرسلان عن تعاليم المهدي من الناحية المادية فيقول : « وأما من جهة القوة المادية فقد كان السيد المهدي يهدي هدى الصحابة والتابعين لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان ، فكان يحثّ إخوانه ومريديه دائماً على الفراسة والرماية ويبث فيهم روح الأنفـة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد . وقـد أثمر غراس وعظه في الحرب الطرابلسية وقبلها حرب الفرنسيس في كانم ووادای .

وحدثني السيد أحمد الشريف أن عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسحها أحد من أتبـاعه المعدودين بالمئات قصداً وعمداً ليقتدي به الناس ويحتفلوا بأمر الجهـاد وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوماً خاصاً بالتمرينات الحربية من طراد ورماية وما أشبه ذلك فكان يجلس السيد في مرتب عـال والفرسان تنقسم صفين ويبدأ الطراد فلا ينتهي إلا في آخر النهار . وأحياناً يضعون هدفاً ويأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورمـاية لكثرة ما كان

يأخذهم بهذا المران . وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد أو يقرطسون في الرمي بجوائز ذات قيمة ترغيباً لهم في فضائل الحرب .

كما أنه كان يوم الخميس من كل اسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدي، فيتركون في ذلك اليوم الدروس كلها ويشتغلون بأنواع المهن من بنـــاء ونجارة وحدادة ونساجة وصحافة وغير ذلك، لا تجد منهم ذلك اليوم إلا عاملاً بيــده ، والسيد المهدي نفسه يعمل بيده حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل .

وكان السيد المهدي وأبوه من قبله يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التي شادوها والجنان التي نسقوها بجوارها ، فلا تجـد زاوية إلا لها بستان أو بساتين . وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان وقد أدخلوا في الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها .

وكان بعض الطلبـــة يلتمسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هي كدّ اليمين والعرق » . وكان يشوّق الطلبة والمريدين إلى القيــام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم في حرفهم حتى لا يزدروا بهـــا أو يظنوا طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية والقيــام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم » . وأحياناً يدمج نفسه بين أهـــل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم . « يظن أهل الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله ؛ لا والله مـــا يسبقوننا » [1] .

ونلحظ هذه التعاليم في رسائله إلى رؤساء الزوايا ، فقد ورد في رسالة منه

---

١ – أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

لمصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون تاريخهـــا ٣ ذي القعدة ١٢٧٩ قوله : « ... وردوا بالكم من زاويتكم وابذلوا جهدكم فيما أنتم بصدده من الدلالة على الله تعالى وتعليم أولاد المسلمين القرآن والخير ، واشتغلوا بما يقربكم من الله تعـــالى والمحافظة على حدود الله تعالى والأوراد التي أنتم مقامون بها وحفظ ما تقوم به زاويتكم والله يتولى رشدكم وتوفيقكم ودمتم ... »[1] ، كما ورد في رسالة أخرى بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٣١١ قوله : « ولا تحتـاجون التوصية على الوقوف فيما يرضي الله تعالى من تعليم أولاد المسلمين ودلالتهم على الله تعـــالى بالرفق واللين »[2] .

وهكذا وجه المهدي جل اهتمامه لإعداد القوة المادية والتهيؤ للجهاد وبنـاء مجتمع الزوايا بنشر التعليم وتوزيع الأعمال على الأفراد في نطاق الزراعة والصناعة وتربية الأفراد .

أما العزلة التي اتخذها سياسة إزاء القوتين المحيطتين به فيمكن فهمها ومعرفة سبب الحذر في معاملته للدولة العلية وللأوربيين . ذلك أن المهدي رأى أن أي صلة بالدولة العلية ستسبب له متاعب عدة وتشغله عن تحقيق أهدافه ، فإذا كانت الصلة تحالفاً وجب عليه أن يعين الدولة في حربها – وهذا مـا حدث لمحمد علي باشا مع الدولة – وحركته لم تكن قد تهيأت لخوض الحرب، ناهيك عن أنها قد لا ترى خوضها بجانب الدولة العلية ، كما أن الحرب ستشغل الحركة عن إتمـــام البناء . وإذا كانت الصلة صداماً نتج عنها حرب مسلمين لدولة مسلمة – وهذا ما حدث لمحمد علي باشا عندما خاصم الدولة، وللوهابيين عندمـــا قاموا بحركتهم ضدها – مما يسبب أضراراً ويضيع الجهود في غير طائل ويتيح للأجنبي أن يتدخل . كذلك فإن من الطبيعي بالنسبة للمهـــدي أن يتجنب كلياً الأوربيين

---

١ – مجموعة الشيخ منصور المحجوب .
٢ – » » » » .

ويتوجس منهم خيفة ، فأطماعهم في وطنه الإسلامي غير خافية عليه وهو يعتبرهم كفاراً لا تجوز موالاتهم ، أمـــا حربهم فكان يفضل تأجيل ذلك حتى تقوى حركته وتتهيأ .

وقد لاحظ ستودارد موقف العزلة هـــذا فتحدث عن حذر السنوسية من الاصطدام بالأوربيين، فهي تتجنب الحروب لتقوى وتنتشر. كما ذكر أن هذا الحذر والاحتراز ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدهـــا بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً إذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة التي هي أعز شيء لديهم »[1] .

ومن هذا الموقف الذي اتخذه المهدي من هاتين القوتين تحددت سياسة وعلاقة الدولة العثمانية به وسياسة وعلاقة الدول الأوربية ، ويحسن بنا أن نبحث كلا من السياستين :

سياسة الدول الأوربية تجاه السنوسية وعلاقاتها بالمهدي

لفهم موقف الدول الأوربية من السنوسية يجب أن نلاحظ السياسة الأوربية الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التـــاسع عشر، وعلى الخصوص في طرابلس الغرب . إذ صار التسابق على الاستعمار بين هذه الدول على أشده ، وتركزت — منذ أوائل القرن المذكور — محاولاتها على الجزء العربي من البــلاد الاسلامية بعد أن نالت أغراضهـــا في الشرق الأقصى . ومع أن غزوة بونابرت على مصر انتهت بالفشل وكذلك محاولة بريطانيا في احتلال رشيد ، إلا أن فرنسا لم تلبث أن نجحت في احتلال الجزائر ١٨٣٠ ، كما نجحت انكلترا في احتلال عدن . أما بقية الأجزاء التي تنضوي تحت حكم الدولة العثمانية فإنهـــا استهدفت تركيز اهتمام هاتين الدولتين عليها . وقد وضح هذا التركيز في طرابلس الغرب ، حيث لعب

---

١ ـ ستودارد ص ٢٩٨ .

« وارنجتون » قنصل انجلترا دوراً كبيراً في التدخل في شؤون القطر طيلة ثلاثين سنة[1] . من ذلك أنه كما يقول المصراتي لعب دوراً في إسدال الستار على الفصل الأخير من قصـــة الحكم القرمانلي ، وأنه كان مجتمعاً مع الثائر عبد الجليل قبل القبض عليه[2] . وقد كان نفوذ انجلترا قوياً في طرابلس وتأثيرهـــا على الولاة عظيماً ، ومما ساعد على ذلك موقفها من مساعدة الدولة العثمانية في مشكلتها مع محمد علي وفي حرب القرم . أما فرنسا فكانت مكروهة من الولاة وقد قلّت هيبتها على أثر قيام ثورة ١٨٤٨ فيها ، ولكنها استعادت بعض الاهتمام من الولاة بعد اشتراكهـا في حرب القرم مع الدولة العثمانية ، ولم تمنعها هذه الكراهية من الاهتمام البالغ بشؤون طرابلس بحثاً عن تحقيق مصالحها .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر دخلت قوتان أوربيتان ميدان التنافس الاستعماري في طرابلس وهـــا ألمانيا وإيطاليا ، كما ظهر اهتمام الولايات المتحدة الأميركية بذلك القطر . أما ألمانيا فقد حاولت بعـــد انتصارها على فرنسا في حرب السبعين النفوذ إلى طرابلس الغرب ، فتتابع على زيارة طرابلس عدد من الرحالة الألمان هم بارث وفوجيل ومالتـــان وناختيجال ورولفس[3] . وقد كان للرحالة الأوربيين دور كبير في استطلاع أحوال البلاد توطئة لتدخل حكوماتهم . ولم تنجح محاولة ألمانيا لأن إيطاليا استطاعت بتحالفها مع الدول الأوربية الأخرى على أن تؤمن لنفسها حرية العمل في طرابلس وتنفذ اليها . فقد عقدت في ١٨٨٧ اتفاقية سرية مع بريطانيا تناولت مسألة طرابلس واتفق فيها على أن تترك بريطانيا لإيطاليا حرية العمل في طرابلس . ثم اتفقت إيطاليـــا مع فرنسا عام ١٩٠٠ ومع روسيا عام ١٩٠٩ على المبدأ نفسه مقابل ترك حرية العمل

---

١ ـ علي مصطفى المصراتي « غومه » ص ٦٤ ـ زيادة، السنوسية ص٣٣ .

٢ ـ المصراتي ص٦٤ ، ٩٥ .

٣ ـ انظر زيادة ص ٣٤ وفيرود ص ٤٢٤ .

في مصر لبريطانيا وفي تونس والمغرب لفرنسا وفي المضائق لروسيا[1] .

وعندما قامت الحركة السنوسية وانتشرت في برقـــة والصحراء ، كان من الطبيعي أن تهتم بها كل تلك الدول الأوربية . وقد تجلى هذا الاهتمام بمحاولات هـــذه الدول جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الحركة في أول الأمر ، ثم بمحاولات لعقد صلات بها. ويمكننا أن نلاحظ تطوراً في موقف الدول الاوربية من الحركة بين عهدي ابن السنوسي والمهدي . فبينما كان الموقف في عهد المؤسس استطلاعياً تحوّل في عهد الخليفة إلى محاولات للاتصال، ثم إلى عداء سافر نتيجة انتشار الحركة وتهديدها المصالح الأوربية وإعراض المهدي عن الاتصال بتلك الدول .

وقد نبع اهتمام فرنسا بالحركة من حرصها على مستعمراتها وعلى تنفيـــذ مخططاتها الاستعمارية في الشمال الإفريقي والصحراء. فمن جهة كانت فرنسا تخشى على مستعمرتها الجزائر من تغلغل الزوايا السنوسية فيها ووجود عـــدد آخر من الزوايا على حدودها في الجنوب والجنوب الشرقي . ومما زاد في خشيتها كون ابن السنوسي جزائرياً وقيامه بتقديم العون للمجاهـــدين في الصحراء الجزائرية – كما بينا في الفصل الثاني – . وكانت من جهـــة أخرى تريد استعمار تونس – وقد نجحت في تحقيق ذلك سنة ١٨٨٢ – وبسط سيطرتها على الصحراء الكبرى ، وقد هالها تقدم الحركة السنوسية في تلك الصحراء ، وتحوّل عـــدد من قبائل الصحراء من الوثنية إلى اعتنـــاق الإسلام ، في حين أن الإرساليات التبشيرية المسيحية لم تحقق نجاحاً مذكوراً ، ووجدت في السنوسية خصوماً عنيدين – على حد تعبير شكري – . لذلك أرسلت فرنسا عدداً من الرحـــالة الفرنسيين منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشنت عليها حرباً دعائية – بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية – قصدت بها تشويه الحركة ، كما تجلى موقفها

---

١ – انظر ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية – الطبعة الثانية ص ١٧٦ .

العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية. ثم تبلور هذا الموقف في الحرب التي شنتها فرنسا في الصحراء على السنوسية، وسنتحدث عنها في موضع آخر.

وكان اكثر الرحالة الفرنسيين تعصباً في كتابته دوفرييه الذي اتهم السنوسية بعدة تهم وبالغ في تخيلاته، وذلك أنه رأى في الحركة خطراً عظيماً يتهدّد مصالح فرنسا والمسيحية في افريقيا. وقد اعتبر دوفرييه السنوسية مسؤولة عن جميع حوادث الاغتيال التي حدثت في الصحراء ضد بعض الرحالة الأوربيين، كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى وصورها عدواً فاغراً فاه للقضاء على الأوربيين، وزعم أنها حرّكت وساعدت جميع الثورات التي قامت في الجزائر. وقد وافق الرحالة لوي رين على بعض هذه التهم ورددها كتاب آخرون مثل مونتليه وهوايت وفيرود. والواقع أن السنوسية لم تتعرض لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لأنها حركة إصلاحية تهدد مصالح فرنسا في افريقيا وتعمل على تخليص المسلمين الواقعين تحت سيطرة فرنسا، كما أنها تنشر الإسلام في أصقاع تطمع فيها فرنسا. أما قصص الاغتيال فلا نجد أي علاقة بالسنوسية بها. وأما اتهام السنوسية بكراهية اليهود والنصارى فالمأثور عن دعاتها التمسك بتعاليم الإسلام السمحة في معاملة أهل الكتاب، وقد لاحظ المؤيد أن نصارى ويهود برقة يقسمون باسم المهدي. وكلام دوفرييه يصدق على كراهيتهم للمستعمرين وهذا ليس بغريب بل طبيعي. وكذلك من الطبيعي أن تحاول الحركة مساعدة مجاهدي الجزائر.

وعلى أية حال فإن جميع الذين كتبوا من الرحالة عن السنوسية مشوهين لها إنما كانوا ينظرون بمنظار مصالح بلادهم فيرون فيها خطراً نعتبره نحن إنقاذاً، وتربصاً للحفاظ على حرية بلادهم نعتبره نحن إخلاصاً ويعتبره أولئك كراهية لهم. كذلك فإن بعضهم قصد هذا التشويه وهذه الحرب الدعائية لتمهيد الرأي العام الأوربي وإقناعه بما ستخطوه فرنسا ضد الحركة فيما بعد. ولقد أنصف

عدد من الكتاب المحدثين السنوسية وردوا على تلك التهم . من هؤلاء بريتشارد الذي نقد دوفرييه ومبالغته في سرد قصص مختلقة عن تعصب السنوسية، وجعله ملاماً إلى درجة كبيرة . كذلك رد زيادة بتفصيل جيد على تلك التهم وناقشها . وقبله فعل شكري الأمر نفسه [1] . وقد تناول الحشايشي هذا التهجم من بعض الكتاب الفرنسيين على السنوسية بالحديث في مقال له فقال : ... وما أشيع عن السنوسي من أنه مستعد للحروب ويدخر الأسلحة المتقنة تؤتى إليه من أوربا وأنه يشيد الحصون بالصحراء ويصنع البارود وله عسكر وخيول مسومة ويبغض الفرنج فهاته كلها خرافات وأراجيف لا أصل لها سيقف العموم على بطلانها حين تسمح الظروف عاجلاً أو آجلاً بالمواصلات بين أفريقيا الشمالية والجهات الصحراوية » ولا ينبئك مثل خبير « من أجل ذلك قلنا ولا زلنا نقول إن الشيخ السيد محمد المهدي رضي الله عنه لم يكن منطوياً على معاداة أهل الصليب ولم يفكر يوماً واحداً في ايقاظ الفتنة النائمة ولم يكن لديه خيول مسروجة ولا سيوف مسلولة ولا ذخائر حربية ولا بارود ولا يوجد شيء من ذلك الا بمخيلة مخترعه من أهل الاغراض الصادرة عن جهل أو تجاهل » .

أما بريطانيا فكان موقفها من الحركة أول الأمر استطلاعياً ، وكان يهمها معرفة حقيقة الحركة التي انتشرت في برقة على حدود مصر الغربية ، وذلك لأن اطماع بريطانيا في مصر لم تكن خافية . كما أن نفوذها في طرابلس الغرب كان قوياً . وقد زار الرحالة هاملتون الانكليزي سيوة وتحدث في رحلته عن ابن السنوسي – وقد قابله هناك – وعن السنوسية . ونلمس من حديثه أن ابن السنوسي أبدى اعجابه بالانجليز « ولو أن ذلك قد يكون من قبيل السياسة فقط » – كما يعلق هاملتون – [2] . واستمر موقف الانجليز هادئاً إزاء الحركة

١ – أنظر دوفرييه ٧ ورين ٥١٠ وبريتشارد ٦ وزيادة ١٣٠ وشكري ٦٧ .
٢ – هاملتون ص ٢٦٦ .

كدأبهم ما دام الأمر لا يمس مصالحهم بضرر ، حتى عام ١٨٨٢ عندما بدأت بريطانيا عملياتها في مصر وقامت ثورة عرابي . إذ تحركت بريطانيا لتمنع أية مساعدة متوقعة قد تقدم لعرابي . فتدخلت لدى الباب العالي ليحقق فيما شاع من أن السنوسية ستقدم العون لعرابي . ويحسن بنا هنا أن ندرس موقف المهدي من ثورة عرابي .

موقف المهدي من الثورة العرابية

تشير الوثائق التاريخية إلى أن عرابي اتصل بالمهدي مستنجداً وطالباً العون عندما قام بثورته عام ١٨٨٢ . ويقول الاشهب إن عرابي اتصل أيضاً كتابة بكثير من رجال المهدي ومن بينهم والده (والد الاشهب) [١] . والظاهر أن بريطانيا علمت بالأمر فتدخلت لدى الباب العالي ونشط قنصلها في طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدي . ويتبين من احدى الرسائل التي بعث بها والي طرابلس إلى ولاية بنغازي بتاريخ ١٦ أغسطس ١٨٨٢ أنه شاع أن عدداً من قبائل برقة تهيأوا للالتحاق بعرابي وان الخبر وصل إلى طرابلس من استانبول، وأن قنصل الانجليز في طرابلس يستفسر عن صحته. ويقول الوالي « في حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم اجراء التدابير الحكيمة . » وقد تبين لدى تحقيق المسؤولين في بنغازي أن هذه الجماعة التي تريد دخول مصر ما هي الا قافلة حجاج وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج [٢] . ويتبين من رسالة أخرى بتاريخ ١٢ شوال ١٢٩٩ أن قنصل الانجليز سأل الولاية عن صحة خبر مفاده أن خمسة آلاف من اتباع السنوسي داخلين لمصر لمعاونة عرابي . وقد ردت

---

١ ـ الاشهب، المهدي ٥٧ . ٢ ـ دار المحفوظات التاريخية طرابلس ، رسائل الولاة .

عليه الولاية بأنهم حجاج . ولكن الوالي يقول لمتصرف بنغازي « حسب معلوم ولايتكم أن سفر خمسة آلاف ذاهبين للحجة من العربان ليس متوقعاً وقد تكون لهم نية أخرى غير الحج فنيتهم الخفية معاونة عرابي . وليس للدولة العلية دخل في هذا . ولكن حيث أنهم خارجين من الولاية العثمانية لذلك زودنا بالأخبار لأن الأجانب يعتبرون الأمر تحريك منها . وهـــذه الاشاعات تعود على الدولة ببعض المتاعب . فإذا صح أن للعربان نية هذه النية فإننا نعلم أن شيخهم السنوسي لا يوافقهم على هذا. وقد أصدرنا التأمينات للقنصل لكي يطمئن. ولكي يقتنع تماماً عليك أن تعلمها سريعاً وعاجلاً بالواقع بعد التحقيق » . فمن هـــذه الرسالة يبدو أن قنصل الانجليز ألح في استفساراته وأن بريطانيـا تدخلت لدى الباب العالي ، وأن الولاية مندفعـــة للتحقيق لإسكات الاجانب الذين يعتبرون مثل هذا الأمر تحريكاً من الدولة العثمانية . وأن لدى الوالي شك في أن غرض العربان هو الحج فقط ولو أنه يعتقد بأن المهدي لا يوافق العربان على عملهم . ولقد انبرى دوفربيه بعد فشل ثورة عرابي ليؤكد أن عرابي لم يقدم على الثورة الا بتأثير من السنوسية . وطلب – كما أورد شكري – من محامي عرابي إخباره عما إذا كان عرابي من اتباع السنوسية . ولكن لوي رين كان له رأي آخر مخالف لرأي دوفربيه إذ علق على هذه الحوادث بقوله : « إن السنوسية لم تحرك ساكناً في اثناء ثورة عرابي ، وذلك لأن رئيسها كان يعلم بوجود اتفـاق سري بين عرابي وبين الرجال السياسيين في استانبول ، ولأنه بكل بساطة كان يعرف تماماً أن الحرب ليست هي الوسيلة التي يمكن بها إعادة صرح الامامة العالمية على ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين». [1] والواقع هو أن عرابي لم يكن سنوسياً وأن المهدي لم يحاول نجدته لسبب واحد هو عدم اقتناع المهدي بجدوى الثورة كأسلوب لتحقيق مطالب عرابي لأنها تتيح للأجانب التدخل . وقـد وضح هذا

---

١ ـ شكري ص ٧٠ ، نقلاً عن رين .

الرأي في رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدي إلى مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ شعبان ١٣٠٦ بمناسبة قيام إحدى قبائل برقية بالعصيان على الدولة العثمانية إذ قال فيها : « ونرجو أن تكون الفتنـــة التي بالوطن قد طفئت لأنها مخيفة سيئة العاقبة تشبه الفتنة العرابية التي من أجلها حل بالوطن الشرقي وأهله ما حل ، لأنهم يحركونها ويعجزون عنها فتكون العاقبة التسليم للاجانب؛ فلو أنهم سلكوا طريقاً غير هذا لكان أسهل وآمن عاقبة وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية التخفيف من هـــذا المجعول عليهم (وذلك لأن سبب عصيان قبيلة العواقير كان الضرائب التي تجبى منهم) قائلين إنهم لا قدرة لهم على هذا الأمر الشاق والتكليف بما لا يطاق وان قلتم لابد منه نجلو عن الوطن، لكلية إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة . . »[1] فوجهة نظر المهدي هي المطالبة بالوسائل السلمية وتجنب الفتنة لأنهـــا تتيح للأجانب التدخل . وقد رأينا أنه أشار على اتباع السوداني بمثل هذا ، كما سنرى أنه تقيد بهذه السياسة ، فحرص على عدم الاحتكاك بالدولة العثمانية . وقـــد اطمأنت بريطانيا إلى أن المهـــدي لن ينجد عرابي ولكنها عملت مع الدول الاوربية الأخرى على تحريض السلطان العثماني ضد المهدي واستموت تشكو من السنوسية .

أما المهدي فكان موقفه من كل هذه الدول العزلة والحذر وتجنب الاحتكاك، حتى انه امتنع عن مقابلة اي رحالة اجنبي، كما امتنع عن تلقي هدايا مبعوثي الدول الاوربية تنفيذاً لسياسة العزلة التي سار عليها. وقد ذكر الصادق المؤيـــد أن المهدي « لعلمـه بالافكار والمطـــامح الأجنبية لا يميـــل إلى الاحتكاك والتعرف بالاجـــانب بـــل يتجنبهم ، حـــتى أنه رد الهدايا النفيسة الـــتي قدمهـــا قناصل فرنســـا وإيطاليا بصفة مؤدبة . وحتى الآن لم

١ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب .

يستطع أجنبي واحد الاتصال به . »[1]

علاقة المهدي بالدولة العثمانية

حرص المهدي على ان تكون علاقته بدولة الخلافة طيبة ، كما حرص على أن لا تتجاوز هذه العلاقة حدود الرسميات . واستطاع أن يوفق إلى حد كبير بين سياسته الانعزالية وبين ارضاء الدولة ، فلم يصطدم بها ولم ينخرط معها بصورة يفقد معها كيانه المتين . وخطُ سيره هذا انما هو تتمة لخط سير والده في هذه المسألة . فبالرغم من أن ابن السنوسي كانت له نظرة خاصة في شرعية الخلافة العثمانية إلا أنه حرص على عدم الاصطدام بها حرصاً منه على حركته وعلى مصلحة المسلمين ، وأقام علائق طيبة مع ولاتها المتتابعين على طرابلس ، وبادلته الدولة هذا الموقف الحسن فأعفت زوايا السنوسية من الضرائب .

وكما سارت الأمور بين الحركة السنوسية والدولة العلية سيراً طيباً في عهد ابن السنوسي فانها استمرت على الصورة نفسها بعد تولي المهدي رئاسة الحركة . وبقيت كذلك بالرغم من أن عوامل جديدة تدخلت لتعكير الجو وإثارة العواصف بينها. ومع أن هذه العوامل نجحت في بذر الشك أحياناً بينهما إلا أن الغيوم كانت تتبدد دون أن تثور الزوابع .

وأبرز هذه العوامل هو تدخل الاوربيين لدى الباب العالي وضغطهم عليه للحد من نشاط السنوسية ومحاولاتهم لديه للإيقاع بينه وبينها بتشويه حقيقتها وتخويفه من نجاحها . وهناك عامل آخر يتعلق بجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على كرسي السلطنة وعرش الخلافة سنة ١٨٧٦ ، فسياسة عبد الحميد الداعية إلى الجامعة الإسلامية والاستفادة من أجل الوصول اليها من كل

---

٢ – المؤيد المعظم ، ص ٦٧ .

الحركات الإسلامية ، ثم طبيعته المتميزة بالشك والخوف من أي حركة في دولته ، جعلته شديد الحرص على معرفة حقيقة السنوسية ودفعته إلى إحراجها بشدها إليه ، وزاد من حرصه واندفاعه إقلاق الأوربيين له بكثرة شكاويهم من الحركة . كذلك ساعدت المصائب التى نزلت بالدولة ونتج عنها فقدان تونس ومصر ، والخطر الذي يتهدد طرابلس على تحفز الأعصاب . وتعكس الوثائق التي تعود إلى تلك الفترة والتي تضم تقارير ومراسلات ولاية طرابلس إلى الباب العالي ورسائل المهدي للولاية وللباب العـالي وما كتبه بعض الذين اشتركوا في تلك الفترة بدور ، تعكس هذه الوثائق صورة العلاقة بدقة بالغة، وتبين أولاً موقف ولاة طرابلس من الحركة وهو في معظم الاحيان حسن جداً ، كما تظهر ازدياد اهتمام البـاب العالي بتتبع أخبار الحركة ، وتبدي موقف المهدي من الدولة العلية .

هذا تقرير أرسله والي طرابلس كمال باشا بتاريخ ٨ ربيع الاول ١٢٨٧ إلى وزارة الداخلية في استانبول، نستدل منه على أن الوزارة تلقت اخباراً خطيرة عن نشاط مسلح في الزوايا فأرسلت مفتشاً إلى بنغازي للتحقيق في الامر دون استشارة الوالي ، فكان أن بعث الوالي بالتقرير مبدياً عدم رضاه بتعيين المفتش لأن ذلك يسيء إلى العلاقات بـين الدولة والسنوسية ، ومبيناً حقيقة نشاط الحركة وطالباً سحب المفتش . فهو يقول : « بعد البرقية التي ارسلتها لكم في إعادة حامد افندي الذي عينتموه مفتشاً للزوايا السنوسية في برقة وبينت لكم أن اقامته غير مرغوب فيها ورجوتكم – برقياً ـ سحبه . وقد تسلمت برقيتكم بالشفرة التي بينتم فيها أن الزاوية الكبيرة مجعولة على شكل ثكنة واستحكامات وان أكثر من ثلاثماية عبـد متعلم يصنعون البارود والاسلحة ويخزنونها وان أعمالاً كهذه تسبب لنا مشكلات في المستقبل .

والحال هو أن في هذه الزوايا تلاوة القرآن وأصول الدين وباقي العلوم تعلم للصبيان والطلاب . وقد ظهرت فائدة هذه الزوايا في تحويل عربان البـادية

الذين هم كالبهايم إلى ناس وآدميين إذ عرّفوهم شرف الدين والدنيا ، ويعلموهم أصول المذهب والشريعة والاطاعة لأولي الأمر وبهذا خدموا الانسانية والاسلام. وهم على اتم ورع وصلاح . وليس لهم مـا يغاير الشريعة ، وليس لهم أطوار مخالفة للتابعية للخلافة .

أما ان الزوايا مجعولة على شكل استحكامات وان الزاوية الرئيسية يصنع فيها البارود فهذا كله كذب وافتراء ، انها في الحقيقة دار علم وصلاح ولا يتوقع ان يجمل فيها شيء من هذا في المستقبل . وهؤلاء العلماء لا يمكن أن ينسب اليهم ما قلتموه لأنهم نادرو الوجود ومثال العلم وعملهم نشر العلم .

أما حامد أفندي فهو غير مقتدر وقد أثار العلماء . وهو يسكن بنغازي التي تبعد ثمانية أيام عن الزاوية الكبرى ووجوده في بنغازي يأخذ المعاش دونما عمل كل هذا فيه مضرة ولا فائدة منه . وضرره في أن الناس يتساءلون عن سبب تعيين الحكومة مفتشاً عليهم فيتشوش بالهم لذلك اسحبوا حامد افندي برقيـاً » . [1]

ويمكننا أن نلاحظ من التقرير حماسة الوالي في الدفاع عن السنوسية واقتناعه في الفوائد التي تحققها . كما نلاحظ أيضاً قلق الباب العالي من اخبار الاستحكامات وصنع الأسلحة في الزوايا ، مما دفعه لإرسال مفتش .

وهذا بيورلدي من والي طرابلس حالت باشا إلى متصرف الجبل قاسم باشا بتاريخ ٣ جمادى الأولى ١٢٨٧ موضوعه اعفاء السنوسية من « جميع المرتبات الأميرية والأعشار الشرعية . » وقد أرسل بمناسبة انشاء زاوية بالرجبان . وفي أوله حديث عن الفرمانات التي أتى بها الشيخ العيساوي من الباب العالي بإعفاء الزوايا من الضرائب ، وحديث عن عمل ابن السنوسي في نشر العلم والدين ، ثم أمر بإحسان معاملة شيخ الزاوية وإعفائه من الضرائب حيث « اشعر بجريان

---

١ – دار المحفوظات .

العفو عنه في جميع المرتبات الميرية والأعشار الشرعية وأن لا يطالب بميري ولا أعشار حسبما تضمنه « الدركنا » مع فريد الاحترام وكمال التعظيم لميره والاكرام والتوقير والاجلال على الدوام . وعدم التعدي على جنابه الرفيع وعلى تلامذته وسائر الفقراء السنوسية بسوء ولا بمكروه من سائر الوجوه أملاً أن يستمر على ما كان عليه من الارشاد والتعليم ويداوم على الدعوات الخيرية للحضرة الشاهانية .. » [1] والبيورلدي يدل بوضوح على موقف طيب من الوالي إزاء الحركة ، وشعور منه بفائدتها ، كما يظهر معاونة للحركة باعفائها من الضرائب .

وهذا تقرير أرسله نائب بنغازي إلى والي طرابلس بتاريخ ٤ محرم ١٢٩١ عن طريق متصرف بنغازي الذي أرفق معه تقريراً آخر . وموضوع التقريرين واحد هو إبداء الرأي في السنوسية . أما النائب فيقدم لحديثه بقوله : « أما معلوماتي بحق المهدي فإني أعرضها بصفة سرية جداً . وقد طلبتم ذلك وأنا أدلي بمعلوماتي التي تحصلت عليها منذ وقت تعييني حتى الآن . » ثم يتحدث عن انتشار السنوسية على يد المهدي ويقول إن العربان يعتبرون المهدي المرجع المطلق ويعتقدون أنه مهدي الزمان. ثم يتحدث عن زراعة الزوايا ودخول الوثنيين في الإسلام على يد السنوسية . ثم يقترح تحويل واحتي جالو واوجلة إلى قائمقاميات وتعيين الجنود من الأتراك حتى يضيع نفوذ السنوسي « ولا يفلت الزمام من أيديكم » . ويذكر أن أتباع المهدي يزيدون يوماً بعد يوم في بنغازي وان عدد الزوايا فيها بلغ أكثر من خمسين ، وأن كل ما يقع في مجلس بنغازي يصل إلى المهدي عن طريق بعض الاعضاء . أما المتصرف فمعجب بالسنوسية ورأيه في سياستها انها « درس وتعليم وارشاد بالقول والعمل وليس هناك أمارة تدل على غير ذلك. والمهدي أكثر حماساً لاسكان السكان الرحل وتوطينم وتعليمهم. » ويختم المتصرف رأيه بما يوضح لنا أن السبب في طلب الباب العالي للتقارير من

---

١ ـ دار المحفوظات، ملف السنوسية .

الولاة عن السنوسية هو تدخل الأجانب فهو يقول : « إن الاجانب كلما رأوا قوة الإسلام في منطقة يبدأون في التدخل لأن الاجانب المستعمرين رأوا أن من يحاربهم بقوة هم المؤمنون المسلمون . وفي رأيي ان مثل هؤلاء الناس الذين يجمعون شمل البدو ويعلموهم يجب على الحكومة أن تستميلهم وتعاونهم . » (١)

وهكذا فإننا نرى من خلال هذه المراسلات أن العلاقة بين الولاة والمهدي كانت طيبة اجمـــالاً وأن الدولة العلية كانت توجس أحياناً خيفة من الحركة نتيجة تدخل الاوربيين وخروج اشاعات حول اهدافهـــا وتنظيماتها فكانت لذلك تطلب التقارير وترسل المفتشين ، ولكن ذلك كله لم يسبب وقوع سوء تفاهم بين الدولة والسنوسية بل استمر ظاهر العلاقة حسناً .

وقد حدث أن قدم إلى طرابلس ولاة لم يتحمسوا حماساً قوياً للسنوسية ، ومن هؤلاء الوالي احمد راسم الذي لم يكن يؤمن بالصوفية بل كان سياسياً ميالاً للحذر والشك ، وجاء تعيينه في فترة غزو فرنسا لتونس وانكلترة لمصر . وقد تميزت تلك الفترة بضغط الاوربيين على طرابلس وارسالهم الجواسيس اليها . ولذلك نرى الوالي المذكور يقف موقفاً يخلو من الترحيب من احد الاخوان السنوسيين قدم لزيارة الخمس . وقـد جرت مراسلات بـــين الوالي ومتصرف الخمس أمر فيهـــا الوالي المتصرف بتعقب محمـــد السني وتتبـــع حركاته والقبض عليه فيما إذا ظهرت عليه أحوال توجب الشـك في سياحته . وعندما رد المتصرف على الوالي بتقرير عن حركات السني وانه جاء لإتمام بناء مسجد كتب الوالي يسأل عن موعد سفره ويحث على استعجال سفره . (١)

وزاد اهتمام الدولة بأمر الحركة باعتلاء عبـد الحميد الثاني كرسي السلطنة

---

١ - دار المحفوظات ، مراسلات الولاة .
٢ - « « « « .

١٨٧٦ الذي قام تطبيقاً لسياسته الإسلامية وانسجاماً مع طبيعته الشاكة بجس نبض المهدي بأن طلب منه ارسال نجدات لمعاونة الدولة في حربها مع روسيا سنة ١٨٧٧ . ولا شك في أن عبد الحميد قصد من طلبه هذا معرفة موقف المهدي منه وكشف استعداد السنوسية الحربي . ولكن المهدي لم يتمكن من إجابة طلب السلطان – كما يقول الأشهب – لانشغاله بأداء رسالته .[١] ولا يذكر الأشهب كيف كان اسلوب رد المهدي ، ولو أننا نعتقد أنه كان دبلوماسياً رقيقاً كدأب المهدي في مراسلاته . ولقد زاد هذا الموقف من اهتمام عبد الحميد فأرسل يطلب التقارير الضافية ، ثم زاد من اهتمامه أيضاً تدخل الدول الاوربية لديه وشكواهم من المهدي ، حتى باتت التقارير المرسلة من الولاة لا تكفي ، فكلّف بعثة برئاسة رشيد باشا والي بنغازي وفيها الصادق المؤيد العظم أحد حجاب السلطان بالسفر إلى الجغبوب وذلك سنة ١٣٠٧ – ١٨٨٩ . وقد ذكر ارسلان في معرض حديثه عن جهود المهدي في نشر الدعوة سبب ارسال البعثة فقال : «... وحتى هال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن يكشف حقيقته .. فأرسل اليه بمقره في الجغبوب وفداً كان فيه صديقي المرحوم صادق بك المؤيد..»[٢] وقد أحسن المهدي استقبال البعثة واتاح لها رؤية الجغبوب وأعمال الاخوان فيها ، فنجح في تطمينها على حقيقة الحركة واقناعها بحسن نياته إزاء الدولة العلية .

ومما يروى عن رشيد باشا – الذي كان معروفاً بميله للسنوسية نتيجة اطلاعه على أعمالها أثناء عمله في ولايته – أنه سأل أحد الاخوان وهو محمد البسكري عما إذا كان لدى المهدي أسلحة فأجابه البسكري : نعم إن لديه مخازن من الأسلحة، وأخذه إلى مخازن الكتب وفتحها له[٣] . وفي رواية أخرى أن رشيد

١ – الأشهب ، المهدي ٥٣ .
٢ – ارسلان ، المجلد الثاني ص ١٤٢ .
٣ – الأشهب ، المهدي ٥٦ .

باشا أبدى للمهدي تخوف السلطان من وجود خزائن ملأى بالأسلحة عندهم فقام المهدي وفتح خزائن الكتب وقال : هذه خزائننا[1] . وسؤال رشيد باشا يدل على أن الباب العالي كان متشوقاً لمعرفة صحة الأخبار التي بلغته عن تسليح الاخوان وإقامة الثكنات . وعلى كلٍ فقد اطمأنت الدمئة تماماً . وقد نقل أرسلان عن الصادق المؤيد « أنّ الصادق حدثه عن تلك الرحلة وعما لقوه في جغبوب وأن السيد السنوسي لم يكن إلا داعياً ومرشداً وأنه دائماً يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية »[2] .

ويبدو أن مفعول تطمين هذا الوفد للسلطان لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما عاد الى مضاعفة الاهتمام بمتابعة أخبار الحركة ، ويرى أرسلان أن السبب في ذلك تدخل الأوربيين لدى السلطان ، وقد تكون طبيعة السلطان الحذرة المطبوعة بالشك سبباً آخر أيضاً . ولو أن أرسلان يقول إن السلطان كان يماطل الدول الأوربية ويلاطف السنوسي، كما يقول « وكان الأوربيون في عهد السلطان عبدالحميد يشكون إلى السلطان حركة السنوسي ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته .. وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لأجل أن يستدعي سيدي المهدي إلى الآستانة ويأمره بالإقامة بها ولا يأذن له بالعودة إلى وطنه ليخلو للأوربيين الجو في تقسيم أواسط افريقيا وخضد الشوكة الاسلامية في تلك الديار . فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ويعتذر لهم بصنوف الأعذار ، بل كان يلاطف السنوسي كثيراً بالهدايا والكتابات إلى أن اشتد الضغط عليه .. فأرسل رجلاً اسمه عصمت بك إلى بنغازي ومنها إلى جغبوب بمأمورية سرية فبلغ المهدي بحسب ما قرأت في التاريخ الذي تقدم ذكره (وهو تاريخ كتبه أحمد الشريف واطلع عليه شكيب أرسلان) بكلام لا يتضمن نفياً ولا إيجاباً وإنما تلا آيات كريمة في معنى الاتكال على الله ، ولكن السيد المهدي لم يعتم بعدها أن فارق

---

١ ـ شكري ص ٨١ .

٢ ـ أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٤٢ .

جغبوب إلى واحة الكفرة »[1] . ويظهر أن نية السلطان في استدعاء المهدي إلى الآستانة كانت موجودة إن لم يكن استدعاه فعلاً ، وقد أشار إليها البستاني فقال في معرض الحديث عن المهدي « وقد أرادت الدولة العلية منذ نحو سنتين استدعاءه إلى الآستانة فلما شعر بذلك رحل من جغبوب »[2] .

والواقع أن أسباب انتقال المهدي إلى الكفرة كثيرة وسنتحدث عنها ، وإن كان من المتوقع أن يكون الاستدعاء قد عجّل بحدوث الانتقال . وعلى أية حال فقد استمرت المراسلات بين دولة الخلافة وبين المهدي بعد الانتقال وبقيت العلاقة قائمة ، ومع أن الانتقال حدث فجأة وعلى غير علم الدولة ، وربما أيضاً وبدون رضاها ، فإن كلا الطرفين حرص على إبقاء العلاقة طيبة ، ويبدو هذا جلياً من رسالة بعث بها الصدر الأعظم سعيد نامق في ١٥ صفر ١٣١٣ إلى والي طرابلس إذ يتضح منها أن الدولة العثمانية فوجئت بانتقال المهدي إلى الكفرة وتضايقت منه ، ولذلك حرص السلطان على معرفة أسباب انتقاله وأرسل الصدر الأعظم إلى متصرف طرابلس أن يحسن معاملة السنوسية[3] .

وعمد المهدي بعد وصوله إلى الكفرة إلى إرسال الشيخ عبدالعزيز العيساوي إلى الآستانة « حتى يؤكد إخلاص وولاء المهدي لخليفة المسلمين » وكأنه شعر بما سببه انتقاله المفاجيء من تشويش في أفكار السلطان تجاهه . وزود الشيخ العيساوي بكتاب إلى السلطان يطلب فيه أيضاً توكيد الفرمانات التي صدرت للسنوسيين .

ووصل الشيخ العيساوي الى الآستانة وكان برفقته ابن أخيه محمد الأخضر العيساوي فنزلا ضيوفاً على الدولة ونجحا في مهمتها فأصدر الباب العالي أوامره « وجرى التأكيدات المهمة الى متصرفية بنغازي وولاية طرابلس الغرب بموجب

---

١ - أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٦٢ .
٢ - البستاني ، دائرة المعارف مادة سنوسي .
٣ - دار المحفوظات ، مراسلات الولاة .

إرادات سنية في كال الاهتام والرعاية والاحترام والنظر في حق الاخوان جميعاً مع كافة الزوايا الموجودين على موجب الفرامين الموجودة ومزيد الاعتنـــاء في إنفاذ أحكامهم العالية والحذر من المخالفة أو إيقاع أدنى شيء مغاير لأحكامهم ورضاء العالي »[1] . وقـــد أرسل درويش باشا ياور السلطان في نوفمبر ١٨٩٥ خطاباً الى المهدي يخبره بهذه الاجراءات . ورسائل الولاة في تلك الفترة تبين أثر هـــذه الأوامر في حسن سلوك موظفي الدولة مع السنوسية ، ففي رسالة من متصرف بنغازي الى والي طرابلس بتاريخ ٥ ربيع الأول ١٣١٣ يقوم المتصرف بتطمين الوالي أنه يعامل السنوسيين معاملة حسنة ويحترمهم الاحترام اللازم وأنه ينفذ الفرمان الصادر عن الباب العالي ثم يقول « وأنا لا أتأخر عن هـــذا وأفعل كل ما من شأنه أن يجلب قلوبهم »[2] .

وقد نتج عن بعثة العيساوي أمر آخر هو أن السلطان عبدالحميد قرر إيفاد صادق المؤيد مرة ثانية لزيارة المهدي بالكفرة ، وكأن السلطان أراد أن ينتهز فرصة تقرّب المهدي بإرسال رسوله بأن يتحقق بواسطة أحد حجابه العــارفين بأحوال المهدي من حقيقة وضع المهدي بالكفرة . ولم يغفل عبدالحميد عن إرسال هدايا للمهدي مع العيساوي فيها نسخة مطبوعة من صحيح البخاري وساعـــة « لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة له بصالح دعواته لجنابه العالي »[3] .

وقبل وصول صادق المؤيد للكفرة وصلت للمهدي رسالة طويلة بعث بهـــا باشكاتب سراي يلدز بتاريخ ٢ ربيع الآخر ١٣١٣ (٢٢ سبتمبر ١٨٩٥) ، وقد أورد شكري والأشهب مقتطفات منها ، ونلمس من الرسالة رغبة الباب العــالي باستمالة المهدي وإقناعه بضرورة توحيد الجهود تحت راية الخلافة العثمانية وتحذيره من أطماع الدول المستعمرة ثم حثه على مواصلة الدعوة للاسلام . وهي

---

١ ـ شكري ص ٨٥ .
٢ ـ دار المحفوظات .
٣ ـ شكري ٨٦ .

تدل على اتجاه عبد الحميد للاستفادة من الحركة واطمئنانه لأغراضها . وتتضمن الرسالة بالإضافة إلى إخبار المهدي بوصول رسوله وبإرسال الصادق المؤيد حديثاً طويلاً عن واجب تأييد الخلافة « ومثلكم من يعلم حق الخلافة الكبرى وشأن الإمامــة العظمى . وحيث أن الخلافة المنصورة العثمانية والإمامة المقدسة الاسلامية قد أثبت الله منذ مئات السنين في البيت العالي العثماني وجودها وحقق عهودها ، وقد افترض الله نصر هــذه الخلافة المؤيدة العثمانية وطاعتها على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في الباطن والظاهر لا سيما في مثل هــذه الأوقات فإن الأغيار من الكفار بل والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة السنية على هدم منار الخلافـة العثمانية الاسلامية (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . وحق من المسموع أن جماعـة من الانكليز والايتاليان وغيرهم قد تدرجوا الى أطرافكم بطريق السياحة وأنتم تعلمون بالفراسة وقرائن الأحوال مــا في أنفسهم وما يخـالج سرائرهم من المقاصد المضرة للدين والمسلمين ، فأول ما يؤمل منكم ، وإن كان هو المفروض كما هو معلوم لدى حضرتكم أن تنوروا أذهان محبيكم ومن يواليكم من الطلبة والتلامذة قرباً وبعداً في جميع الأنحاء التي تسمع بها كلمتكم وتؤثر بها نصيحتكم بصدق الاخلاص للخلافة المقدسة العثمانية والإمامــة الكبرى الاسلامية التي – لا سمح الله ولا قدّر – لو بلغ الأعداء والملاحدة فيها أربهم لانهزم شرف الدين المبين وتفرّقت شيعاً جماعات المسلمين ولصارت فرقاً فرقاً وتمزقت إرباً إرباً . وهذا والعياذ بالله يكون ذلاً لكل موحد على وجه الأرض بالطول والعرض، بل هو مما يخرب شأن الشريعة ويجعلها بعد العز وضيعة وذلك مما يحزن القلب الأطهر والأقدس النبوي في الضريح الأطهر المصطفوي » .

ففي الرسالة تركيز على شرعية الخلافة العثمانية وعلى ضرورة تأييدها، وفيها ضرب على وتر مؤامرات الأجانب على الخلافة وذلك لاستمالة المهدي، ثم فيها طلب من المهدي بالعمل على الدعوة بين مريديه للاخلاص لها. وبعد حديث آخر يتناول الأفكار نفسها من أن أنصار الخلافة دوماً هم العلماء وأن أمل خليفـة المصطفى

الأعظم بصداقة المهدي عظيم ، وأن القصد هو اتحاد المسلمين ورد المعتـــدين ، يتحدث عن نشاط المبشرين « وأبيّن لحضرتكم أن من المسموع أن بعض الرهبان لعلمهم بأن السودان أكثرهم على جهل وغباوة ويرغبون بالخرز ومثله من الأمتعة اللماعة ، فهم يأخذون منها الكثير ويذهبون إلى ديار السودان ومعهم ترجمة الإنجيل وغيره من كتبهم بالعربية ، فبعد إهداء الأغبياء أشياء من الخرز وأمثاله يقرأون لهم من كتبهم وكأنهم من وعاظ الإسلام وبالتدريج يضلونهم والعياذ بالله ويدخلونهم في دينهم . فكذلك الاهتمام بهذا الشأن بواسطة العلماء والصلحاء من تلامذتكم هو من أهم المهمات الدينية فيلزم به بذل الوسع دفعاً لهـــذا الضرر الديني وقياماً بواجب الأخوة الاسلامية »[1] . ويمكن أن نستنتج من الرسالة أن عبد الحميد قرر التكيف مع واقع العزلة التي اختطها المهدي سياسة له ، فحوّل سياسته من تقييد الحركة بتبعيتها له الى الاعتراف باستقلالها مع إقامة صلات طيبة بها والاستفادة منها في النطاقات التي تعمل فيها. وأغلب الظن أن عبدالحميد سلك هذه السياسة بعد أن رأى عـدم جدوى محاولاته في السيطرة على الحركة وبعد أن اطمأن نوعاً ما الى أن أهدافها لا تتعارض مع سياسته ولا خطر من المهدي على عرشه .

ولقد زاد من اطمئنان عبدالحميد تقرير الصادق المؤيد عن رحلته إلى الكفرة ، إذ اطلع الصادق بنفسه على احوال الحركة هناك واجتمع بالمهدي الذي استقبله استقبالاً حافلاً ، فاطمأن إلى حسن نياته تجاه السلطان . وقد وصف الصـادق زيارته للكفرة في كتابه الذي قصّ فيه رحلته ، ومما ذكر فيه أنه بعد وصوله الكفرة وتناوله الغداء قابله المهدي هو ومن معه « وبعد استقبال ظريف منه دعا لنا وقرأنا الفاتحة وقابلني مقابلة خاصة تحدثنا فيها كثيراً » . كما قال عن موقف المهدي من الخلافة « وهو شيخ صادق لمقام الخلافة وحسب وصيـة والده في كل صباح عقب الصلاة يجري الدعاء بالصحة والعافية لخليفة المسلمين ثم تُقرأ الفاتحة

---

١ ــ شكري ٨٧ .

وذلك في جميع الزوايا .. وهو دائماً يوصي أتباعه بطاعة أمير المؤمنين ومحبة الدولة العثمانية لأن طاعتها واجبة شرعاً وعقلاً »[1] . وقد تركت الرحلة أثراً حسناً في نفس الصادق المؤيد وظهر ذلك فيما كتبه عن المهدي في كتابه . ولا شك في أنه استطاع تطمين عبدالحميد بما نقله عن المهدي ، ومن ذلك الحين سارت العلاقات سيراً طيباً بين الباب العالي والسنوسية .

أما موقف المهدي طوال تلك المدة فكان تابعاً عن سياسته الانعزالية السلمية ومنسجماً معها . والحق أنه بالإضافة إلى إحسانه الصلة بالولاة فإنه كان حريصاً على عدم إغضاب الدولة، ويتضح هذا من رسائله . ففي رسالة بعث بها إلى الزوايا ينبه الإخوان على عدم التورط فيما يخالف أوامر الدولة وذلك بمناسبة زيارة رجل قدم من مصر فاستضافوه وتبين أن له مهمة في « برنو » . ومما ورد في الرسالة : «فندم الإخوان على الكتابة معه وعدم صده عن هذا المقصد مع أن الدولة منبهة على مثله . وهذه غفلة عجيبة فلذلك حررنا لكم لتجروا ما يلزم في ضبط المذكور وإيصاله للدولة أو جعله تحت الحفظ وأنتم أعرف بمثل هـذا والسلام »[2] . كما نلمس في رسالة ثانية من المهدي إلى سليمان نامق بتاريخ ١٨ ذي الحجة ١٣١٢ ، أي بعد الوصول إلى الكفرة مباشرة ، العلاقة الطيبة بين المهدي وبينه وحسن نيات المهدي تجاه الدولة . وفي الرسالة ردٌ على سؤال لنامق باشا حول رجل من الأعداء زار سيوة « ورجع ولم ينل الوطر » وفيها أيضاً «ولا زلنا رافعين أكف الضراعة والابتهال إلى مجيب الدعوات الكبير المتعال أن ينصر مولانا السلطان على أعدائه ويجعل الظفر مقروناً بجنوده وأوليائه ويعلي به كلمة التوحيد ويديم مدته ومودته على التأييد »[3] .

ولقد استمر موقف المهدي على هذه الحـال طيلة مدة رئاسته للحركة ولم يتعكر الجو بين الدولة والسنوسية إلا في الفترة التي سبقت الانتقال إلى الكفرة .

---

١ – الصادق المؤيد ص٦٦ ، ٦٧ .
٢ – مجموعة الشيخ منصور المحجوب .
٣ – دار المحفوظات .

ويمكن ملاحظة ذلك فيما كتبه أحمد الشريف في كتابه حيث نلمس نقمة الإخوان على مأموري الدولة وتضايقهم من تصرفات هؤلاء المأمورين نحوهم .

ويستنتج من رسالة الصـــدر الأعظم سعيد نامق لوالي طرابلس أن بعض مأموري الدولة عملوا على إيقاع الأذى بأتباع السنوسية فأوقفوا البعض وضربوا وسجنوا البعض الآخر بدون علم الباب العالي . وتشرح الرسالة أسباب تصرفهم هذا فتذكر بأن الأجانب حـــاولوا تأليف قلب السنوسي وجذبه لهم ، فلما لم يحصلوا على نتيجة عملوا على استمالة الموظفين المحليين في المتصرفية وأقنعوهم بالضغط على السنوسية. وتشير الرسالة صراحة أن تصرفات الموظفين هذه مغايرة للفرمان السلطاني وللشعائر الاسلامية والانسانية ، كما تذكر أيضاً أن بعض الأجانب تخفوا بتغيير أزيائهم وحاولوا بمساعدة بعض الموظفين المحليين الوصـــول إلى الجغبوب[1] . لذلك نرى إشارة في كتاب أحمد الشريف إلى جواسيس الترك وإشارة إلى تضايق الاخوان من ظلم الحكام، ولكن هذا كله زال بانتقال المهدي إلى الكفرة وبتغيير سياسة عبدالحميد تجاهه .

أسباب الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة

تحوّل محمد المهدي من الجغبوب في ٢٢ شوال ١٣١٢ الموافق ١٨ إبريل ١٨٩٥ وتوجه الى الكفرة واتخذها مركزاً جديداً لحركته . وقد تناول المؤرخون هذا الانتقال بالتعليل . فبريتشارد يرى أن انتشار النظام في الصحراء على الخصوص جعل توجيهه من الجغبوب صعباً لذلك تحول المهدي الى الكفرة بوصفهـا مركزاً أكثر توسطاً في الامبراطورية التي كان يبنيها . ويخالف بريتشارد آراء المؤرخين الأوربيين الذين يرون أن أحد أسباب مغادرة المهدي الى الكفرة كان رغبته في توسيع شقة البعد بينه وبين الإدارة التركية ، ويقول بأنه لم يجد أي دليل يعزز وجهة النظر هذه ، كما يرى أن المهدي انزعج من تحركات الفرنسيين في الصحراء فرغب أن يكون قريباً من زوايا السنوسية فيها[2] . ولقد ذكر أكثر من مؤرخ أوربي أن السبب هو خوفه من السلطات التركية ومن هؤلاء بريدا الإيطالي[3] .

---

١ ـ دار المحفوظات ، مراسلات الولاة . ٢ ـ بريتشارد ص ٢١ ، ٢٢ .
٣ ـ انظر الأشهب ، المهدي .

كما ذكر البستاني في دائرة المعارف هذا السبب وبيّن أن الرحيل جـــاء نتيجة شعور المهدي بعزم الدولة على استدعائه للآستانة[1] .

ويورد أرسلان الأقوال التي ذكرت في أسباب انتقال المهدي وملخصها : « أن البعض يرى أن استقرار الانكليز في مصر أجفل السنوسي ودفعـــه إلى الصحراء ، والبعض الآخر يرى أن السبب توقعه لغزو الطليان لطرابلس كما توقع والده .. وهناك من قال إن السبب هو معاملة بعض مأموري الترك الذين كانوا يتحرون وينقبون عن السلاح في الزوايا » .. ثم يورد أرسلان رأيه وهو أن هذه الأسباب مجتمعة يضاف إليها أنه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وعمارة تلك الأماكن هي التي دفعته للانتقال »[2] . ويورد زيادة هذه الأسباب مجتمعة . كما يفصل شكري في ذكرها ، ويستدل بما أورده أحمد الشريف في مخطوطه على أن السبب كان الرغبة في الأمن من غدر الدول الأوربية والراحة من تقلبات الخليفة العثماني[3] . أما الحشايشي فيظن أن سبب الارتحال هو ميل المهدي للانزواء وابتعاده عن المطامع الانكليزية[4] .

ويضيء لنا حديث أحمد الشريف عن الانتقال أسبـــاب هذا الانتقال فهو يقول : « ولما آن أوان الارتحال كثر تردد الجواسيس السواحين بأرض الجغابيب من خدمة الترك والنصارى ، كما قال أحد الفضلاء : الترك مقدمة النصارى مـا دخلوا محلا إلا ودخلوه النصارى . وسبب تردد الجواسيس السواحين بأرض الجغابيب أمرين: حيث سولت لهم أنفسهم وإبليس أنهم إذا عملوا حيلاً يقبضون على وحيد الدهر وفريد العصر .. ولا يدرون أن خالقه يحميه ويدفع عنه كيدهم إلى أن يخرجه فيهم فيهرق دماءهم وينصر الملة الاسلامية . . وهم يقولون أن هذا الذي تخوفت منه الدول من سلبه ملكها فعملوا له حيلاً حتى نتحصل عليه فنضمه في محل بإزائنا وجميع ما يلزمه من النفقة نجريها له فعند ذلك نستريحوا منه ، فأتاه الإذن بالهجرة . وما كان أحد يظن أنه يرتحل من ذلك المحل إلى الناحية الجنوبية »[5] .

---

١ ـ البستاني ، دائرة المعارف مادة سنوسي . ٢ ـ أرسلان ، مجلد ٢ ، ١٤٢ .
٣ ـ شكري ص ٨٨ . ٤ ـ الحشايشي ، المقال .
٥ ـ أحمد الشريف ، المخطوط ص ١١٥ ، ١١٦ .

فهذا الحديث يدل دلالة قاطعة على أن سبب الانتقال هو شعور المهدي بوجود مؤامرات للقبض عليه يدّبرها الترك والنصارى . وأغلب الظن أنه علم بنية استدعائه الى الآستانة ، وربما يكون الاستدعاء قد تم ، وأغلب الظن أيضاً أنه عرف أن الأوربيين وراء هذا الاستدعاء ، وان الغرض منه هو حجزه في محل بجانبهم مع إجراء النفقة عليه حتى يستريحوا منه . ويزيد من دلالة هذا الحديث كما يتعزز هذا الرأي بالحكاية التي نقلها أحمد الشريف وقال إن عمه المهدي قالها حين خروجه وأنه سمعها من والده ، وهي عن أهمية سلامة الرأس القائد – وقد أوردناها في فصل سبق – وملخصها أن كبير قوم ارتحل مع قومه وفي الطريق برز لهم العدو فالتحموا معه في قتال ، فكان ولد كبير القوم شديد الحرص على سلامة والده، وعندما قال له بعض القوم : أنت ما شغلك إلا أبوك. أجاب : نعم رجل كألف وألف خفاف كرجل . وعلق المهدي بقوله : صدق الولد ، متى كان الرأس موجوداً فالذي يذهب يأتِ الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه . فهذه الحكاية تبرز شعور الاخوان بخطر العدو وحرصهم على سلامة الرأس وذلك عن طريق هجرته إلى الجنوب .

وقد حكى المهدي حكاية ثانية عند خروجه قال: «رأيت نفسي فوق جبل متسع ، وهو جبل يراه الذاهب الى قارة الشهيبات ، مع رجل من الصالحين السائحين بالجهة الجنوبية من أرض الجغابيب فذهب بي الى حافة الجبل وإذا بالناس يمرون من تحته ما بين رائح وغادٍ ويرفعون بعض الأحيان وجوههم الى أعلى الجبل ولا يرون شيئاً يظهر ذلك فقال لي : أتراهم ينظروننا ؟ فقلت له : لا . فقال : وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، فما داموا على هذه الحال فأنتم ستقرون في محلكم الآن فإذا التفتوا إليكم فارحلوا هكذا، وأشار الى ناحية الجنوب . ثم تنحى عن حافة الجبل حصة وجلس وجلست معه وتحدثنا ساعة فطلع لنا رأس إنسان من ناحية ، وطأطأ رأسه لما رآنا ، وطلع آخر من جهة أخرى ورآنا وطأطأ رأسه ، ثم آخر من جهة أخرى وطأطأ رأسه أيضاً فقال

الصالح : هيه وأشار بيده إلى الارتحال وقام مسرعاً ، وبقيت جالساً أنظر ماذا يصنع ، ولم يأمرني بالقيام معه ، فخطا خطوات ثم تكلم مع شخص لم أشعر به قبل أنه هناك فسمعته يقول له : إجمع الإبل . وحث عليـــه بالتعجيل فذهب يهرول ووقف الصالح في المحل الذي أمره فيه لينظره وعليه أثر العجلة ، بحيث صار يكثر الالتفـات الى جميع الجهات فلم يلبث إلا قليلاً وإذا بالإبل مقبلة من جهات متعددة ومعها الرجـال فأسرع اليهم الصالح واستقبلهم فرحاً مسروراً بقدومهم وقال لهم : بركّوا الإبل . فبركوهـا ، ثم قال لهم : هاتوا الحوايج والشقاذيف فأحضروها سريعاً وشرعوا يشدونهـا على الإبل والرجل معهم يتخللهم حتى فرغوا من الشد على الابل . فقال لهم : سوقوا . فساقوا بأحمالها وشقادفها وأقبل الرجل نحوي حتى وقف عليّ وقال: بسم الله توكل على الله، وأنا أمشي معك قليلاً أودعك ، فقمت معه ومشينا حتى توارى عنا المحل الذي كنا فيه فودعني ورجع . وهـــذا الرجل أحد السائحين في الجهة القبلية من أرض الجغابيب لا يفارقون تلك الجهة وهو رجل مسنّ قد جاوز المئة .. »[1] . فهذه الرؤيا ترمز الى أشياء عــدة وتصور حقيقة الوضع كما هي في ذهن المهدي . فهو في أعلى الجبل مع الرجل الصالح والرجال الذين ينظرون ولا يبصرون هم أعداء السنوسية .. ولا خطر منهم ما داموا لا يبصرون ، ولكن الأمر تغير عندمـــا يرونها فيشير الرجل الصالح عليه بالرحلة والانتقـال الى الجنوب حيث الكفرة والاسراع في ذلك . وهكذا فإنه يمكننا أن نوجز أسبـــاب الانتقال في أن المهـدي شعر بمؤمرات الأوربيين للقبض عليه وبمحاولة الدولة استدعاءه فكان هذا هو السبب المباشر الذي جعله يسارع بالرحلة. يضاف اليه أن انتشار الزوايا في الصحراء جعله يرغب في اختيار مركز متوسط فيهـا لأن الجغبوب بعيدة نسبياً .

---

١ ـ احمد الشريف ، المخطوط ص ١١ .

قصة الرحلة من الجغبوب الى الكفرة

حكى أحمد الشريف أخبار هذه الرحلة في كتابه الذي ألفه عنها وأسماه « الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج». ومما أورده عن خروجها من الجغبوب قوله « .. ففي يوم الاثنين الموافق تسعة عشر من شوال دخلا (أي المهدي وأخوه الشريف) الروضة الشريفة (أي ضريح والدهما محمد بن علي السنوسي) بعد الزوال فودعاها ورجعا لمنازلهما لتهيىء الخروج للسفر ، وفي صبيحة يوم الخميس الموافق اثنين وعشرين من الشهر المذكور سنة الثاني عشر بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من له العز والشرف ، ودعا الأهل والاخوان وأودعاهم الله الحفيظ المناف . وفي عشية ذلك اليوم المذكور كان ارتحالهما من زاوية الجغبوب متوجهين إلى الكفرة لناحية الجنوب [1]» . ثم يفصل احمد الشريف في الحديث عن الرحلة فيصف الوديان وكثبان الرمال والواحات والحطايا التي مروا بها ، ويذكر أنواع النبات التي تنمو في تلك الجهات. كما يذكر اسماء الزوايا التي مروا بها ، ويحكي ما حدث للركب من حوادث . وقد مروا في طريقهم بوادي قطمير ثم بزاوية الاثيلة ثم بعدة حطايا ، وفي يوم الثلاثاء سبعة عشر من ذي الحجة صلوا الضحى بزاوية الجوف ، وهي المكان المقصود فتكون الرحلة قد استغرقت حوالي شهرين. «..وفرح أهل الجوف فرحاً لا مزيد عليه.. وصار الرجال من الصباح إلى الزوال يفرغون البارود والنساء يضربن الطبول ويزغردن ولا يفترن .. وفي يوم حلوله أهل هذا المحل ما بين حر وغلام زهاء عن ألف نفر كلهم أتوا للزيارة [2] » .

« وبعد حلول الاستاذ سيد محمد المهدي رضي الله عنه بالجوف مكث به آخر ذي الحجة ومحرم وصفر ثم في أول ربيع الأول يوم الاحد السابع منه شرع في

---

١ – أحمد الشريف ص ١٢ ، ٢ – ص ٢٨ .

بناء زاوية فوق جبل بجري الزاوية الأولى وسماها رضي الله عنه بالتاج وبينها وبين الزاوية نصف ساعه .. وكان الأستاذ (ر) قصده السكنى بها [1]. ثم أمر المهدي ببناء زوايا خرى .

في الكفرة

وتولى المهدي تصريف أمور الحركة من الكفرة فعجت بالحركة حيث صار اتباع السنوسية يقدمون إليها للسلام على المهدي حتى ضاقت بهم مساكنها . وفي احدى رسائل المهدي إلى محمد علي المحجوب في زاوية الطيلمون يطلب المهدي ارسال بيوت شعر لأن وفوداً كثيرة جاءت للتسليم عليه وهو خجل لعدم وجود بيوت تأويهم [2] . كما قام المهدي بإرسال رسله إلى مختلف الجهات منها حيث أرسل المرتضى بن أبي خريص بكتاب إلى سلطان واداي ومعه رجلان . كما أرسل رسالة لوالي بنغازي . وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا .

وشرع المهدي بعد أن استقر به المقام وانتهت أيام الاستقبالات الأولى في تركيز وضع الحركة في الكفرة ، فنظم حياة الأهالي ، وفرض النظام ومنع الاعتداءات ونشر السلام بين قبيلتي زوية والتبو اللتين تسكنان تلك المنطقة ، ووجه جهود الأفراد نحو العمل المثمر سواء في تعمير الزوايا أو في التجارة . وقد زاد تبعاً لذلك عدد سكان الكفرة وانتعشت حياة الأهالي وعم الرخاء . واهتم المهدي بحفر الآبار المتتابعة على طول خطوط القوافل ، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك . واصبحت الكفرة ملتقى لطرق القوافل التي تمتد بين السودان وبرقة الساحلية .

ومن البعثات الاستكشافية التي أرسلها المهدي واحدة اكتشفت حطية

---

١ ـ احمد الشريف ص ٣١ .

٢ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب .

الموينات والحطايا التي تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذاك –كما يقول الأشهب– « وقد حدد موقع هذه الحطايا جغرافياً أحمد حسنين عندما زارها مصحوباً سنة ١٩٢٢ مصحوباً بالأدلاء السنوسيين [1] . » وخفّ إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية. وقد كان لهذه القبيلة دور كبير في إنجاز أعمال الحركة في تلك الفترة . ويبدو أن ابن السنوسي عرف امكانياتها فركز عليها ، ويظهر هذا جلياً في أحاديثه مع عقيلة الزوي عند بناء الجغبوب حيث حدثه عن رغبته في بناء زاوية في الكفرة وقال له « مرادنا في كونكم تتولوا أمرها » . فكان أن أسس زاوية الجوف التي عرفت نسبة الى ابن السنوسي باسم زاوية الأستاذ . ويبدو أيضاً أن قبيلة زوية هي التي شجعت المهدي على الانتقال إلى الكفرة ، ويقال إنها منحته ثلث أراضيها الخصبة [2] .

وأنشئت في تلك الفترة عدة زوايا في منطقة الكفرة منها« التاج » التي بنيت على قمة جبل شامخ ، وربيانة ، وتازربو . كما امتد نشاط الحركة جنوباً فنفذ إلى مواطن جديدة في السودان الافريقي ، وساعدت طرق القوافل والتعامل التجاري مع القبائل الوثنية السودانية على إيصال الدعوة إليهم وتبليغهم الاسلام .

ومع أن اهتمام الحركة السنوسية بالسودان الافريقي قد بدأ في عهد المؤسس ابن السنوسي الا أن هذا الاهتمام زاد في أيام المهدي ، وذلك لأن الاحداث والظروف التي احاطت بالمهدي جعلته يوجه ناقته نحو الجنوب والصحراء، ليبتعد عن القوى المتربصة به ، وليحافظ على استقلال حركته ، وليمكن لها بين القبائل الوثنية فيزيدها قوة .

---

١ – الأشهب ، المهدي ٦٩ . ٢ – الاشهب ، المهدي ٦٢ نقلاً عن كتاب « احتلال الكفرة » .

احداث الصحراء

ولقد جدت أحداث في اقاليم الصحراء جعلت المهدي اكثر اهتماماً بالحرص على القرب منها . إذ هدد تلك الاقاليم خطران كبيران « نجم احدهما عن قيام سلطنة رابح في السودان الغربي . بينما كان عزم الفرنسيين على التوغل في القارة وبسط سلطانهم على الإمارات الاسلامية في افريقية الغربية مصدر الخطر الثاني [1] » . وكلا الخطرين يهدد قوة الحركة في تلك الاصقاع ويبدو من رسالة بعثها المهدي إلى الزوايا في عام ١٣١٣ – ١٨٩٥ أن نشاط جواسيس الفرنسيين ظهر في برقة لجس نبض السنوسية حول موقفها من احداث الصحراء وأخذ معلومات عن قوة السنوسيين .

وقد جاء في الرسالة « وليكن في شريف علمكم أن في سنة ١٣١٣ قدم رجل من مصر مربوع في وجهه أثر الجدري جاحظ العينين اسمه امين الحلواني وادعى أنه من أهل المدينة المنورة وله معارف ومعلومات تامة بحكام مصر وعلمائها واعيانها واتحاد مع الزبير باشا وادعى أنه هو الذي ارسله إلى برنو ليجتمع برابح الذي ملكها ، فكتب معه اهل الجغبوب كتاباً إلى قاضي جالو وجواباً لأحوال غات وتوجه من عندهم في التاريخ المذكور اعلاه ومعه مال كثير وقصده أن يؤلف بين رابح والافرنسيس فندم الإخوان على الكتابة معه [2] » .

علاقته بوادي

وخطط المهدي لمجابهة هذين الخطرين فعمل على توطيد العلاقات بينه وبين وادي . فأرسل مبعوثه المرتضى ابو رخيص بكتاب إلى سلطانها يوسف .

---

١ – شكري ٩١ .　٢ – من مجموعة الشيخ منصور المحجوب .

وكانت العلاقات قوية بين السنوسية ووادای منذ عهد ابن السنوسي الذي كان على صلة بسلطانها . « ثم ازدادت الروابط بين المهدي وسلطان واداي في المدة التالية . حتى طلب يوسف في اواخر ١٨٩٧ أن يوفد المهدي إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوباً خاصاً في عاصمته . فأرسل اليه سيدي محمد بن عبد الله السني .. فوطد نفوذه السنوسية في واداي [١] » .

أحداث شخصية

وعاش المهدي اثناء اقامته بالكفرة ظروفاً صعبة أحاطت به وبحركته . فمن ناحية اشتد عليه المرض بعد حلوله بالكفرة حتى ألزمه الفراش ثم عاوده عدة مرات . ويبدو من رسائله أن الآلام التي عاناها كانت شديدة حتى منعته من الجلوس في الصلاة وملاقاة الناس .

وقد جاء في رسالة بعث بها لأخيه قوله « وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء والألم الذي معي تهاون بحمد الله .. وقد ظهر النقص في الحبة الأولى لأنها الكبيرة وقل سيلانها وانجلت الزرقة التي حولها وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع .. وصرت اقــدر على تكلف الجلوس في الصلاة وملاقات الناس [٢] » . وجاء في رسالة أخرى ارسلها لأخيه بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣١٣ قوله « احسست بالألم في الجهة الأخرى وتزايد ... وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائماً وقاعداً ، وصرت اصلي على جنبي راقداً .. وقد تركت الخروج للناس والجمعة ، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيراً [٣] » . ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد مدة قصيرة فقد جاء في رسالة بعث بها إلى شيخ زاوية الطيلمون

---

١ – شكري ٩١ . ٢-٣ – الاشهب المهدي ٦٨ .

في ٧ ذي الحجة ١٣١٣ قوله «.. والآن ولله الحمد الألم الذي تعرفونه قد خف كثيراً عما كان عليه قبل دخولنا في العشية حتى أننا صرنا نحضر صلاة الجمعة في الجامع بعد أن كنا لا نستطيع الجلوس البتة وربنا يرفع عنا وعنكم جميع الباس بحرمة سيد الناس .. » ثم يطلب ارسال بعض الشياه لأن اهل المعرفة شرطوا عليه بعدم استعمال لحم الماعز، ولحم الضان عزيز جديداً في تلك المنطقة، ويطلب كمية من السمن لانعدامه هناك[1]. كذلك فإن المهدي من ناحية أخرى فقد عدداً من اقرب الناس اليه في مدة قصيرة أثناء تلك الفترة . فبعد أن توفي أستاذه عمران بن بركة في منتصف سنة ١٣١١، توفيت والدته في آخر تلك السنة . ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف ان توفي في ٢٧ رمضان ١٣١٣ . وكان قد غادر الكفرة بعد أن رافق شقيقه اليها، وعاد الى الجغبوب . ويذكر أحمد الشريف في رحلته أن أباه مكث في الكفرة حتى منتصف صفر، « وكان مرام عمي الاستاذ محمد المهدي (ر) انهما لا يرتحلان معاً بل يخلفه بالجغبوب ويرتحل هو إلى ناحية الجنوب ثم لما قرب السفر طلب منه الوالد السيد محمد الشريف (ر) الوصول معه إلى المحل المقصود ثم الرجوع إلى المحل المعهود تاركاً لعياله وجميع تعلقاته هو سوى ابنه الكبير وهو محرر هذه الرحلة واختيه، اختار رضي الله عنه مرافقتهما لعمهما للقيام بخدمته وخصوصيات شؤونه . فأذن له (ر) في ذلك وسارا مع بعضهما .. وكان سيدنا الوالد (ر) حليف آلام، كثير أمراض واسقام .. ولم يسافر إلا وهو في صحة وعافية .. » ويستمر احمد الشريف في رواية رحلة والده إلى الجغبوب مبيناً الاماكن التي مر بها وذاكراً اشتداد المرض عليه إلى أن يذكر وصوله للجغبوب وفرحة الناس به ثم وفاته « وفي يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره فصعب علينا فراقه غاية وازعجنا نهاية ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون إنا لله وإنا إليه راجعون . »[2] . ومما لا شك فيه أن

١ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب .
٢ ـ احمد الشريف المخطوط من ٤٤ الى ٥٥ .

هذه الأحداث قد أثرت على المهدي ، يضاف إليها الظروف التي كانت تمر بهـا الحركة ـ وهي ظروف دقيقة ـ ولكن من الملاحظ من رسائل المهدي أن الروح التي كان يستقبل بهـا تلك الاحداث ويدير بها في تلك الظروف دقة الحركة كانت روحاً عالية تنبض بالايمان .

الانتقال إلى قرو

أقام السيد المهدي بالكفرة مدة اربع سنوات ونصف انتقل بعدها إلى قرو في الصحراء الافريقية ، في السودان الاوسط واتخذها مركزاً للحركة حتى وفاته بعد الانتقال بحوالي ثلاث سنوات . وقد نجم هذا الانتقال عن الظروف التي احاطت بالحركة في آخر القرن التـاسع عشر ، فكانت له اسبابه التي بحثها مؤرخو السنوسية . فهذا الأشهب يرى أن التحول عن الكفرة كان مقرراً ومفروغاً منه منذ أن تقرر التحول إلى الجغبوب . ويورد أدلته على هذا القول وهي أولاً ما جاء في كتاب بعثه المهدي إلى شقيقه يتحدث فيه عن الصادق المؤيد فيقول : « وشدة عجلة هذا الانسان مشككة. يجب اغتنام الفرصة قبل فواتها بالارتحال إلى السودان فنقطع بهم حيـل الوصول جماعات وفرادى ، ومن يوم سفره ونحن نجهز في الكراميد وتصليح الشقاذف . . والنية أن ننزل بربيانة ونسمع الاخبـار وننتظر الغائبين وبعـد التاريخ يتوجه الاسطواية ، ليهيئوا محـلاً للنزول . » وثانيـاً ، كتاب ارسله المهـدي إلى شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ ١٣١٤ يأمره بالحضور إلى الكفرة قبل الارتحال منهـا ولم تحدد جهة الارتحـال . وثالثاً : ارسال البعثات الاستكشافية في الصحراء وبناء الآبار ومنها بئر بشرى على مسافة اربعة أيام من الكفرة. ويخرج الأشهب من هذه القرائن على أن الانتقال كان مقرراً وان الاستعداد له كان يجري على قدم وساق في جو من الكتمان الشديد . [1]

---

١ – الأشهب، المهدي ٦٩ .

ولا يذكر الأشهب تاريخ الرسالة التي ورد فيها ذكر الصادق المؤيد . والمرجح أنها في أول سنة ١٣١٣ لان زيارة الصادق كانت في ذلك الوقت ولأن محمد الشريف الذي أرسلت له الرسالة توفي في النصف الثاني من تلك السنة . والرسالة تفيدنا في أن المهدي كان ينوي التغلغل في الصحراء إذا ما اشتد ضغط الدولة العثمانية عليه ليحتفظ باستقلاله وهـــذا هو السبب الذي دفعه للانتقال من الجغبوب إلى الكفرة . ولكن الرسالة لا تحدد المكان المقصود . ونحن نرى أن الشك الذي خامر المهدي من ناحية الدولة العلية قد قل كثيراً بعد ذلك في السنوات التي تلت لذلك بقي المهدي في الكفرة طيلة أربع سنوات . أما الرسالة التي بعث بها المهدي إلى شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ ١٣١٤ فلا تلقي أضواء على الارتحـــال ولا على جهته . كما أن تاريخها يسبق تاريخ الانتقال بثلاث سنوات . وأما بالنسبة للبعثات الاستكشافية فقد كانت من مجالات العمل في الحركة وامتداداً لنشاط سابق في هذا الشأن . وعلى أية حال فإن نية الارتحال لازمت المهدي دائمـاً للحفاظ على دعوته . ويبني شكري اسباب الانتقال على الاحداث التي جرت في السودان الاوسط حيث اشتد خطرا سلطنة رابح والتوسع الفرنسي وبدأت عمليـــات خطيرة تهدد الزوايا السنوسية « ولذلك قرر المهدي الانتقال من الكفرة إلى محـل قريب من هذه العمليات الخطيرة . فغادر التـــاج إلى زاوية قرو في برقو وخرج معه ابن اخيه السيد احمد الشريف ثم مستشاره المخلص الامين السيد احمد الريفي . وكما حدث عند انتقال السيد من الجغبوب إلى الكفرة اختلف الكثيرون في تفسير اسباب هذا الانتقال وتنوعت أقوالهم ، ولو أنه كان من الواضح أن السيد انمـا يريد من وجوده بواحة قرو أن يستطيع تنظيم المقاومة واتخـاذ الأهبة لمواجهة قوات الفرنسيين الزاحفة صوب بحيرة تشاد . »[1] ولا شك في أن احداث السودان كانت تهم المهدي وخصوصاً أن مجال توسع حركته كان في تلك المنطقة ، ولهذا

---

١ ـ شكري ٩٣

فإن من المتوقع أن يكون حرصه على القرب منها أحد اسباب انتقاله إلى قرو.
هذا وقد أوضحت لنا رسائل المهدي جوانب جديدة في هـذه المسألة وألقت أضواءً على اسباب أخرى للانتقال. فقد جاء في هامش رسالة بعث بها المهدي إلى شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ ٢٢ محرم ١٣١٧ قوله: «وقد بلغنا خبر من جالو بأن الباشا كتب إلى قائمقـــام بأن هناك ستين هجيناً من الانقليز تريد الكفرة وأنه يعمل رباطاً في الطريق فإن التقوا بهم يردوهم أو يعاملوهم بالعسكر إن أبوا الرجوع. ولا ندري أهذا الخبر له أصل أم لا؛ فإن طرق سمعكم مثل هذه الأخبار فبادروا إلينا بالاعلام ولو مع مخصوص ولا تغفلوا عن مثل هذا. وإن صح هذا الخبر فلا بد لنا من الانتقال من هذا المحل..»[1]. فهذه الرسالة تدل على تخوف المهدي من المؤامرات التي تحاك ضده، ومن بينها مـــا بلغه من محاولة الانجليز القدوم إلى الكفرة بستين هجيناً. ومع أن هذا الخبر قد يكون لا أصل له إلا أن تخوف المهدي يدل على لمسه لمثل هذه النيات السيئة نحوه من أعدائه. ويتضح من الرسالة أيضاً أن المهدي كان يعزم ويفكر بالانتقال كلما شعر بخطر يتهدده وهذا ما وضح أيضاً من الرسالة التي بعث بهـا لشقيقه وورد فيها ذكر المؤيد. وجاء في رسالة أخرى بعثها بتاريخ ١٠ جمادى الثاني ١٣١٧ إلى محمد علي المحجوب ابن شيخ الزاوية قوله: «ثم ان الوالد – يعني مصطفى المحجوب – تبين لنا أن نصحبه معنا فأنتم وتوا (أي جهزوا) جميع مايلزم من آلة السفر وارحلوا إلى الجغبوب بجميع العائلة..»[2]. وقد كان من عادة المهدي أن يصحب كبار الاخوان في اسفاره. ولا ترد في الرسائل إشارات عـن خطر الفرنسيين على الصحراء ونيات المهدي إزاءهم، وهذا لا يدل على عدم وجود ذلك الخطر وتلك النيات لأن الرسائل التي كان يبعث بها المهدي إلى الزوايا لم تكن تتناول دقائق الاخبار وانما كانت مجملة وجلهـــا فيه إخبار عن وصول أخبار الزوايا وتحيات وطلبات ونشرة أخبار اجتماعية. وعليه فإننـــا نرى

١، ٢ – مجموعة الشيخ منصور المحجوب.

ان تفكير المهدي بالتغلغل في الصحراء لم يكن جـديداً بل وجد لديه منذ أن كان بالجغبوب ووجد لدى والده ابن السنوسي الذي كان يرى فيه مأمناً مــن الأعداء . ولكن الانتقال من الكفرة إلى قرو كان بسبب الاحداث التي جرت في السودان الاوسط من جهة وخوفاً من مؤامرات الاعداء التي تريد الكفرة من جهة أخرى .

وقد غادر المهدي الكفرة في أواخر جماد الثـاني ١٣١٧ ورافقه أفراد اسرته وكبار الاخوان وشيوخ الزوايا وأعيان القبائل . وقد جاء في رسالة بتاريخ شوال ١٣١٧ بعث بها المهدي إلى محمد علي المحجوب قوله « وقد وصلنا ولله الحمد إلى زاوية قرو . » ثم يطلب فيها صابوناً وشمعاً وحنة ترسل بسرعة لعدم توفر هذه الاشياء هناك .[1]

أما أبرز الاحداث التي جرت في السودان الاوسط فكانت تتعلق – كما ذكرنا – بازدياد سطوة رابح وظهور الخطر الفرنسي . « ورابح هذا واحد من عبيد الزبير باشا رحمت اشترك في ثورة سليمان بن الزبير ضـد سلطان الحكومة المصرية في بحر الغزال حتى إذا ما انهزم سليمان وقتل وأخفقت الثورة ١٨٧٩ ، جمع رابح فلول الجيش وانسحب إلى (دار مغنا)[2]. » وبدأ بشن الغارات على المناطق المجاورة فاستولى على الباقيرمي في عــام ١٨٩٢ ، واحتل مملكة بورنو واسس لنفسه ملكـــاً مستقلاً على ضفاف الشاري (النهر الذي يصب في بحيرة تشاد) . وفي نفس تلك الفترة كان الفرنسيون قد ركزوا اهتمامهم على تلك الجهات بعد أن وطدوا سلطانهم في جهات السنغال الاعلى عام ١٨٦٥ وفي النيجر ، وعقدوا اتفاقاً مع الانجليز عام ١٨٩٠ اعتبر معظم الصحراء الوسطى والغربية منطقة

---

١ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب .

٢ – شكري ٩١ ، ٩٢ .

نفوذ فرنسية ، واتفاقاً آخر مع الالمان عام ١٨٩٤ لاعتبار الاراضي الممتدة حتى بحيرة تشاد مناطق تخضع للنفوذ الفرنسي أيضاً ، لذلك تضايقوا من نشاط رابح وشعروا بخطر مملكته عليهم . ولكي يعملوا على ضربه استمالوا سلطان الباقيرمي الذي أرغمه رابح على الفرار .[1] وقد حاول المهدي الذي شعر بخطر تدخل الفرنسيين أن يؤلف بين قلوب سلاطين تلك الممالك الصغيرة ويدعو إلى السلام ، ولكن محاولاته لم تنجح بسبب العداوات الشديدة بينهم ، ونجح الفرنسيون باستمالة سلطان الباقيرمي الهارب . ولم تلبث الحرب أن نشبت بين رابح والفرنسيين الذين كان يقود حملتهم الضابط « بريتونه » فانتصر رابح انتصاراً عظيماً سنة ١٨٩٩ . ثم ارسل الفرنسيون قائداً آخر فوفق إلى اجلاء رابح عن كانو في اكتوبر من تلك السنة . وشرع الفرنسيون بالتهيؤ للقضاء عليه نهائياً ، ونجحوا في تحقيق ذلك في معركة لختة التي قتل فيها رابح في ابريل ١٩٠٠ . وخضعت لهم سلطنته وباتوا يهددون كانم .

وكان المهدي مهتماً بتلك الاحداث لأن خطر الفرنسيين يهدد حركته وزواياه تهديداً مباشراً ، لذلك انتقل إلى قرو وبدأ يتهيأ لمجابهة الخطر الفرنسي . وفي أثناء اقامته في قرو « أرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بير العلالي وطفق يجمع جيوشاً من قبائل التبو والطوارق وأولاد سليمان والزوية والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسي . » [2]

وقبل أن يبدأ الفرنسيون حربهم ضد السنوسية مهدوا لها بحرب دعائية مركزة في جرائدهم قصدوا منها تأليب الرأي العام الاوربي على السنوسية ورئيسها زاعمين انها تعادي النصرانية وتقاوم التبشير الصليبي وتتهيأ بالمعدات الحربية لمقاتلة أهل الصليب . وقد كتب الحشايشي في جريدة الحاضرة التونسية مقالاً عن السنوسية نفى فيه هذه التهم . ويبدو أن المقال كتب قبل

---

١ ـ شكري ، ٩١ ، ٩٢ .
٢ ـ شكري : ٩٠ .

نشوب الحرب السنوسية الفرنسية وبعد مقتل رابح، ومما جاء فيه دفاعاً عن السنوسية « .. وهم لا يخوضون فيما لا يعنيهم كالاشتغال بالسياسات فذلك عندهم كالمحرمات ، وما أشيع عن السنوسي من أنه مستعد للحروب ويدخر الاسلحة المتقنة تؤتى اليه من أوربا وانه يشيد الحصون بالصحراء ويصنع البارود وله عسكر وخيول مسومة ويبغض الفرنج فهاته كلها خرافات واراجيف لا اصل لها ... من أجل ذلك قلنا ولا زلنا نقول إن الشيخ السيد محمد المهدي رضي الله عنه لم يكن منطوياً على معاداة أهل الصليب ولم يفكر يوماً واحداً في ايقاظ الفتنة النائمة ... » ويبين كاتب المقال سبب بروز هذه التهم فيقول بعد مدح المهدي « وفي هاته المدة الأخيرة ظهر داع بنواحي بحيرة تشاد لشن الغارة واثارة الفتن اسمه السنوسي وهو من اتباع رابح سلطان برنو الذي قتل في السنة الفارطة ، وكانت له اخت اسمها فاطمة في عاصمة رابح المذكور. وهذا الرجل ليس هو السنوسي المترجم .. ولا شك ان الاشتباه على أصحاب الجرايد من أنه هو المهدي السنوسي حصل من اسمه الذي هو محمد السنوسي.. فسدد كتبة فرنسا للتنديد بصاحب الطريقة السنوسية .. وعلى كل حال لا لوم على من غلط من جرنالات باريس .. لأن هذا الايهام سرى أيضاً لبعض الصحف الاسلامية نفسها مثل مجلة المنار فقد ذكرت أن السنوسي المهدي له حرب مع الفرنسويين .. » [1] وفي رأينا أن هذه الحرب الدعائية كانت مقصودة وليست نتيجة خطأ فقط ، وذلك لتمهد للحرب العسكرية .

بدأت الحرب عندما تقدم الفرنسيون صوب كانم في حملة مزودة بالاسلحة والمعدات الحديثة ، وتهيأ السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي ، وكان على رأسها احمد الشريف ابن أخ المهدي يساعده شيخ الزاوية محمد البراني . وحدث الاشتباك بين الطرفين فأحرز السنوسيون بعض الانتصارات وردوا

---

١ ـ من مخطوط كتب فيه المقال المذكور .

حملة أكثر من مرة ، ثم تغلب الفرنسيون بعـدداتهم واسلحتهم الحديثة وانهزم محمد البراني في معركة دامية في أول ١٩٠٢ وسقطت بـير العلالي في أيدي الفرنسيين الذين هدموا زاويتها وبنوا مكانها قلعة حصينة . [١] وهكذا حدث الصدام الذي تجنبته الحركة السنوسية أكثر من نصف قرن . وسيستمر هـــذا الصدام سنوات بـــين السنوسية والفرنسيين ثم بـــين السنوسية والطليان في برقة .

وفي أثنـــاء الاشتباكات الاولى بين السنوسيين والفرنسيين في بير العلالي اشتد المرض على المهدي ثم توفاه الله في يوم الاحد ٢٤ صفر ١٣٢٠ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢ في زاوية قرو . واقترح احمد الريفي نقل الجثمان إلى الكفرة فتم ذلك ودفن في زاوية التاج .وقد وجه احمد الشريف الذي صارت اليـــه رئاسة الحركة رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدي وهذا نصها :

بسم الله الرحمان الرحيم

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم احسن عملاً وهو العزيز الغفور . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. وبعد : فإنه من عبد ربه سبحانه احمد ابن السيد محمد الشريف بن السيد محمد السنوسي الخطابي الادريسي الحسني إلى الأجل الأبر الصفي الأنور سيدي الشيخ ... (يكتب اسم شيخ الزاوية المرسل اليه الكتاب) سلمه الله آمين . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته والموجب لهذا السؤال عـن الاحوال لا زالت محفوفة بالتكريم والاجلال . وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجاري الاقدار ساكنون، وفي قبضة من يقول للشيء

١ ـ انظر شكري ٩٤ والأشهب المهدي ٧٢ .

كن فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا متعرضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون ، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون ، وبما وعدنا به الله ورسوله موقنون، ولاغتلاس المنون مترقبون، سائلين منه تعالى منح ما بشر به الصابرون القائلون عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون . آجرنا الله وآجركم في مصيبتنا ومصيبتكم بالاستاذ الذي طالما رشد الخلق وإلى طريق الحق يهدي، سيدنا محمد ابن السنوسي المهدي رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، ونفعنا بأسراره وأسرار آبائه وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه وأصفيائه فقد نقله من الدنيا إلى الآخرة التي هي خير في منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير من سنة عشرين وثلاثماية والف ، ضاعف الله له الخيرات وضاعف الضعوف الوف ضعف وسقى بشآبيب الرحمة تربته، واسكنه مع الذين أنعم عليهم جنته إنه جواد كريم بر رحيم . ومنا جزيل السلام إلى جميع الاخوان والمحبين ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد والسيد محمد ادريس وكافة الانجال والإخوان والسلام . (١)

تاريخ ٧ ربيع الأول ١٣٢٠ .

وهكذا انتقل السيد المهدي إلى رحمة الله وهو لما يبلغ الستين من عمره ، وبعد أن عاش حياة مليئة أمضى جلها في تسيير الحركة السنوسية . ولقد حاول بإخلاص أن يدفع بها إلى الإمام ونجح في محاولته هذه إلى حد لا بأس به . كما حرص على أن يقتفي خطوات أبيه فتقيد بأسلوبه وطريقته فكان عمله تتمة لعمل ابيه .

ويبدو من تاريخ السيد المهدي أنه كان يتمتع بصفات كريمة ويتحلى بشيم طيبة مع عقل راجح . ومع أنه لم يؤلف كتباً كأبيه إلا أن مقدرته تجلت في قيادة أتباعه .

---

١ ـ مجموعة الشيخ منصور المحجوب . الرسالة موجهة لمصطفى المحجوب ، ووردت في المهدي للأشهب ص ٧٥ موجهة لشيخ زاوية أخرى .

الفصل الخامس

النظام السنوسي

لكي يحقق ابن السنوسي هدفه أوجد نظامه الذي اشتهر باسمه ، وأشرف بنفسه على سير العمل فيه . وهكذا فإنه قرن فكرته بالتطبيق العملي ، وجمع بين كونه العقل المفكر للحركة واليد التي تنفذ ما يخططه العقل . وقد ساعد هذا الجمع على إنجاح الحركة حيث خلصها من متاعب ازدواج القيادتين الفكرية والعملية التي نراها في كثير من الحركات الأخرى . وقد لاحظ الدكتور البهي هذه الميزة التي تتميز بها الحركة السنوسية في معرض مقارنتها بحركتي ابن تيمية وابن عبد الوهاب فقال عنها « إنها رأت في شخص الداعي الإمام في الدعوة وصاحب الحق في الفصل في الخصومات بين الأتباع وفي فرض الضرائب والمكوس . وبذلك تفادت الازدواج الذي صحب الحركة الوهابية وأزالت الثنائية بين رجال الدعوة ورجال السلطة المشرفة على تنفيذ مبادىء الدعوة ، كما تفادت معاداة السلطة القائمة ، على عهد ابن تيمية ، لآرائه وتفكيره[1] . والحق إنه يمكن تقسيم الحركات الإسلامية إلى ثلاثة أقسام ، فتدخل كل واحدة من الحركات الثلاث السابقة في قسم . فهناك حركات يقوم مفكروها بتنفيذها بأنفسهم ، وحركات أخرى يستعين مفكروها بقيادة تنفيذية أخرى لتنفيذها . وحركات ثالثة لا يجد مفكروها فرصة التنفيذ لأسباب مختلفة . ولا شك في أن أنجح هذه الحركات هو القسم الأول لأن المصلح أقدر على تطبيق أفكاره بنفسه — إذا توفرت لديه صفة القيادة العملية .

وقد اختار ابن السنوسي لتطبيق أفكاره طريقاً سلمياً ، ودعا إلى نظامه

---

١ — البهي ٦٩ .

بالحكمة والموعظة الحسنة ، وآثر التؤدة في الاصلاح بإرساء قواعـده في نفوس الأفراد لبنة لبنة . كما هـادن القوى الموجودة في المجتمع ليوفر كل قواه للعمل في بناء مجتمعه . وفي طريقه هذه اختلف عن أسلوبي ابن عبد الوهاب وابن تيمية . وقد قارن الدكتور البهي بين الأساليب الثلاثة فذكر أن الرجـال الثلاثة مع اشتراكهم في التأثر بعوامل واحدة كانت دعواتهم صدى لهـا فإنهم يفترقون فيما بينهم بالسبيل الذي سلكوه في تحقيق الدعوة . « فقد اشتد ابن تيمية وقسا في طلب تحقيق آرائه وأراد أن يحققها دفعة واحدة فخاصم الجميع وحاربهم ، ومن أجل ذلك رمي بحق أو بغير حق بالخروج عن الجماعة الاسلامية على نحو ما رمى هو خصومه . ومحمد بن عبد الوهاب اتبع نفس الأسلوب ولحقته نفس النتائج .. أما السنوسي فآثر المهادنة .. واستخدم أسلوب الاقناع والتؤدة .. »[1] .

استهدف هذا النظام إصـلاح الفرد المسلم وتكوين نواة مجتمع إسلامي قوي ونشر الإسلام في البلاد التي لم يصلها من قبل . واتخذ أساساً له لتحقيق هـذا الهدف « الزاوية » و « الطريقة الصوفية » . فبها معاً يتم صلاح الفرد حيث يرتفع بنفسه عن طريق الصوفية ويعيش مساهماً في مجتمع يستغل فيـه إمكانياته عن طريق الزاوية ، وبها معاً يتولد مجتمع متعاون يقوم أفراده بنشر الاسلام وتبليغ الدعوة .

الزاوية

فأما الزاوية فهي ركيزة النظام السنوسي وهي « التطبيق العمـلي للفكرة الإصلاحية التي نادى بها ابن السنوسي »[2] . ونظام الزوايا معروف في العـالم الاسلامي قبل السنوسية بقرون ، وقد استفادت منـه الطرق الصوفية لتكوين مجتمعات خاصة بها في نطاقه . ومن الزوايا الصوفية اقتبس ابن السنوسي « الزاوية السنوسية » والتي اتسع معناهـا وتطور تنظيمها وزادت اختصاصاتها حتى

---

١ — البهي ٦٨ .   ٢ - البهي ٧٢ .

أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية تبشيرية أيضاً .

وقد احتاج توسع معنى الزاوية وتوضحه بشكله الجديد في فكر ابن السنوسي إلى فترة من الزمن . إذ أنه بدأ بتأسيس زاوية أبي قبيس على شاكلة الزوايا الصوفية الأخرى ، ثم بعد أن تطور تفكيره ورأى رؤياه التي أمر فيها أن يوجه الإخوان إلى بناء الزوايا واستصلاح الأراضي ونشر الاسلام صار يعهد لإخوان الزوايا بمهام تتجاوز مجرد العبادة إلى تنفيذ الاصلاح والقيام بالدعوة ، فكان أن تحدد عمل الزاوية .

وقد تحدث ابن السنوسي في إحدى رسائله عن الزاوية فقال : « والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده .. والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والباد ، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان »[1] ... وقال في رسالة أخرى : « وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منها (يعني الزاوية) ويدوم ، من تعلم العلم وتعليمه ، وإقراء القرآن وتفهيمه ، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها »[2] . وقال في رسالة ثالثة : « رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة ، وتعليم القرآن ودرس العلم ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم ... وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة وتتسع الإدارة »[3] .

---

١ — نقلاً عن رسالة نشرها الأشهب ، السنوسي الكبير ص ١٤٢ .

٢ — من رسالة لأمين باشا ، انظر السنوسي الكبير للأشهب ص ١٤٠ .

٣ — من رسالة لصالح باشا ، الأشهب ، السنوسي الكبير ص ٢٤ .

محتويات الزاوية وموقعها

تتكوّن الزاوية عادة من بيت خاص لإسكان شيخها وبيوت خاصة بالضيوف وبوكيل الزاوية وبمعلم الأطفال ، والمسجد ، والمدرسة القرآنية، ومساكن الخدم ومخازن لحفظ المؤن واصطبل ومتجر وفرن وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم[1] . وتقوم حولها مبانٍ أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأووا اليها في موسم الصيف ، ويكون لها حرم آمن يلتجأ اليه ويكون لها متسع من الأرض الزراعية والآبار الجوفية والصهاريج لحفظ الماء[2] . وتوجد فيها عادة بعض الحدائق الصغيرة الملحقة بالبيوت[3]. ويتميز موقع الزاوية بدقة الاختيار، فهي تبنى في غالب الأحيان على ربوة عالية مشرفة على ما حولها ويتوخى في اختيار الموقع المناخ الصحي والفوائد الاقتصادية والمركز الاستراتيجي .

ويقول بريتشارد : « إن من يدرس توزيع الزوايا السنوسية في برقة يلاحظ أنها أقيمت وفق خطة سياسية اقتصادية . فقد بني عدد كبير منها على منشآت يونانية ورومانية ، وأسست على طرق القوافل الهامة وفي مواقع دفاعية قوية »[4] . وقد لاحظ أرسلان حسن مواقع الزوايا فقال : « وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين وفيها الآبار التي لا تنزح من كثرة مائها . وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية ،..، وقلّ أن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين ، فيها من كل أنواع الفواكه »[5] .

السلطة في الزاوية

وتتألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسؤول الأول ومن مجلس

---

١ ـ الأشهب ، السنوسي الكبير ٢٩ .
٢ ـ « « « ٢٩ .
٣ ـ بريتشارد ٧٤ .
٤ ـ « ٧٨ .
٥ ـ أرسلان ص ٢٩٧ .

يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين ، ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات[1] . وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدم وهو – كما يقول أرسلان – القيم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام . « ويليه وكيل الدخل والخرج واليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية » . وبالاضافة الى هذين هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية ويعلّم أطفال القبيلة ويعقد فيها عقود النكاح ويصلّي على الجنائز[2] . ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة لأنها من مهام شيخ الزاوية (مقدمها) . ويتحدث بريتشارد عن مهام شيخ الزاوية فيقول : « هو الذي يمثل رئيس النظام ، ويقود رجال القبيلة في الجهاد ، ويصل بين القبيلة ورجال الادارة العثمانيين ، ويقوم بضيافة المسافرين ويشرف على حصاد الزرع ويؤم صلاة الجمعة ويساعد في الوعظ والتعليم »[3] .

وظائف الزاوية

وتؤدي الزاوية عدة وظائف ، فهي من ناحية مركز السلطة في القبيلة فإليها ترد أوامر رئيس النظام ومنها تسيّر أعمال القبيلة وفيها تفض المنازعات . وقد عثرنا على وثيقة بتاريخ ٩ رجب ١٢٩٧ تتحدث عن خصام وقع بين أهالي هون وسوكنه وفض في زاوية هون السنوسية . والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف[4] . وهي من ناحية أخرى المركز التعليمي للقبيلة ، ففيها المدرسة القرآنية التي يتلقى فيها أطفال القبيلة العلم ، والمسجد الذي تقام فيه الصلوات وتلقى الدروس التي يحضرها أفراد

---

١ ـ الأشهب ٢٩ .
٢ ـ أرسلان ٢٩٧ .
٣ ـ بريتشارد ٨٠ .
٤ ـ دار المحفوظات ، رسائل الولاة والمتصرفين .

القبيلة ، وهي من ناحية ثالثة المركز الاقتصادي للمنطقة المحيطة بها ، فإليها يأتي أفراد القبيلة بإنتاجهم حيث يقام السوق، وهي تقع عادة على خطوط القوافل مما يتيح لأهاليها التبادل التجاري مع تجار القوافل . ثم إنهـا أيضاً مركز دفاعي للمنطقة التي تقع فيها ، ولذلك كان بنـاء الزوايا عادة محصناً وكانت مواقعها حصينة كما كان الارتباط بينها وحتى توزعها متعلقاً بالناحية الدفاعية[1] . وذلك لأن ابن السنوسي توقع هجوم الكفار ، وقد تحقق توقعه وأدت الزوايا دورهـا الدفاعي في حرب السنوسية ضد الفرنسيين في الجنوب وضد الايطاليين في الشمال. كذلك فإن الزوايا قامت بوظائفها الأخرى خير قيام .

وقد عدّد بريتشارد الخدمات التي تقدمها الزاوية للمجتمع المحيط بها وشبهها بالأديرة المسيحية في أوربا إبان العصور الوسطى – من ناحيـة الخدمات التي تؤديها – وقال « . . فقـد خدمت الزوايا السنوسية أغراض أخرى كثيرة إلى جانب الفرض الديني . فقـد كانت مدارس ، واستراحات للقوافل ، ومراكز تجارية ، ومراكز اجتماعية ، وحصوناً ، ومحاكم ، ومصارف ، ومخازن ، وبيوتاً للفقراء ، وحرماً آمناً ، ومدافن ، إلى جانب كونها قنوات يجري فيها جدول من بركات الله »[2] .

أراضي الزاوية

وكانت أراضي الزاوية موقوفة عليها فلا تبـاع ولا تشرى وتبقى مرتبطة بالزاوية. ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذي يكون عن طرق مختلفة، منها الهبة والتبرع ومنها الشراء ومنها إحياء الأراضي البور وإصلاح الآبار الخربة ، ومنها نزعُ المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلهـا

---

١ – انظر بريتشارد ص ٧٤ .

٢ – بريتشارد ٧٩ .

للزاوية[1]. وتعطينا إحدى الوثائق مثلاً على كيفية تحول الأرض المحيطة بالزاوية إلى وقف . والوثيقة هي عبارة عن رسالة بعث بها أحد الأخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة ، ويرد فيها « وأيضاً نخبركم أنه في محل ببرقة يقال له أجدابية قصرين معلومات ، والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزوية راغبين في الاستاذ أن ينشيء لهم زاوية هناك ، وكتبوا حجج في إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا بهم واحد مخصوص إلى حضرات جنابه رضي الله عنه (يعني ابن السنوسي) »[2] . والقصد من كتابة الحجج استصدار بيورولدي من قائمقام الوقف حتى لا يتعدى على الأرض. وتاريخ الرسالة ١٥ محرم ١٢٧٦ أي قبل وفاة ابن السنوسي بشهر . فالأرض في هذا المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعاً من مشايخ القبيلتين ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف .

وكانت مساحة أراضي الزاوية كبيرة نسبياً وتصل أحياناً إلى « ٢٥٠٠ » هكتار بعضها مزروع والبعض الآخر يترك للرعي . وقد ذكر بريتشارد أن مجموع أراضي الزاوية في برقة يبلغ نصف مليون هكتار[3] .

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها ويساعدهم في الزرع والحصاد رجال القبيلة . وقد ذكر أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيله بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية ، ولذلك يسهل العمران بدون نفقة كبيرة[4] . كما وصف بريتشارد عملية الزرع في الزاوية فقال « ويساعد رجال القبائل شيخ الزاوية في زراعة الأراضي ولو أن سكان الزاوية يقومون بمعظم العمل . وفي موسم البذر يقوم الشيخ بنصب

---

١ – الأشهب ، ص ٣٢ .
٢ – دار المحفوظات بطرابلس .
٣ – بريتشارد ٧٧ .
٤ – أرسلان ٢٩٧ .

خيمته بجانب الأرض التي ستزرع ويهيىء وجبة جماعية آخذاً معه بعض أكياس الرز من أجل ذلك . ثم يأتي البـــدو مع حيواناتهم التي تحرث ويحرثون يومين لحساب الزاوية . ويتكرر الأمر نفسه في موسم الحصاد »[1] .

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها . وكان يبلغ عدد السكان في أصغر الزوايا حوالي الخمسين بمـــا في ذلك الأطفال والنساء ، ويصل العدد في زوايا أخرى إلى المئة ، أما الزوايا الكبيرة كالجغبوب والكفرة فيتجاوز الألف . ولم تكن « الزاوية » مقصورة في تنظيماتها على هذا العدد من سكانها وإنما على القبيلة التي تقيم في منطقتها ، فسلطاتهـا تسيّر شؤون أفراد القبيلة الذين يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية القليل .

موارد الزاوية

وتتألف موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبـــات الخيرية والزكاة الشرعية[2] . وقد كانت الهبات الخيرية تقدّم من أهالي القبيلة . كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسمياً ، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب وأعطت لها حق جباية الزكاة . وكانت « الزاوية » تنفق بعض هـــذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها ، أما مــــا يتبقى فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرف فيه رئيس النظام .

تنظيم العمل

وقد تم تنظيم العمل بتفاصيله في الزوايا ، فكانت هنـاك تعليمات وأعراف وعادات يلتزم تطبيقها . من ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته، وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها . أما في حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى

١ – بريتشارد ص ٧٦ .
٢ – الأشهب ، السنوسي الكبير ص ٣٣ .

فنفقات ذلك على حسابه الخاص . كذلك حدد بدقة ما يأخـذه شيخ الزاوية سنوياً ، فكساؤه يتألف من عشر بدل – وتتكوّن البدلة من قميص وسروال وغطاء الرأس وحذاء – وله حرامان صيفي ومثلها شتوي وبرنس، وله الحق في شراءسلاحه وفرسه . وهو الذي يعين معلم الصبيان والمؤذن، ويستخدم ما تقتضيه ضرورة العمل في الزاوية من أيد عاملة . ومن واجباته إحضار الطعام للضيوف وعليه أن يهيء طعاماً يكفي عشرة أشخاص لكل من وجبتي الغداء والعشاء من أجل الضيوف المحتمل مجيئهم . وله الحق في نحر شاة للضيوف إذا زاد عددهم عن خمسة . كما أن له الحق في أن يختص بالعشر من محصولات الزاوية للإنفاق منها على شؤونه الخاصة، وعليه أن يبعث بالفائض من موارد الزاوية إلى المركز الرئيسي . وقد جرت العادة على أن يجتمع شيوخ الزوايا سنوياً للتباحث في مختلف القضايا التي تتعلق بزواياهم .

ومن التقاليـد المتبعة أيضاً أن الحرم المحيط بالزاوية يعتبر مكان أمن لكل من يدخله أو يستجير به . ولا يجوز أن يطلق داخله الرصاص أو يشهر السلاح كما لا تجوز المشاجرة ورفع الصوت ورعـاية الحيوانات . وإذا التجأ شخص إلى هـذا الحرم فالواجب حمايته والسعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة[1] . وقد عثرنا على رسالة من أحد رجال الادارة العثمانية في فزان إلى ولاية طرابلس تتحـدث عن لجوء أربعـــة جنود عثمانيين إلى زاوية مرزق بسبب عدم صرف رواتبهم ، فلم تتعرض الادارة لهم وسوّى شيخ الزاوية مع رجـــال الادارة المسألة . وتعود الوثيقة إلى آخر العهـــد العثماني في ليبيا[2] . وكان شيخ الزاوية يبعث بتقرير سنوي مفصل إلى رئيس النظام، كما كان يزور المركز الرئيسي ومعه أعيان القبيلة بين الحين والآخر .

---

١ ـ الأشهب ، السنوسي الكبير ص٣٣ .

٢ ـ دار المحفوظات .

أما بناء الزاوية فكان يتم بعد الاتفــاق بين رئيس النظام والقبيلة وبعد استصدار الوثائق الرسمية. وكان يشارك فيه أفراد القبيلة والاخوان الذين يبعث بهم رئيس النظام ، وفيهم بناؤن ونجــارون وحدادون الخ .. وتتحمل القبيلة التكاليف .

الطريقة الصوفية

هذا عن الزاوية ، أمــا الطريقة الصوفية فكانت الشق الثاني من أساس النظام . وقد أخذ ابن السنوسي فكرة الطريقة الصوفية من الطرق الكثيرة التي تعرّف عليها ، كما أخذ عن تنظيماتها تنظيمات طريقته . ومعلوم أن ابن السنوسي تعرف على جل الطرق الصوفية التي ظهرت في العالم الاسلامي وهي كثيرة . وكل هذه الطرق ترمي إلى غاية واحدة هي الارتفاع بالنفس الانسانية والبلوغ بها إلى درجة الكمال ، والعمل – كما يقول بريتشارد – لمجــد الله ونشر الاسلام[1] . كما أن تنظيماتها متشابهة ، فعلى رأس كل طريقة شيخ يخضع له الأعضاء بالطاعة ، وكل من يرغب أن يكون عضواً يصبح مريداً للشيخ . ولكل طريقة أورادهــا التي يرددها الأعضاء وتقاليدها الخاصة في أخذ هذه الأوراد وطريقة النطق بهــا وإقامة حلقات الذكر وأخذ الاجازات الخ ..

وقد عمل ابن السنوسي بعد تعرفه على هذه الطرق على تنظيم طريقة خاصــة يسلكها مريدوه ، ويقول زيادة مثلاً عن دوفرييه والأشهب « إن غاية السنوسي الكبير كانت توحيد الطرق الاسلامية ، كخطوة تؤدي – في رأيه – إلى توحيد المسلمين »[2] . وفي رأينا أن الدافع الذي حدا بابن السنوسي لتنظيم طريقته هو رغبته في أن تعكس هذه الطريقة أفكاره التي يؤمن بهــا ، والتي ترى ضرورة

---

1 - The Place of the Sanusiya Order in The History of Islam . ص ٢٥ .

٢ – زيادة ٨٧ .

التمسك بالكتـــاب والسنـّة . ومن كتابه السلسبيل نلمس أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق لذلك رأى أن يحدد معالم الطريقة التي تتقيـــد بالكتاب والسنة .

تحدث أحمد الشريف حديثاً مفصلاً عن هذه الطريقة التي اختارها جده ابن السنوسي ، في كتابه « الأنوار القدسية في معالم الطريقة السنوسية » . فقال عن نسبتها واسمها « وقد سألت استاذنا الأعظم (يقصد عمه المهدي) عن هـــذه الطريقة لمن تنسب فقــال (ر) : إن هذه الطريقة تسمى بالسنوسية الإدريسية القادرية الناصرية الشاذلية وكلها مرجعها محمدية ، وقال الاستاذ السيد محمد بن علي السنوسي : ونسبة الطريقة المحمدية إلى سيدنا محمد (ص) دون غيرهـــا لمتابعة السنـّة في القليل والكثير »[1] .

ويرى بريتشارد أن ابن السنوسي كان متأثراً بصورة خاصـــة بالطريقة الشاذلية[2] ، وهذا يتضح من قول أحمد الشريف نقلاً عن عمه المهدي ، ولو أن ذلك القول يدل على تأثر ابن السنوسي بالطريقتين القادرية والنـــاصرية أيضاً . ويبدو من بعض الرسومات التي نقلها ديبوني وكابولوني في كتابيهما من محفوظات بعض الفرق الصوفية في الجزائر أن السنوسية تعتبر من فروع الشاذلية . وعلى أية حال فإن مما لا شك فيه أن ابن السنوسي قد تأثر بدراسته الصوفية وظهر تأثره في تنظيم طريقته فالتقت مع بعض الطرق في بعض التقاليـــد مع حفاظها على شخصية مستقلة .

ومبنى هذه الطريقة – كما يقول أحمد الشريف – « على متابعـــة السنـّة في الأقوال والأفعال والأحوال والاشتغـــال بالصلاة على النبي (ص) في عموم

---

١ - احمد الشريف ، الأنوار القدسية ص ٤ ، طبعة استانبول .

٢ - بريتشارد ص ٢٧ .

الأوقات »[1] . وقد نوه بريتشارد عن هذه الخاصية في الطريقة فقال : « ومن بين جميع الطرق الصوفية ربما كانت السنوسية أكثرها تمسكاً بالسنة ». ويستدل على ذلك بأن الوهابيين — وهم أشد من عارض ونقد الصوفية — وجدوها أقل معارضة من الطرق الأخرى[2] .

والواقع ان ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسنة ، والصوفي في رأيه — كما سبق أن ذكرنا — يتقيد في طريقه بالكتاب والسنة ، وقد قال في ذلك « فاعلم أن سبيل القوم (ر) اتباع النبي (ص) في الجليل والحقير . . وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة »[3] .

والسنوسية تجمع بين الطريقتين البرهانية والإشراقية كأسلوب الوصول إلى الكمال الأعلى ، ومن المعلوم أن الطرق الصوفية تتبع إحدى هاتين الطريقتين . فأما الإشراقية « فذووها — كما يقول أحمد الشريف — دأبهم تصفية النفوس من الأكدار وتوجيهها نحو الحق لنهج المعارف والأسرار بدون تعلم ولا تعليم من باب اتقوا الله ويعلمكم الله » . وأما البرهانية فدأب ذويها « اتباع الأوامر واجتناب النواهي واقتباس العلوم الأربعة التي هي علوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلات » . وطريقة استاذنا جامعة بينهما فمن أراد الإشراقية سلك به سبيلها ومن أراد البرهانية سلك به سبيلها » . وسبيل البرهانية هو « تعمير الظواهر بالآداب على متابعة أقوال النبي (ص) ، وتعمير البواطن بمراقبة الله في جميع الحركات والسكنات على السنن النبوي والنهج المصطفوي » .

وكان ابن السنوسي يأمر سالكي سبيل هذه الطريقة « بقراءة صحيح البخاري والموطأ وبلوغ المرام في الحديث ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه والرسائل السبع في التصوف . ولا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى

---

١ ـ احمد الشريف . الانوار ص ٥ .
٢ ـ بريتشارد ص ٢٨ ، ٢٩ .
٣ ـ انظر الفصل الثالث وص ٤٦ من المسائل العشر .

يعلم حكم الله فيه بدليله » . وسبيل الاشراقية « مجاهـــدة النفس ومخالفتها باذاقتها البؤس وملازمة ذكر الله آناء الليل واطراف النهار حتى تنقدح في قلب الذاكر الانوار وتفاض عليه شآبيب الأسرار فيستنير باطنه وظاهره ». ولكن السنوسية تفضل سبيل الطريقة البرهانية لكونها افضل الطريقتين في نظرها لأنها غالباً حالة النبي (ص) وغالب أصحابه ، ولذلك اختارها ابن السنوسي – كما يقول احمد الشريف – في أغلب الاحوال [1].

كما أننا نلاحظ أن جل أتباع الطريقة السنوسية كان يسلكون سبيل البرهانية وأن ابن السنوسي والمهدي كانا يشجعان ذلك . وإذا استثنينا مرات قليلة كان فيها ابن السنوسي يعتكف سالكاً سبيل الاشراقية فلا يخرج من غرفته أبداً ، فإنه في كل حياته كان ينفذ أوامر الشريعة حريصاً على ظاهرها وباطنها ، أمـا المهدي فلا نجد في تاريخه الا سلوك الطريقة البرهانية .

والوصول – الذي ترمي اليه الطريقة السنوسية – يعني إقامة الصلة بين الفرد والرسول (ص) مباشرة . فالسنوسية تؤمن بإمكانية الاتحاد مع الرسول (ص) وتهدف إلى تحقيق ذلك . وهي لا تتجاوز هذا الهدف إلى الايمان بامكانيـــة الاتحاد مع الله كما فعلت بعض الطرق الصوفية الأخرى لذلك فإنها لم تهدف اليه قط لعدم إيمانها به [2] . وأتباع الطريقة يؤمنون بأن ابن السنوسي كان متصلاً بالرسول مباشرة . وقد قال هو عن نفسه بأنه مأمور من الرسول كما مرّ معنا خبر رؤياه للرسول بعد بنائـه زاوية ابي قيس حيث أمره الرسول ببناء الزوايا والدعوة إلى الله . وقد روى المهدي عن ابيه أنه – أي المهدي – دخل على ابيه في مرضه الأخير ، قال « فوجدته متهللاً والأنوار ساطعة وهو يقول : هذه يد النبي (ص) ومد يده الشريفة فأخذتها وسلمت عليها ظاهراً وباطناً وكأنه كان

---

١ – احمد الشريف الانوار ٦ ،٧ ،٨ ،٩ .
٢ – أنظر بريتشارد ، المصدر السابق ٢٩ ، وزيادة ٨٧ .

وقت تجلي امتزاجي ، وهو امتزاج الروحين في ذات واحدة[1] » . فهذا القول يوضح كنه الاتحاد كما آمن به ابن السنوسي وأتباعه . كذلك فإن الاتحاد يمكن ان يتم مع الاقطاب الصالحين . واتباع السنوسية يعتقدون بأن ابن السنوسي كان متصلاً بهم . واحمد الشريف يحـــدث عن عمه قائلا « وأخبرني (ر) أن عمد الحضرة المتصلة النبوية أربع سيدنا الأستاذ محمد بن علي السنوسي وسيدنا الأستاذ احمد بن ادريس وسيدنا عبد القادر الجيلاني وسيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنهم اجمعين .. وقد منّ الله على عبده بالأخذ عن جميعهم فأولهم وبابهم سيدنا الأستاذ ويندرج معه سيدنا احمد بن ادريس لاتحاد حالها ومأخذهما ، ثم سيدي عبد القادر أخذت عن روحانيته القرآن العظيم قال اقرأ القرآن والزمه وواظب عليه إلى أن قال : وأجزه . وأخذت عن روحانية سيدي أبي الحسن الشاذلي واجازني بدائرته الشاذلية [2] » . وهكذا فإن الاتصال الروحي يتجاوز حسب اعتقادهم ابعاد الزمن فيتم مع اقطاب توفوا من زمن بعيد .

ولكي يتم هذا الاتحاد يجب على المريد أن يتخذ الوسائل لذلك ، من قراءة أوراد وإحياء أذكار وأخذ مسلسلات من الاحاديث . وقـــد مر معنا أن ابن السنوسي ألف رسالة بعنوان « المسلسلات العشر في الأحاديث النبوية » ومما قاله فيها « ففيها كفاية لمن أراد اتصال الحبل بالنبي (ص) والانتساب إليـــه وإلى أصحابه والسلف الصالح على وجه مخصوص [3] » . . وهـذه المسلسلات هي أحاديث يتلقاها المريد عن شيخه الذي تلقاها عن شيخه وهكذا في سلسلة تنتهي بالرسول (ص) ويكون التلقي بإتمام الفعل الذي ورد في الحديث . ففي حديث المصافحة الذي يقول « من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة » يتلقى المريد الحديث عن شيخه ويصافحه . وقـــد قام ابن السنوسي

---

١ ـ احمد الشريف ، الانوار ص ٣٠ .
٢ ـ احمد الشريف، الانوار ص ١٠ .
٣ ـ المسلسلات العشر ص ١٦ .

بمصافحة الاخوان في سنة ١٢٧٥ – كما يذكر أحمد الشريف – [١] .

ومن التقاليد التي سارت عليها الطريقة السنوسية في هذا الشأن أيضاً مناولة السبحة والحزب السيفي وقد تحدث المهدي عن كيفيتها كما فعلها ابن السنوسي قال « ناولني السيد الوالد حزب السيفي والاحزاب والسبحة جمعها في يـــده وافرغها في يدي وهي مدخرة عندي بنية أن تدرج معي في الكفن ، والبسني جرداً (اللباس الوطني في ليبيا وهو حرام صوفي يلبس على الطريقة الرومانية) بيده الشريفة (ر) قبل مناولة السبحة بمدة أيضاً بعد أن بسط الجرد ورشه بالماء بأن وضع يده في الاناء وصار يرش عليه ما تعلق باصابعه من الماء بإرسال الأصابع على طرف الابهام .. وبعد الباس الخرقـــة بأيام قليلة ناولني السبحة وألبسني سيفاً بيده وأمرني أن اصلي به المغرب فكان الباس الجرد اولها والباس السيف آخرها [٢] » . ويذكر أحمد الشريف عن نفسه أنه أخذ عن عمه المهدي وأستاذه احمد الريفي هذه الطرائق مع تلقين الذكر ومناولـة السبحة والباس الخرقة وسماع المسلسلات . أما أوراد الطريقة فهي القرآن الكريم ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي (ص) ، وقد كتب المهدي أن الورد المحمدي ثلاثـة أصناف . الأول : استغفر الله (مائة مرة) والاستغفار الكبير (سبعين مرة) ، الثاني: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله (ويمكن أن يكون العدد من ثلاثماية إلى ثلاثة آلاف إلى اثني عشر الفاً إلى أربعة وعشرين الفاً) الثالث : الصلاة على النبي (ص) بأي صيغة كانت الأمية أو الفاتحـــة أو العظيمية مع خمسين صلاة [٣] .

وقد درج بعض مؤرخي السنوسية على تقسيم اتباع الطريقة إلى ثلاث درجات لكل منها اورادها فالورد الصغير لعامة الناس ، والورد الوسط للذين يتقنون القراءة والكتابة ولكبار شيوخ القبائل ، والورد الاكـــبر للطبقة الأولى

---

١ ـ احمد الشريف الانوار ٣١ . ٢ ـ احمد الشريف الانوار ٢٩، ٣٠ .
٣ ـ احمد الشريف الانوار ٤٦، ٥٨ .

من الاخوان [1]. ويقول بريتشارد إنه لم يلاحظ وجود مثل هذه الدرجات بين بدو برقة ، كما أنه يستشهد بقول الملك ادريس أن النظام لا يحوي درجـــات وأن الفارق الوحيد بين الأتباع هو العلم . والواقع أن الكتاب الذين تحدثوا عن وجود الدرجات إنما انساقوا إلى ذلك من حديث أحمد الشريف عن الاوراد ، وخلطوا بين درجات الصوفية وبين درجات النظام . فأحمد الشريف عندمـــا يتحدث عن الورد الثاني وعن عدد ترديده الذي يمكن أن يكون ٣٠٠ إلى ٣٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ يقول « والعـــدد الأول لأهل التبرك والثاني لأهل الارادة من المشبين والثالث لأهل التجريد من أهل العكوفات [2] » . فهـذه درجات صوفية اعتادت الطرق على تقسيمها ومن الممكن لأي فرد أن يمر فيها بإرادته ، وهي لا تعني وجود طبقات في النظام كما فهم بعض الكتاب .

وعند قراءة الورد يبدأ بفاتحة الورد وهي « اللهم اني اقدم إليك بين يدي كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها اهل السموات واهل الأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان اقدم اليك بين يدي ذلك كله [3] » . ويكون الاستغفار الكبير بالنص التالي « استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفار الذنوب ذا الجلال والاكرام وأتوب إليه منجميع المعاصيكلها والذنوبوالآثام، ومن كل ذنب اذنبته عمداً وخطأً ظاهراً وباطناً قولاً وفعلاً في جميع حركاتي وسكناتي وخطواتي وأنفاسي كلها دائماً ابداً سرمداً من الذنب الذي اعلم ، ومن الذنب الذي لا أعلم ، عدد ما أحاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم وعدد ما اوجدته القدرة وخصصته الإرادة ومداد كلمات الله كما ينبغي لجلال وجه ربنا وجماله وكماله وكما يحب ربنا ويرضى » . ويُقرأ سبعين مرة في السحر ومرة عقب الصلوات . أما الصلاة العظيمة فنصها « اللهم اني اسألك بنور وجه الله العظيم الذي ملأ أركان عرش الله العظيم وقامت به عوالم الله العظيم أن تصلي

---

١ - بريتشارد المصدر السابق ٢٦ . ٢ - احمد الشريف الانوار ٥٨،٤٦ .
٣ - احمد الشريف الانوار ٥٩ .

على مولانا محمد ذي القدر العظيم في كل لمحة ونفس عـــدد ما في علم الله العظيم صلاة دائمة بدوام الله العظيم تعظيماً لحقك يا مولانا يا محمد يا ذا الخلق العظيم وسلم عليه وعلى آله مثل ذلك واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً يقظة ومناماً ، واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم ».وواضح أن تسميتها بالعظيمة جاءت من تكرار لفظة «عظيم» ، كما أنها تهدف إلى إيجاد الاتحاد مع الرسول (ص) .

وهناك مجموعة اوراد أخرى يقرأها الاتباع مقسمة على مدى أيام الأسبوع . ومنها الحزب السيفي وحزب المغني ودعاء الاختتام بعدهما ، وحزب المحامد الثمان وحزب النور الأعظم والكنز المطلسم وحزب التجلي الأكبر والسر الأفخر ، والصلوات الثمان والورد الأحمدي والحصون المنيعة النبوية والاوراد الأحمدية . وكل هذه الأوراد من تأليف احمد بن ادريس الا الحزب السيفي الذي يعزى إلى علي بن أبي طالب (ر) . وقد أثبت احمد الشريف نصوصها في كتابه « الأنوار القدسية » . ويبدو من حديثه عن رحلة عمه المهدي إلى الكفرة أن عمه وجميع مرافقيه كانوا يقرأون هذه الاحزاب على مرّ ايام الأسبوع .

وكان الذكر يتم بقراءة هذه الاوراد وبدون مصاحبة الموسيقى ، وذلك لأن ابن السنوسي تقيّد بالسنة فلم يسمح بما سمحت به بعض الطرق الصوفية الأخرى عندما خالفت الفقهاء واستعملت الموسيقى في اذكارها . كذلك خلت الاذكار من الحركات الراقصة التي نراها عند بعض الطرق الأخرى ، ومن كل الأعمال البهلوانية التي دخلت اعمال تلك الفرق كأكل الزجاج وطعن الصدور بالسيوف والسيطرة على الافاعي الخ .. ويتحدث بعض مؤرخي السنوسية عن تحريمها للخمر والتدخين . وبالطبع فتحريم الخمر أمر طبيعي لأنه جاء في القرآن ، أما التدخين فقد كان حكمه التحريم عند الفقهاء في ذلك العصر . ويعلل بريتشارد هذه التحريمات بقوله : « وكان غرض المؤسس الحفاظ على ما اقتنع أنه اصل

الاسلام من اعمال النبي والصديقين [1] » . والواقع أن ابن السنوسي كان حريصاً على التقيد بأوامر الكتاب والسنة . وكان غرض ابن السنوسي من الطريقة الصوفية أن يشد اتباعه إلى السنة النبوية ويعلمهم عن طريق محبة الرسول احكام الشريعة ، وقد انسجمت اذكار الطريقة واورادها مع غرضها ، ولاحظ الصادق المؤيد ذلك فقال « ومع أن الطريقة السنوسية مثل الطرق الأخرى لها أذكار وأوراد ،الا أن الشيخ عندما يلقن الطريقة للمريدين يقصد إلى تعليمهم الشريعة الغراء ويلح عليهم بالتمسك بأحكامها ، ويأخذ عليهم العهد بأن لا يخالفوا في اعمالهم الشرع الشريف [2] » .

ويتحدث المؤرخون الغربيون في حديثهم عن النظام السنوسي عن ثلاث نقاط أخرى ، هي الإمامة والهجرة والجهاد . فهم يقولون بأن اتباع النظام يؤمنون بإمامة ابن السنوسي وخلفه ويدينون له بالطاعة كإمام حاكم . وأن النظام يفرض على معتنقيه الهجرة إلى المجتمع السنوسي في الزاويا ، كما يفرض عليهم الجهاد للذود عنه وفي سبيل انتصاره [3] » . وقد سبق أن ناقشنا مسألة « الإمامة » وما إذا كان ابن السنوسي قد جعلها من اهدافه [4] » . وقلنا إنه رأى تمشياً مع الظروف المحيطة به عدم إثارة خلاف مع الدولة العثمانية ، وأنه فكرّ بأن اصلاح القاعدة سيؤدي إلى اصلاح السلطة . ونضيف إلى ما قلناه أن اتباع النظام كانوا يرون في ابن السنوسي وفي خلفه المهدي إماماً حاكماً في مجتمعهم الخاص ، وهذا طبيعي وينبع من حكم الاسلام في الحاكم الذي من مهمته السير بالناس فيما ينفعهم في دنياهم وأخراهم . فمهمة الحاكم — إذا نظرنا إليها من زاوية تفكيرنا الحالي — مزدوجة تشمل القيادة الدينية والقيادة الدنيوية . وكلا القيادتين كان يدخل في كلمة « الحكم » . كما أن نظرة الاتباع هذه طبيعية

---

١ — بريتشارد، المصدر السابق . ٢ — الصادق المؤيد ص ٧٥ .
٣ — أنظر ريس ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ودوفرييه ١٤ . ٤ — أنظر الفصل٣ .

لأن النظام كوّن مجتمعاً خاصاً على رأسه رئيس النظام الذي كان بيده الأمر .

أما مسألة « الهجرة » فإننا نجد لها أصلاً في النظام . وقد جاءت من التفكير الاسلامي الذي تقوم عليه السنوسية من ناحية ، ومن متطلبات الحركة من ناحية ثانية ، ويمكن القول أيضاً أسوة بالرسول (ص) من ناحية ثالثة . وتقوم فكرة « الهجرة » على أساس هو أن الفرد المسلم يجب أن يهاجر من بلده إذا احتلها الكفار وبات لا يقدر فيها على ممارسة تعاليم دينه ، إلى بلد اسلامي ليعيش في ظل سلطة اسلامية . ويقول زيادة إن السنوسية قبلت وجهة النظر هذه التي كان اول من قال بها يحيى بن الشريف الشافعي (توفي ٦٧٦ هـ . [١]) . كما ان « رين » يرى أن هذه الفكرة هي التي دفعت ابن السنوسي لمغادرة الجزائر والاقامة في برقة [٢] . ولا شك في أن هذه الفكرة قد وجدت بين المفكرين المسلمين ، وبنى الفقهاء قولهم بها على أدلة شرعية كثيرة بعد أن أوجدوا تعبيري « دار الاسلام » التي يهاجر اليها « ودار الحرب » التي يهاجر منها .

ولكن ابن السنوسي لم يهاجر من الجزائر لهذا السبب وحده بل في رأينا أن السبب الرئيسي هو أنه صاحب دعوة ولم يكن بإمكانه القيام بدعوته في ظل السيطرة الفرنسية الكافرة وهذا بعد أن فكر بالرجوع ، لأن ابن السنوسي – حسب رأينا – ترك الجزائر قبل احتلال الفرنسيين لها .

ولا يغرب عن بالنا أن معظم سكان الجزائر وكل البلاد الإسلامية الأخرى لم يهاجروا عندما احتلت بلاد المسلمين من المستعمرين الغربيين . كما أن بعض اتباع السنوسية في الجزائر بقوا في بلادهم وجاهدوا العدو ، ولو أن البعض الآخر هاجر .

---

١ – زيادة ص ٩ . ٢ – رين ص ٤٩٨ .

والواقع أن « الهجرة » التي نرى لها اصلاً في النظام ليست من هذا القبيل فقط، بل تابعة من اسباب أخرى نتجت عن متطلبات الحركة. ومن مظاهر هذه الهجرة مرافقة جل كبار الاخوان لابن السنوسي وتركهم بلادهم الى حيث استقر بهم المقام في برقة والصحراء، وهجرة بعض اتباع النظام من اراضيهم إلى ما حول الزوايا. فهذه الهجرة حدثت لأن طبيعة حركة ابن السنوسي تستلزمها، فقد عملت هذه الحركة على نشر الاسلام وإرشاد الناس ثم قيام مجتمع اسلامي وهذا يستوجب دعاة يرافقون ابن السنوسي لذلك تركوا اهلهم وساروا معه. وواضح أن هذا النوع من الهجرة يخالف النوع الأول لأنها ليست من دار حرب الى دار اسلام.

كذلك فإن هجرة بعض الاتباع من بلدانهم إلى مناطق الزوايا إنما حدث لتنمية وتقوية مجتمع الزوايا، وهي أيضاً ليست من دار حرب إلى دار الاسلام. ومن مظاهر الهجرة أيضاً ارتحال محمد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة ثم منها إلى قرو. وهذه أيضاً تختلف عن النوع الأول لأن برقة كلها من دار الاسلام، ومع ذلك فقد عبّر أحمد الشريف عن ارتحال عمه بلفظة « هاجر »، وذلك لأنه هاجر في سبيل دعوته. وقد هاجر مع المهدي عدد من الاخوان. هذا ويلاحظ الدارس للسنوسية أن حرص اتباعها على التأسي برسول الله (ص) جعلهم يحرصون على استعمال نفس التعابير التي كانت تستعمل في عهد الرسول (ص)، ويعملون على تنفيذ مخططات مشابهة لتلك التي نفذها الرسول (ص). لذلك شبه ابن السنوسي اخوان الجغبوب بالصحابة البدريين (أي الذين شهدوا غزوة بدر) وشبه أحمد الشريف والإخوان ارتحال المهدي من الجغبوب بهجرة الرسول من مكة. وقصارى القول إن الهجرة في النظام السنوسي لا تعني الهجرة من دار الحرب إلى دار الاسلام فقط ولكن تعني الهجرة إلى المجتمع السنوسي حتى من دار الاسلام نفسها.

ولا تختلف فكرة الجهاد عن الفكرتين السابقتين من حيث أصلها. فهي من

صميم الاسلام ولذلك نراها في السنوسية . وهدف الجهاد في الاسلام إعلاء كلمة الحق ، وصفته غير عدوانية بل دفاعية . وقد فهمته السنوسية على حقيقته . فهيأت أتباعها للقيام به بمعناه الواسع أي الدعوة إلى الله ونشر الاسلام ومعناه المحصور الذود عن المسلمين . كما كانت تأمل في تحرير ارض الاسلام من سيطرة الكفار . ولكن السنوسية حرصت على تأجيل المعركة حتى يتم الاستعداد لذلك اختار ابن السنوسي المسالمة ولذلك هاجر المهدي إلى الكفرة . ولكن هـذا الحرص لم يقف أمام تقدم الفرنسيين في الجنوب ثم الايطاليين في الشمال فكان لابد من الجهاد دفاعاً عن الحركة وصداً للكفار . وقد اظهر اتباع السنوسية إيمانهم بهذا الفرص وابلوا أحسن البلاء .

ونجد من آثار مرحلة الحرب تلك كتاباً الفه أحمد الشريف في الحث على الجهاد بعنوان « *بغية المساعد في احكام المجاهد* [1] » .

ويقول المؤرخ أحمد حلمي زاده : « إنه من الواجب على كل فرد من الاخوان ما دام قادراً وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعداً للطوارىء متهيئاً للحرب منتظراً للأمر منفذاً له بكمال طاعته ، وهـذه حال جميع الإخوان الموجودين بافريقية . وأما أولئك الذين هم خارج افريقيا فإنهم غير مكلفين بهذا الاستعداد ولا يطلب منهم إلا المعاونة المادية [2] » .

وعليه فإن هذه الافكار الثلاث إنما جاءت – في الدرجة الأولى – من كون السنوسية دعوة اسلامية لأن هذه الافكار من صميم الاسلام . ثم من الظروف المحيطة بالحركة في الدرجة الثانية . كذلك تضمنت السنوسية افكاراً أخرى كلها إسلامية .

هذا هو النظام السنوسي بزاويته وطريقته الصوفية وافكاره الاسلامية .

---

١ – مطبوع في مصر ١٣٣٢ هـ .   ٢ – نقلاً عن شكري ٥٢ .

وما الزاوية والطريقة الا مجال تطبيق الافكار ، وهكذا نرى السنوسية فكرة وطريقة . وقد نجحت في تكوين مجتمع خاص يمكن أن نطلق عليه اسم المجتمع السنوسي ، تتوفر فيه كل عناصر المجتمع . وكان تطبيق الافكار فيه ناجحاً إلى حد كبير . ونلاحظ على هذا المجتمع أنه كان متماسكاً ، كبير العناية بالفرد ، مهتماً بشؤون دنياه وأخراه . كما أنه له سلطة تسير أموره على رأسها رئيس النظام ويعاونه عـــدد من كبار الاخوان ثم شيوخ الزوايا . وكان المجتمع متعاوناً يسوده نظام اقتصادي فيه معانٍ اشتراكية كثيرة ، وينتشر فيه التعليم كما يحمل مشعل العلم إلى خارجه ، وقد تساءل الدكتور البهي عن ماهية الحركة السنوسية وعما إذا كانت الحركة روحية تسعى لتطهير النفوس ، او حركـــة فكرية تسعى لتوضيح المبادىء على أساس منطقي ، أو حركة اجتماعيـــة أساسها الزاوية ، أو حركت اشتراكية لأنها ملكت الزاوية دون الافراد ، أو حركة ثقافية تعليمية تنشر المعرفة ، أو حركة سياسية تقوم بمهام الدولة ، أو صورة من الحركة الوهابية أخذت من الوهابية أصولها وتعاليمها . ثم قال « كل هذا يصح ان يقال .. ولكنها قبل كل شيء حركة اسلامية [1] » . كذلك تساءل آخرون مثل هذا التساؤل والسبب هو تعدد جوانب نشاط الحركـــة .

فقال أحمد حلمي زاده « الطريقة السنوسية هي عبارة عن جمعية مذهبية وطريقة صوفية وسياسية واجتماعية ولو أنها من الناحية السياسية ليس لها أغراض تمردية على الدولة [2] » .

فوجود السلطة في المجتمع السنوسي وتنظيمها يجعل لها مظهراً سياسياً ، ويزيد من تأكيد هذا المظهر أهداف الحركة . ووجود معهد الجغبوب والمدارس القرآنية في الزوايا وحركة التعليم فيهـــا يعطيها مظهراً تعليمياً ويجعلها تظهر كناشرة للعلم . والتعاون في الزراعة وجعل الاراضي وقفاً للزوايا يعطيها مظهراً اشتراكياً

---

١ – البهي ٧٩ ، ٨٠ . ٢ – تاريخ الاسلام ص ٥٨٧ .

وهكذا . ولكننا نختلف مع الدكتور البهي في قوله عنها إنها صورة من الحركة الوهابية إذ أن الاختلافات بينهما جوهرية ولا تلتقيان إلا في أن كليهما دعوة اسلامية وفي الاتجاه السلفي لهما وقد يكون ابن السنوسي تأثر بالحركة الوهابية من ناحية القول بالتمسك بالكتاب والسنة ولكنه قطعاً خالف في تنظيمات حركته الحركة الوهابية بل وخالفها في الوسائل أيضاً . فالوهابية تمسكت بمذهب أحمد ابن حنبل بينما كانت السنوسية مالكية بغض النظر عن الاجتهادات التي أدخلتها على مذهب مالك . والوهابيـــة اختارت طريق الشدة بينما سلكت السنوسية سبيل الرفق واللين . وتركزت الوهابية في مدن نجد وكانت مؤسساتها تناسب المدينة بينما تركزت السنوسية في البادية وكانت مؤسساتها توافق طبيعة البداوة. ناهيك عن أن الوهابية هاجمت بشدة وعنف الطرق الصوفيـــة بينما اتخذت السنوسية لنفسها طريقاً صوفياً خاصاً بها بالاضافة إلى اعترافها بالطرق الأخرى.

وتبرز الحياة التي عاشها المجتمع السنوسي كل جوانب النشاط التي ذكرناها . فإذا نظرنا إلى قمة الهرم رأينا رئاسة النظام على اتصال بالزوايا عـن طريق الرسائل المنتظمة التي ترسل كل نصف شهر من الجغبوب ، ورأينا في الجغبوب نشاط حركة القوافل والحركة التعليمية . وإذا نظرنا إلى قاعدة الهرم رأينـا العمل في الزاويا يجري على قدم وساق ، ودعاة الحركة يسيحون في الصحراء مرشدين داعين إلى الله . ويبدو من رسائل المهدي أن الزوايا كانت ترسل فائض غلاتها إلى المركز ليتصرف فيها وفق المصلحة ، وكان غالبـاً ما يرسل المركز الغلات اللازمة للزاويا التي كان موسمها الزراعي سيئاً . كما يبدو من التطبيق العملي للطريقة الصوفية السنوسية تقيدها بالسنة وبعدها عن انحرافات الطرق الأخرى ؛ فلا رقص فيها ولا موسيقى ، وإنما ذكر هادىء خال من الحركات التشنجية ، وتأمل يريح النفس وتوجيه للجهد البشري في مناحي الخير. هذا وقد وضع المجتمع نصب عينيه رسالة عزم على تبليغها وهي رسالة الاسلام ، تماماً كما سار هو على هدى الاسلام .

الفصلُ السّادس

انتِشارُ السِّنوسيَّة

تميز انتشار الدعوة السنوسية بالسرعة والسعة . وقد بدأ ابن السنوسي بتأسيس الزوايا سنة ١٢٥٣ هـ . — ١٨٣٧ م. عندما بنى زاوية ابي قبيس في مكة . ثم بنى زاوية البيضاء سنة ١٢٥٧ — ١٨٤٢ بعد ما ترك الحجاز واستقر في برقة . ثم تتابع بناء الزوايا في حياته فبلغ عددها في أقاليم ليبيا الثلاثة برقة وطرابلس وفزان حسب ما ذكر الأشهب سبعاً وثلاثين ، وفي خارج ليبيا حوالي خمس عشرة منها ست في الحجاز وثمانٍ في مصر وواحدة في تونس . فيكون المجموع اثنتين وخمسين . وقد سمى الأشهب هذه الزوايا وذكر أنها ليست كل الزوايا التي بنيت في عهد ابن السنوسي .[1] وفي عهد المهدي تضاعف العدد ، ويذكر الأشهب أسماء خمس وخمسين زاوية بنيت في ذلك العهد هي ليست كل الزوايا ، منها سبع في الحجاز ، وإحدى عشرة في مصر وواحدة في الجزائر ، وست في السودان الافريقي ، والثلاثون الباقية في ليبيا.[2] وهكذا يكون مجموع الزوايا التي سماها الأشهب مئة وسبعاً، وقد اهتم عدد من مؤرخي السنوسية بإحصاء عدد الزوايا وتعيين مواقعها . وكانت أولى المحاولات ما قام به دوفرييه الذي قال بوجود مئة وإحدى وعشرين زاوية منها سبع عشرة في مصر وواحدة في استانبول واثنتان في الحجاز

---

١ — الأشهب ، السنوسي الكبير ص ٣٨ ، وذكر « بعيتو » أن عدد زوايا ليبيا في حياة ابن السنوسي بلغ ٢١ .

٢ — الاشهب ، السنوسي الكبير ص ٤٢ .

وست وستون في طرابلس وبرقة وعشر في تونس وخمس في المغرب واثنتا عشرة في السودان الإفريقي .[1] ويجدر ملاحظة أن دوفرييه ألف كتابه سنة ١٨٨٣ الموافق سنة ١٣٠١ هـ . أي قبل وفاة المهدي بحوالي عشرين عاماً بني فيها عدد من الزوايا . ثم جاء « رين » فذكر اسماء ثمان وسبعين زاوية منها عشر في مصر واثنتا عشرة في الحجاز وست وخمسون في ليبيا بأقاليمها الثلاثة ، وأضاف بأن هناك زوايا لم تعين مواقعها .[2] ويتناقص العدد عند « ريبون وكوبولاني » في كتابهما إلى ست وأربعين زاوية ، منها ثلاث وثلاثون في برقة وخمس في طرابلس وثلاث في الجزيرة العربية وثلاث في السودان الشرقي وواحدة في الجزائر وأخرى في مصر . وواضح أن هذه الارقام تقريبية ، وأقربها إلى الحقيقة رقم دوفرييه الذي اهتم بتحديد مواقع الزوايا . ثم جاء شكيب ارسلان فقال بوجود مئة وثمان وثلاثين زاوية ذكر اسماء مئة واثنتين وثلاثين منها مع أسماء شيوخها على عهده . أما توزعها فثلاث عشرة في الحجاز واثنتان وثلاثون في مصر وخمس وسبعون في ليبيا وست في تونس واثنتان في الجزائر .[3] وبعد ارسلان عمل بريتشارد على حصر عددها بدقة وتحديد مواقعها فخرج بذكر اسماء مئة وست واربعين زاوية ورسم خريطة تبين موقع كل منها. ومن بين هذا العدد توجد خمس واربعون زاوية في برقة وإحدى وثلاثون في مصر وسبع عشرة في الحجاز وثماني عشرة في طرابلس وخمس عشرة في فزان وست في الكفرة وأربع عشرة في السودان .[4] وهذا التحديد هو ادق التحديدات ، كما أن أكثر هذه الزوايا إن لم تكن كلها بنيت في عهدي ابن السنوسي والمهدي . ونلاحظ مما سبق أن دوفرييه ينفرد

---

١ – دوفرييه ٥٧ وزيادة ١٠١ .

٢ – رين ٥٠٤ وزيادة ١٠١ .

٣ – ارسلان ص ٢٠٤ من المجلد الثاني .

٤ – بريتشارد ص ٢٤ ، ٢٥ .

بالقول بوجود زاوية في استانبول ، كما أن بعض المؤرخين الغربيين قالوا بوصول السنوسية إلى جنوب شرقي آسيا ومنهم ارنولد نقلاً عن ريدل وسنوك – كما ذكر زيادة – فأما زاوية استانبول فلا نرى لها شأناً في الحركة إذا وجدت . وأما وصول السنوسية إلى جنوب شرقي آسيا فمن الممكن أن يكون قد حدث عن طريق بعض حجاج تلك البلاد نقلوا معهم بعض تعاليم السنوسية ، وهو لا يعني انتشارها في تلك البلاد لأنها لم ترتبط بمركز الحركة ونحن لا نرى أية زاوية أو مجموعة سنوسية لم ترتبط بمركز الحركة أنها داخلها .

مواقع الزوايا

نجد بملاحظة مواقع الزوايا أنها تمتد ما بين الحجاز ومصر وليبيا والصحراء الافريقية ، كما نجد أن جلها قابع في الصحراء وأقلها مبني في المدن . وإذا استثنينا زاوية استانبول التي لم نر لها شأناً نجد أن كل الزوايا كانت في الجزيرة العربية وأفريقيا .

تعليل انتشارها في الصحارى

وظاهرة تركز جل الزوايا في الصحارى نابعة من طبيعة السنوسية والطابع الذي اتسمت به . فقد هدفت السنوسية إلى اصلاح المجتمع المسلم ونشر الإسلام. وتكيف ابن السنوسي مع الظروف التي احاطت به فوجّه دعوته نحو البوادي، وذلك لأنه أراد العمل بحرية بعيداً عن متناول يد السلطة فأوغل في الاماكن التي لاتصل اليها تلك اليد ، ولأنه أيضاً رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية ووجد فيهم نفوساً متهيئة لحمل الدعوة ، كما ألفى المجال فسيحاً عندهم ليخدمهم ويقوم بدوره الإصلاحي بينهم . وأهل البوادي في غالب الاحيان أبسط تفكيراً من أهل المدن وأكثر اندفاعاً واخلاصاً لما

يؤمنون به . فلذلك كله اتخـذ ابن السنوسي بعد مغادرته الأولى للحجاز برقة مركزاً لنشاطه حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية لا سلطة للدولة العثمانية عليها . وكان حلمه أن يوجد الفئة المؤمنة ويهيئها للقيام بدورها في انقاذ العالم الإسلامي كله ونشر الاسلام .

وعمل ابن السنوسي على تنظيم مؤسسات حركته بحيث تناسب البـادية واحتياجات أهلها ، فأوجد الزاوية السنوسية ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية والقضائية والاقتصادية والسياسية . ورتب طريقته الصوفية على أساس افكاره وبشكل ينسجم مـع فطرة البدو وتقاليدهم . لذلـك نجحت الحركة في البوادي ، ولذلك أيضاً يمكن وصف الحركة السنوسية بأنها بدوية بمعنى أنها وجدت لأهل البادية في الدرجة الأولى . ولا يعني هذا أنهـا كانت تنوي الاقتصار على البوادي بل آملت أن تعم العالم الإسلامي كله . وكل ما في الأمر أنها جعلت البـادية وسكانها منطلقاً لها . وكان من الممكن أن تطور مؤسساتها لتناسب المدن أيضاً .

وكون الحركة « بدوية » يفسر لنا لماذا لم تنتشر بكثرة في المدن . فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدي لهـم الخدمات التعليمية وتكفيهم حاجاتهم القضائية والاقتصادية والسياسية . لذلـك نلاحظ أن الزوايا التي أنشئت في المدن لم تكن تقوم بوظائفها ، كما كانت تقوم بها زوايا البادية . كما أنه لم يكن لها دور كبير في الحركة السنوسية بل إن بعضهـا سرعان ما هجر كزاوية القاهرة التي بناها عباس الأول . وقـام البعض الآخر كزوايا بنغازي ودرنة وطرابلس بدور الوصـل بين الحركة في البادية وبين الحضر . وقد عبّر بريتشارد عن طبيعة الحركة بقوله : « أقيم النظام السنوسي على أساس قبلي وليس من أجل المدن ، وكانت الزوايا توجد من قبل القبائل وتعتبر في نظرهم مؤسسات قبلية » كما

قال بإن وظائف الزاوية الاجتماعية كانت تناسب رجال القبائل الاجلاف ولا يحتاجها سكان المدن الآمنين . [1]

انتشارها في برقة

نجحت السنوسية في برقة حتى أن زواياها عمت الجبل الاخضر والواحات ، وأتاح لها نجاحها هذا أن تنتشر من برقة ألى ما حولها فسارت شرقاً حتى صار لها زوايا كثيرة في صحراء مصر الغربية وجنوباً حتى وصلت بحيرة تشاد وغرباً إلى طرابلس وفزان . وقد قام أهل برقة بدور لا بأس به في هذا الانتشار ، فلكي نفهم هذا الدور ونكشف عن اسباب النجاح في برقة لا بد أن نأخـــذ فكرة عن طبيعة المجتمع القبلي في برقة وابرز خصائصه .

مجتمـــع برقة

كانت تسكن برقة عندما حل بهـا ابن السنوسي عدة قبائل عربية أشهرها العبيدات والبراعصة والحسا والدرسة والعواقير والمغاربة والقطعان والمنفة وزوية . وكانت هذه القبائل تشكل مجتمعاً انعزالياً ليس فيه سلطة حكومية لأن السيطرة العثمانية لم تتجاوز في برقة المـــدن الساحلية وجزءاً صغيراً من الجبل الأخضر . وإنما تحكم هذا المجتمع العادات والأعراف والتقاليد البدوية ثم القوة إذا لم يحدث الاتفاق حول خلاف . وكانت طباع أهالي برقة كطباع البدو عامة تتصف بالخشونة التي تنسجم مع البيئة الخشنة . أما نفوسهم ففيها صفاء وبساطة وتنبع منها خصال نبيلة تستدعي الإعجاب . وكانت حيـاتهم بسيطة ، يعيشون في الخيام . وقد ذكر بريتشارد الذي عاش بينهم فترة أن خصالهم النبيلة كانت تنال إعجاب كل من سكن بينهم . [2]

---

١ - بريتشارد ص ٧١ .
٢ - « « ٦٣ .

وكانوا بسبب عزلتهم جاهلين تماماً بالعالم الخارجي المحيط بهم، وجاهلين أيضاً بتعاليم دينهم . وقد ذكر أحمـــد حسنين أن ابن السنوسي وجدهم « سادرين في غيابات الضـــلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينيـــة والخلقية »[١] . والواقع أنهم كما يقول « بعيو » يشتركون في هـــذا الوصف مع بقية البلاد الاسلامية الأخرى في ذلك الوقت[٢]. وفي قول حسنين بعض المبالغة وعدم الإحاطـــة لأنهم مع جهلهم الذي جعلهم سادرين في غيابات الضلال كانت لديهم شيم خلقية طيبة .

ويتجلى جهلهم بالإسلام الذي هو دينهم ، بعـــدم معرفتهم لأكثر تعاليمه وعدم تقيدهم بأكثر أوامره، فجلهم لا يقيمون الصلاة، ومن أقامها منهم لا يؤديها على صورتها المعروفة ، بل يتصرف فيها. وقليل منهم من يحفظ آيات من القرآن، ومنهم من يحفظ معـــاني الآيات ويقولها بلهجته الخاصة في صلاته .

وبالرغم من هـــذا الجهل فإنهم يتمسكون ببعض تعاليم االاسلام بقوة كصيام رمضان ، فهم يحافظون عليه ، وكالجهاد في سبيل الله إذا دعوا إليه ، كما توارثوا بعض التقاليد الإسلامية وساروا عليها باعتبارها تقاليد وليس باعتبارها تعاليم إلهية .

وجهلهم هذا لا يعني عدم اعتزازهم بدينهم، فإنهم – على العكس من ذلك – يشعرون بالفخر لكونهم مسلمين ويحمدون الله أن خلقهم على دين نبيه محمد (ص)، ويعتبرون أنفسهم أرفع من النصارى واليهود[٣] . فهم مؤمنون بالاسلام ولكنهم جاهلين بأكثر تعاليمه .

ويعجب البدو – نتيجة شعورهم بجهلهم – بالرجل العالم وهو كل من استطاع

---

١ – أحمد حسنين ص٤٨ .

٢ – بعيو ٣٣ .

٣ – بريتشارد ٦٢ .

القراءة والكتابة ، وفي بعض المناطق يسمونه « الفقيه » لأنـــه يفهم الدين . وكانوا يعهدون له بتربية أولادهم وتعليم القراءة والكتابة وإرشادهم إلى بعض أوامر دينهم . كما يؤمن البدو بالأولياء وبكراماتهم، ويتوجهون نحوهم بالاحترام والطاعة والتقديس . وقد وجدت لذلك في برقة مقامات بعض الأولياء منهـــا مقام سيدي رافع في البيضاء ، يلتمس منها الأهالي ومن الأولياء الأحيـاء أيضاً البركة . وأكثر هؤلاء الأولياء من المرابطين، ومعلوم أن احترام المرابطين قديم ونابع من جهادهم في سبيل الله واخلاصهم في الدين . ثم تطور معنى لفظـــة « مرابط » في الشمال الافريقي فصارت تقابل معنى لفظة « درويش » في الشرق الإسلامي . وكان البـــدو يحترمون هؤلاء المرابطين ويطلبون منهم العون في الأزمات .

وكان البدو يحتاجون — لعدم وجود سلطة قضائية بينهم — إلى وجود رجل يطلقون عليه اسم « المحكـّم » يعهدون إليـه بفض المنازعات بينهم والحكم في خلافاتهم وتوثيق اتفاقاتهم . ويكون المحكم عادة رجلا غريباً عن القبائل حيادياً بينهم لكي يطمئن الأطراف المعنيين إلى نزاهته .

وجاء ابن السنوسي لهـذا المجتمع فدرس أوضاعه وعرف خصائصه ، وعلى ضوء هذه المعرفة بدأ عمله. فمجتمع برقة جاهل بدينه - وقد حزّ هذا الجهل في نفس ابن السنوسي كثيراً — فليكن ابن السنوسي مصلحه ومعلّمـه . والمجتمع بحاجة إلى وجود العالم الفقيه والولي والمحكم فلتقم الزاوية بدور العالم ودور المحكم ولتوجه العاطفة الدينية في اتجـــاه صحيح . ولذلك نظم ابن السنوسي الزاوية بحيث تكفي حاجات مجتمع برقة ، ففيها المدرسة القرآنية والمسجد يقومان بالتعليم وسد الحاجات الدينية . وفيها شيخ الزاوية رجل حيـــادي يفصل في المنازعات بين القبائل . ثم هناك الطريقة الصوفية توجه عاطفة البـــدو الدينية وتعلمهم اتباع الرسول وتقليده، وفيها السوق لتسد حاجاتهم الاقتصادية.وهكذا تكون الزاوية قد ورثت أعمال العالم والمرابط والمحكم ، وقامت بهـــا على وجه

أفضل بكثير لتوفر التنظيم والتوجيه فيه .

وقد حرص ابن السنوسي أن يجلب معه إلى هذا المجتمع من خارجه مَن سيقوم بهذه الأعمال . لذلك نلاحظ أن طبقة كبار الإخوان وشيوخ الزوايا كانت غريبة عن المجتمع في أصلها ، فكل أفرادها من خارج برقة ممن رافق ابن السنوسي ، ولذلك كانوا حياديين في نظر القبائل ليقوموا بتلك المهام، كما حرص ابن السنوسي على عدم مصادمة تقاليد ذلك المجتمع وإن عمل على توجيهها وتشذيبها .

وفي الوجه المقابل رأى هذا المجتمع في ابن السنوسي ولياً صالحاً من أولياء الله ينتسب للرسول (ص) ويعمل على الدعوة إلى الله فأحبه واحترمه وأطاعه . ويرى بريتشارد إن إقبال البدو على السنوسية ، إنما نبع من إخلاصهم لابن السنوسي ، وأن ابن السنوسي استمد قداسته وقوته من كونه « مرابطاً » ، « فالبدو يألفون الأولياء ويجهلون الأنظمة ، والسنوسي الكبير في نظرهم ولي ذو كرامات وصاحب بركة »[1] . وقد كانوا بحاجة إلى مثله يقيم بينهم سلطة تنظم شؤونهم فساروا معه ودخلوا في حركته .

وقد استفاد ابن السنوسي من خصال البدو النبيلة وعمل على إبرازها في قالب جميل بعد أن خلصها من خشونة الطباع وآثار الجهل ، فانتهت باستقراره في برقة حالة الفوضى وانعدام الأمن والحروب التي كانت تنشب بين القبائل . ويعطينا الحشائشي شهادة طيبة عن بدو برقة كما رآهم عند زيارته لهم فيقول : « إن أهل الجبل الأخضر طباعهم حسنة ، وأخلاقهم طيبة ليّنة ، معتقدون في شيخهم سيدي المهدي السنوسي اعتقاداً لا تزحزحه الجبال ، ويخافون الله ورسوله، وهم أصحاب عبادة، وقد ضرب الأمن وعدم الخوف أطنابها بأرضهم، فالغريب والسائح عندهم لا يهضم لهما جانب ولو كانت معهما حمول الذهب

١ - بريتشارد ص ٦٥ .

والفضة »[1] .

والبدو فيهم شجاعة وبساطة ويحبون الكرم والوفاء ، وقد أشبع ابن السنوسي هذه الجوانب في نفوسهم فكان في الزوايا جانب الضيافة وفي الحركة مجال مفتوح للإقدام . وينتشر بين أهالي برقة شعر شعبي غني بالمعاني الجميلة، وقد تقدم هذا الشعر في الزوايا وتطور مع تقدم الحركة العلمية بينهم، ونوه عن هذا التقدم الحشايشي الذي التقى بعدد من شعراء السنوسية .

واستفاد ابن السنوسي أيضاً من خبرة البدو بالصحراء وطرقها في نشر دعوة الاسلام ، فساهمت قبائل برقة وخصوصاً تلك التي تقطن واحات الجنوب كزوية وتبو في نشر الاسلام بين وثنيي أفريقيا وتأسيس الزوايا السنوسية عندهم ، كما سنشرح بعد قليل . وهكذا فإن ابن السنوسي وعى وفهم التربة التي عمل فيها ، ونجح في إنبات الثمار الطيبة منها .

كيف تم الانتشار في برقة

بعد أن أسس ابن السنوسي زاوية البيضاء التي هي أم الزوايا في برقة سنة ١٢٥٧ هـ. أعطى القبائل مثلاً عملياً على فائدة الزوايا بالنسبة إليهم ، فأقبلوا عليه يطلبون بناء زوايا أخرى ، كل قبيلة في منطقتها. وقد تحدث بريتشارد عن كيفية ذلك فقال : « إن الزاوية غالباً ما توجد وفق طريقة واحدة هي أن إحدى القبائل تنظر بعين الحسد لوجود زاوية في قبيلة مجاورة فترسل ممثلين عنها إلى رئيس الطريقة ليطلبوا منه إرسال شيخ يعلم أطفالهم ويشرف على أمور دينهم ويفض الخصومات بينهم ، فيبعث رئيس الطريقة شيخاً من الاخوان المتعلمين ويرافقه أحياناً واحد أو اثنان من الاخوان ويشرعون مع أهل القبيلة بتأسيس الزاوية » .

ونحن نرى أن الدافع الذي يجعل القبيلة تطلب إنشاء الزاوية ، هو أنها لمست

---

١ ـ نقلاً عن الاشهب ، المهدي ص ٤١ .

فوائد الزاوية في المنطقة التي بنيت فيهـا . ويذكر بريتشارد أنه اطلع بواسطة الأشهب على رسالة بعث بها ابن السنوسي لأبنائه من قبيلة العواقير يقول فيها إنه أرسل لهم إخواناً ليؤسسوا زاوية لهم، كما يشير إلى أن هذا العمل لصالحهم حيث سيتلقون العلم هم وأبنــاؤهم في الزاوية وخصوصاً القرآن الكريم والشرع الحنيف[1] .

وقد عثرنا على رسالة بعث بها أحد الاخوان إلى أحد علماء طرابلس يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة وتاريخها ١٥ محرم ١٢٧٦، وفيها مقطع يتحدث عن بناء إحدى الزوايا . . « وأيضاً نخبركم أنه في محل ببرقة يقــال له جدابية قصرين معلومات والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة وزوية راغبين في الاستـاذ أن ينشيء لهم زاوية هناك . وكتبوا حجج في إعطاء تلك الأرض ومهدوا الى كل المشايخ وأرسلوا بهم واحد مخصوص إلى حضرات جنابه رضي الله عنه . فحيث علم رغبتهم في الزاوية أجابهم لذلك ليحصل بذلك الخير إليهم وإلى كافة أمـّـة الرسول »[2] .

ومجتمع برقة لا يخلو من عـــدد من الطرق الصوفية ، ولكن ابن السنوسي بزّها جميعاً بتنظيم طريقته بحيث تكفي حاجات المجتمع ، لذلك سرعان مـــا انتشرت الزوايا . وبالرغم من أن ابن السنوسي غادر برقة إلى الحجاز بعد أن أمضى في برقة حوالي ست سنوات ، وامتدت مدة غيابه حوالي ثماني سنوات إلا أن الانتشار بقي مستمراً بفضل نشاط كبار الاخوان وتوجيهاته التي كان يبعث بها من الحجاز. وقد أفادته إقامته في الحجاز ليلتقى بأفراد من القبائل البرقاوية ممن قدموا الى الحج وينشر دعوته بينهم . ورسالته الى أهل وجنقة تعطي مثلاً على هذا النشاط ، كذلك أحاديثه لعقيلة الزوي وهو في طريق عودته من الحجاز عن رغبتـــه في أن تقوم قبيلة زوية بتولي نشاط الزوايا في الكفرة . وهكذا

---

١ - بريتشارد ٧٣ ، ٧٤ .

٢ - دار المحفوظات بطرابلس .

تأسست إحدى وعشرون زاوية في برقة وحدها إبان حياة ابن السنوسي أي في خلال تسعة عشر عاماً .

الانتشار في الأماكن الأخرى

وكما نجح النظام في برقة نجح في الجزيرة العربية ، ومجتمع الجزيرة كثير الشبه بمجتمع برقة فهو بدوي وصبغته إسلامية . وقد بنى ابن السنوسي أول زواياه سنة ١٢٥٣ هـ. ١٨٣٧ م. على جبل أبي قبيس في مكة ، ثم انتشرت الزوايا بعد عودته من برقة إلى الحجاز حيث بني زوايا في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة . ولم يقف الانتشار بعد مغادرته الأخيرة للحجاز بل تولى وكلاؤه – وكانوا على اتصال دائم به – بناء عدد من الزوايا منها زاوية رباح ووادي فاطمة ، والمضيق وإياس . وقد ظهرت آثار هذه الزوايا بين بدو الجزيرة حيث رققت من حواشيهم ووجهت جهودهم الى العمل المثمر في الزراعة والصناعة .

وانتشرت السنوسية من برقة الى البوادي المحيطة بها، فبنيت زوايا في صحراء مصر الغربية ، وقد زارها ابن السنوسي مراراً في طريق أسفاره ، وبنيت زوايا أخرى في واحات طرابلس ومنطقة جبل نفوسة ، وفي واحات فزان ووصلت الى جنوب تونس .

ووجه ابن السنوسي اهتمامه نحو السودان الأوسط ، فقد كان من أهداف دعوته التبشير بالاسلام بين القبائل الوثنية التي لم يصلها الاسلام ، ولذلك أنشأ صلات وثيقة مع سلطان واداي – كما سبق أن ذكرنا – وكان قد قابله بمكة المكرمة قبل أن يعتلي عرش السلطة حتى إذا أصبح محمد شريف سلطاناً عام ١٨٣٨ طفق ينشر الطريقة في بلاده وظل – كما يقول شكري – طوال حكمه من أتباع السيد ومريديه والصادعين بأمره[1] . كما عمل ابن السنوسي على تربية

---

١ – شكري ٣٩

دعاة من أبناء تلك القبائل كان قد اشتراهم من إحدى قوافل العبيد وحررهم ثم بعثهم بعد تفقيههم في الدين الى بلادهم.

تعليل اتجاهها للسودان

ونقف هنا لنتساءل عن السبب الذي حدا بابن السنوسي ليوجه اهتمامه إلى السودان الأوسط دون غيره من أواسط افريقيا.

إن السبب – في رأينا – هو أن السودان الأوسط كان الجزء الوحيد الذي بقي أهله وثنيين ولم يصلهم الاسلام. فقد انتشر الاسلام في السودان الغربي الذي يشمل اليوم غينيا ومالي وجزءاً من نيجريا على يد المرابطين والموحدين الذين أقاموا دولتيهما في المغرب. كما انتشر الاسلام في السودان الشرقي، وبقي السودان الأوسط وثنياً.

وقد ورث نظام الزوايا السنوسية نظام الرباط الذي كان سائداً في الدولة الاسلامية، إذ ابتدع المسلمون نظام الاجناد والربط والثغور للمحافظة على أمن الدولة في الداخل وعلى الحدود، وكانت الربط تتتابع على طول ساحل الشمال الافريقي بانتظام وتقوم مقام القلاع في أول عهد الدولة الاسلامية، ثم قام المرابطون بإنشاء صف من الربط على الحدود الجنوبية للمغرب فبقيت بذلك منطقة واحدة كان المجال فيها مفتوحاً للعمل عندما قامت السنوسية، تلك هي منطقة السودان الأوسط. وقد ساعد السنوسية على الوصول إلى تلك المنطقة قربها من برقة واتصالها بها عن طريق القوافل.

الانتشار في عهد المهدي

واستمر انتشار الدعوة السنوسية في عهد المهدي. ففي برقة زاد عدد الزوايا حتى بلغ خمساً وأربعين زاوية. وساعدت هجرة المهدي إلى الكفرة على إقامة عدد من الزوايا هناك. وفي صحراء مصر الغربية بلغ عدد الزوايا أكثر من ثلاثين

فأصبح للسنوسية نفوذ كبير فيها . ويبدو هذا جلياً من قراءة الرد والبيضاء بين خديوي مصر والمهدي[1] . فقد كان الخديوي يستشير المهدي في أموْرحات سيوة وما حولها لعلم الخديوي بعظم تأثير المهدي على أهليها، كما كان مأمور سيوه المعين من قِبل الخديوي يتعاون مع شيخ الزاوية السنوسية فيها ويبعث للمهدي برسائل تدل على الاحترام . وكانت السلطة المصرية تلجأ إجمالاً كلما حدثت مشاكل في تلك المنطقة إلى المهدي ليحلها .

أما في طرابلس فقد تأسست عدة زوايا حتى بلغ مجموع ما بها من زوايا ثماني عشرة زاوية . وبلغ مجموع ما في فزان اثنتين وعشرين ، ممتدة من الجغبوب الى غات في أقصى الجنوب الغربي من غدامس على الحدود التونسية الى الكفرة . كذلك بنيت عدة زوايا في جنوب تونس . ونلاحظ أن الانتشار في الجزيرة العربية لم يكن عظيماً في عهد المهدي شأنه في عهد أبيه ، والسبب في ذلك كما نرى هو بُعد الجزيرة العربية من برقة مركز الحركة وعدم سفر المهدي الى الحجاز وإقامته به كما فعل أبوه .

وبالمقابل فإن انتقال المهدي إلى الكفرة ثم منها الى قرو قد ساعد على انتشار الدعوة في السودان الأوسط بشكل جيد . فبلغت السنوسية بحيرة تشاد وجهات النيجر ، ووصل عدد الزوايا في السودان أربع عشرة زاوية . وقد كان الدعاة السنوسيون يتخرجون من معهد الجغبوب ويسيرون مع القوافل للدعوة الى الاسلام والتبشير به . وقد تحدث بونه موري عن نشاطهم في افريقيا فقال عن معهد الجغبوب « وصار أعظم مدرسة لمبشري الاسلام في أواسط افريقيا » . ثم قال « وكان المؤدي الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما شرقي من سوكنه الى مرزق، والثاني غربي من غدامس والعاير . فالسنوسية نشروا طريقتهم في واداي والباقيرمي وبوركو وتبعوا نهر بينوى الى أن بلغوا النيجر الأدنى حيث نجدهم

---

١ - نشر بعض هذه الرسائل الاشهب في كتابه ، المهدي السنوسي .

يهدون تلك القبائل الى الاسلام . وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد هي مركز الاسلام العام في أواسط افريقيا .

وطريقة هؤلاء الجماعة في التبشير هي أن يشتروا الأرقاء صغاراً من السودان ويربوهم فيجغبوب وغدامس وغيرهما، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلوم، أعتقوهم وسرحوهم إلىأطراف السودان يهدونأبناء جلدتهم، الباقين على الفيتشية. وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشري السنوسية لبث دعاية الاسلام في جميع افريقيا الداخلية من سواحل الصومال شرقاً الى سواحل السينغال غرباً .

ولقد حذا سيدي محمد المهدي وأخوه سيدي محمد الشريف حذو والدهما في السعي الى الغرض الذي توخاه ألا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الأجنبيوإعادة الإمامة العامة كما كانت في عصر الخلفاء »[1] . وقد لاحظ الرحالة « رولفس » وجود بعض السنغاليين بالكفرة أثناء زيارته لها عام ١٨٧٦ حضروا لزيارة السيد المهدي وزاروا الجغبوب : كما ذكر « ناختجال » أنه شهد بعض مبشري السنوسية في بير البركة عام ١٨٧١ [٢] .

وقد نتج عن هذا النشاط دخول عدد كبير من أهالي تلك المناطق في الاسلام. وتبع ذلك اندفاعهم في الولاء للسنوسية وخدمة الاسلام . ومن مظاهر هذا الاندفاع ازدياد عدد الحجاج من تلك الأصقاع . وقد تحدث إيوالد فولز أحد أعضاء بعثة كوفمان عن هذه الزيادة فقال : « وزيادة عدد الحجيج في منطقة بحيرة تشاد يعود إلى تأثير السنوسية ، تلك القوة العظيمة في أواسط افريقيا ، فالأثر الروحي لهذه القوة الاسلامية عظيم. وقد حوّلت السنوسية الزنوج الوثنيين إلى الاسلام ونافست بنجاح البعثات التبشيرية المسيحية وأثرت بقوة على الزنوج وحضّرتهم »[٣] .

---

١ ـ انظر أرسلان ، المجلد ٢ ص ٤٠٠ نقلاً عن مقال لبونه موري.

٢ ـ شكري ٦٤ ، ٦٥ .

٣ ـ لندن Three Years In The Libyan Desert J. C. Ewald Falls 1913

أما أسمـــاء أشهر الزوايا السنوسية ، ففي برقة زوايا الجغبوب والبيضاء والعزيات والمرج وطلميثة ودرنة وتوكرة وبنغازي والطيلمون ودريانة وشحات وأوجـــله ومراده والقصرين والنجيلة ومسوس . وفي طرابلس زوايا غدامس والرجبـــان ومزدة وطرابلس ومسلاته وسرت وهون وسوكنة وودان وبني وليد . وفي فزان زوايا سبها ومرزق وزويلة وغات والقطرون . وفي مصر زوايا سيوة والزيتون والنطرون والفرافرة . وفي الجزيرة العربية زوايا الوجه والمدينة وينبع وبدر وأبي قبيس والطائف ومنى والحسينية . وفي منطقــة الكفرة زوايا تازربو وربيانة والحواري والتاج والجوف . وفي السودان زوايا قرو ووجنقة الكبيرة ووجنقة الصغيرة وبير العلايلي وكانو[1] .

وقد حاول بعض المؤرخين تقدير عدد أتبـاع السنوسية ، فقدرهم دوفرييه عام ١٨٨٣ بحوالي ثلاثة ملايين نسمة ، بينما قال بونه موري في مقاله « ويقـدر عدد مريدي السنوسية بأربعة ملايين » . ونحن نوافق زيادة على أن محاولة إعطاء أرقام في هذا الشأن لا فائدة منها[2] ، فالتقدير صعب ولا يقوم على أدلة دقيقة . ولكن يمكن القول إن جل سكان برقة وعدداً لا بأس به من سكان دواخل طرابلس وفزان كانوا من أتباع السنوسية ، ويدينون بالولاء لها .

توقف نمو الحركة

مرت الحركة السنوسية شأنها شأن كل الحركات بعدة أطوار ، فكانت في عهد ابن السنوسي في طور النشوء، ثم نمت في عهد المهدي ، وبوفاته دخلت طوراً جديداً ومرحلة جديدة توقفت فيها عن النمو . فلم ينشأ في عهد أحمـد الشريف الذي خلف المهدي على رئاسة النظام إلا عدد ضئيل جداً من الزوايا . والسبب الرئيسي في هذا التوقف الظروف التي جدّت على الحركة في آخر حياة المهدي ،

---

١ ـ أنظر الاسماء كلها في بريتشارد ٢٥ .

٢ ـ انظر زيادة ١٠٣ ، وأرسلان ج ٢ ص ٤٠٠ .

ونعني بها الحرب السنوسية الفرنسية . فقد اضطرت هذه الحرب السنوسيين إلى صبّ جهودهم وقواهم في الجهاد المسلح ، وكان من الممكن لولا حدوث هـــذه الحرب أن تستمر الحركة في نموها وتتابـع الدعوة انتشارها في أواسط افريقيا ، كما كان مرسوماً لها . والحق أن السنوسية حاولت بشدة أن تتجنب كل حرب حتى يكمل نموها ، ولكن القوى الاستعمارية في افريقيا وقفت لها بالمرصاد بعد أن وعت أخطارها فكان أن هاجم الفرنسيون زوايا السنوسية هناك .

ونلاحظ في هذا الطور الجديد أن السنوسية وجهت أتباعها للمقاومة العظيمة ، فتوقف النشاط الدعوي ، وألـّف أحمد الشريف رسالة في الجهاد فأقبل الأتباع على الحرب بإيمان وحققوا بعض الانتصارات . وفي كل الأحوال أبدى الأتبـاع بطولات مشرفة في جهادهم .

وتشير رسالة بعث بها وكيل مدير ساحة القطرون إلى متصرف لواء فزان إلى المعارك التي نشبت بجهات كانم . وتاريخ الرسالة ١٤ ربيـع الثاني ١٣٢١ ، أي بعد مضي سنة على وفاة المهدي . وقد جاء فيها : « معروض شاكر فضلكم أن يوم التاريخ قدمو لطرفنا الزيار .. منهم أحــد عشر إنسان من أناس القطرون منهم أحمد كريو وخـــدام السيد سنوسي . وبعد السؤال إليهم عن أخباريات القبلة أفادوا بأن وقعت معركة بجهة كانم فيما بين الاسلام وأعداء الله الكفار وقتل من المسلمين أناس كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله الواحد القهـــار ، وصارت الهزيمة على الاسلام وزاوية السيد الذي بكانم ملكوها المشركين والآن ماكثين بها وعظم لكم الأجر في السيد المهدي (ر) .. والآن المقدم على الاخوان ابن أخيه سيدي احمد الشريف ، وجهة واداي صائرة فتنة فيما بين الاسلام مع بعضهم بعضاً والكفار يريد أخذها الفريقين الفرانسة والانكليز . أما من جهة برنوح حسب المسموع أنها عافية وربنا سبحانه وتعالى يهدي الأشرار ويهلك ويدمّر جميـع الكفار ويقوي عصبة الاسلام وينصرهم على هؤلاء اللئام »[1] .

---

١ ـ دار المحفوظات ، ملف السنوسية .

ولا حاجة بنا إلى الاسترسال في سرد أخبار تلك المقاومة فذلك خارج عن موضوع هذا البحث . ولكن يهمنا أن نذكر أن هذه المقاومة استمرت حوالي عشر سنوات . وأنها كانت دفاعاً عن النفس ضد العدوان الفرنسي السافر الذي عمل على احتلال كل زوايا السنوسية في السودان الأوسط ليثبت مركزه ويقضي على الدعوة للإسلام هناك .

وفي رسالة بعث بها أحمد الشريف في ٣ ربيع الأول ١٣٢٩ إلى بعض مريديه في مصر ونشرتها جريدة « المقطم » تبرز الروح الصابرة لدى السنوسيين، ويظهر منها أيضاً أن الدعايات الفرنسية كانت شديدة ضدهم . وقد جاء فيها « أتتنا كتب من بني غازي يؤخذ منها أن الفرنسوي شكا إلى الدولة العلية قائلاً إن السنوسية والتجار أعانوا محمد صالح سلطان واداي السابق عليه . فما قاله غير صحيح وإنما الله سبحانه هو الذي نصر سلطان واداي وما قاتله إلا بسلاحه . على أننا لا نزال نلقى شر الفرنسوي ونحيد من طريقه وهو يتبع آثارنا ويؤذينا بلا سبب منا ولا موجب ، فإنه أتى أولاً إلى زاويتنا في كانم فقتل رجالها ونهب ما فيها من كتب وأسلحة فتركناها له فلحقنا إلى كلك وقتل رجالها وأخذ مالهم وفعل بالزاوية « دن » كذلك. ولا يزال الاخوان صابرين محتسبين أجرهم على الله تعالى وهو ناصرهم .. »[1] .

وقد أجبرت السنوسية على إنهاء مقاومتها في الجنوب عندما بدأت الغزوة الايطالية سنة ١٩١١ فتحولت السنوسية إلى المقاومة في الشمال دفاعاً عن برقة . واستطاعت في هذه المرة أن تقاوم الطليان حوالي عشرين سنة . وفي خلال الحربين وعلى الخصوص بعدما تخلت الدولة العثمانية عن ولاية طرابلس الغرب قامت السنوسية بدورها كدعوة وكنظام ، فكانت التنظيم الوحيد الباقي في برقة واستطاع سكان برقة بفضل هذا التنظيم المقاومة طويلاً ضد الطليان .

---

١ ـــ جريدة دار الخلافة في ٢٨ ربيع الآخر ١٣٢٩ نقلاً عن « المقطم » .

ولكن هذه المقاومة انتهت بخسران أهالي ليبيا للجولة الاولى واحتــلال ايطاليا لبلادهم . وما حدث هذا الخسران إلا بسبب تفوق القوى المادية التي كان يملكها العدو الغربي تفوقاً يجعل التوازن مفقوداً مع قوة السنوسية المعنوية التي لم تزود بالاسلحة الحديثة . والتاريخ يبين أن للأسلحة دوراً كبيراً في رجحان الكفة في معاركه . وهذا هو أحد أسباب رجحان كفة أوربا في المعارك التي خاضتها ضد عالمنا الإسلامي طوال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين بالرغم عن كل البطولات والمقاومة العنيفة التي أبدتهــا الشعوب . ولقد حاولت السنوسية تأمين جانب العدة والقوى المادية فجهزت اتباعها بالبنادق وعملت على شراء الاسلحة ، كما يبدو من إحدى رسائل المهدي أنه حاول استخراج البارود من بعض مناطق الصحراء ، ولكن التقدم العلمي يحتاج وقتاً أطول وجهوداً أعظم ، لذلــك بقيت اسلحة السنوسية المادية بدائية إذا قيست بأسلحة الغرب .

كلمة ختــــامية

وبعد .. فإنه يمكننا من دراسة هذه الحركة أن نـــلاحظ نجاحها في تحقيق عدة أمور :

١ – نجحت في إصـــلاح المجتمع البدوي بأن حولت الافراد إلى العمل والانتاج وبثت في نفوسهم عقيدة دينية نظمت تصرفاتهم ووجهتها إلى طريق البنـــاء . فتكون في الصحراء مجتمع متعاون متكافل تسوده روح الاخوة والســـلام .

٢ – ونجحت في اقامة سلطة تمسك بزمام جميع الامور وتشرف على الفرد والمجتمع وتعمل على تحقيق اهداف الحركة . ولم تفرض هذه السلطة نفسهــــا بالقوة على الافراد وانما تبعوها راضين من انفسهم لأنها نبعت من ايمانهم بها .

٣ — ونجحت في القيام بنشر الاسلام بين القبائل الوثنية ، ومد يـد العون لها ، واتبعت في اخذها بيد تلك الشعوب البـدائية أحسن الاساليب إنسانية .

كما تميزت بأنها حركة سلمية شعارها الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وبأنها حركة علمية ، جددت في الإسلام وفتحت باب الاجتهاد وخلصت الصوفية من الشوائب التي علقت بها ، وعملت على نشر العلم والكتاب . ومع ذلك فإن بعض رواسب عصور الانحطاط دخلت فيها من الجو المحيط ، فلم يتيسر لها أن تعطي الاهتمام الكافي للعلوم العلمية ولم تحدث تغييراً جذرياً في اسـاليب التفكير التي تميزت بها عصور الانحطاط .

قائمة بأسماء الزوايا السنوسية

ذكرنا في أول الفصل السادس مـــا قاله مؤرخو السنوسية عن عدد الزوايا السنوسية ، ورأينا من المناسب أن نحاول إعداد قائمة بأسمائها وحصر عددها بدقة . فعدنا إلى القوائم التي أعدها بعض المؤرخين ، وإلى الكتب التي وردت فيها اسماء بعض الزوايا فخرجنا بالقائمة المدرجة هنا .

والقوائم التي اعتمدنا عليها ثلاث – وليس هناك أحدث منها – وهي قائمة أرسلان في المجلد الثاني من حاضر العالم الاسلامي ويذكر فيها أرسلان أسماء مئة واثنتين وثلاثين زاوية يضاف إليها ست زوايا في تونس لا يذكر إلا اسم واحدة منها وهي الجريـد ، وزاوية مستغانم في الجزائر ، ثم يقول بوجود زوايا في الحبشة والصومال واريتريا لا يعرف اسماءها . وقائمة بريتشارد في كتابه عن ابن السنوسي ، وهي تحتوي على اسماء مئة وست وأربعين زاوية موزعة بين الجزيرة العربية ومصر وبرقة وطرابلس وفزان والسودان الافريقي . وقد عين بريتشارد مواضعها . وقائمة الأشهب في كتابه « السنوسي الكبير » وفيهـــا أسماء مئة وسبع زوايا ، اثنتان وخمسون منها بنيت في عهد ابن السنوسي – حسب ما يقول – والباقي في عهد المهدي .

أما الكتب الاخرى التي بحثنـــا فيها على اسماء زوايا أخرى فأهمها كتاب احمـــد الشريف « الدر الفريد الوهاج » الذي يذكر فيه اسماء الزوايا التي مر منها عمه في رحلته من الجغبوب إلى التاج . وكتاب الصادق المؤيد الذي يذكر فيه اسماء عدد من زوايا الحجاز .

وسندرج فيما يلي اسماء الزوايا وفي أية قائمة ذكر كل اسم ، رامزين لارسلان بحرف « س » ولبريتشارد بحرف « ب » وللأشهب بحرف « ش ». أما تلك التي انفرد بذكرها الصادق المؤيد فنرمز لإسمه امـامها بحرف « ص »، والتي انفرد بذكرها احمد الشريف نرمز لاسمه بحرف « أ » .

برقــــة

١ البيضاء «س.ب.ش»	٢ مارة «س.ب ش»	٣ درنـــة «س.ب.ش»
٤ قفنطة «س.ب.ش»	٥ شحات«س.ب.ش»	٦ العرقوب «س.ب.ش»
٧ مسوس «س.ب ش»	٨ الطيلمون«س.ب.ش»	٩ القصور «س.ب.ش»
١٠ المرج «س.ب.ش»	١١ بني‌غازي«س.ب.ش»	١٢ الحسنية «س.ب.ش»
١٣ الحمامة «س.ب.ش»	١٤ خشم رزيق «ب.ش»	١٥ ميرادمسعود«س‌ب‌ش»
١٦ مرطوبة«س.ب.ش»	١٧ أم‌شخنب«س.ب.ش»	١٨ الجغبوب «س.ب.ش»
١٩ أم الجرفان «ب.ش»	٢٠ أم حفين«ب.ش»	٢١ حجزة «ب.ش.»
٢٢ طلميثة «س.ب.ش»	٢٣ توكره «س.ب.ش»	٢٤ أم ركبة«س.ب.ش»
٢٥ الغايدية«س.ب.ش»	٢٦ ترت «س.ب.ش»	٢٧ أم الرزم «س.ب.ش»
٢٨ أسقفة «س.ب.ش»	٢٩ القطيفة «س.ب.ش»	٣٠ النيان «س.ب.ش»
٣١ مرادة «ب.ش.»	٣٢ المرازيق «ب.ش»	٣٣ قرى بربى «ب.ش»
٣٤ دريانة «ب.ش.»	٣٥ العزيات س.ب.ش»	٣٦ المخيلة «س.ب.ش»
٣٧ دفنة «س.ش.»	٣٨ جــدابية «س.»	٣٩ اوجـلة «ب.س.»
٤٠ جــالو «س.ش»	٤١ اللبـــة «ب.س.»	٤٢ بشـارة «ب.س.»
٤٣ القصرين «س.»	٤٤ عنب الحويز «ب.»	٤٥ العـــرق «ب.»
٤٦ الخـــط «ب.»	٤٧ جــنزور «ب.»	٤٨ المرصص «ب.س.»
٤٩ سيدي الغرياني «س.»	٥٠ محمدبن قاس «س.»	٥١ كرســا «س.»
٥٢ الاثرون «س.»	٥٣ عائلة دغار «س.»	٥٤ برسس «س.»

٥٥ نقــا « س. » ٥٦ العوينــة «س.» ٥٧ الحــامدية « س. »
٥٨ الاخصاب « أ. »

طرابلس

١ غدامس	٢ الحرابة	٣ الرجبان	٤ مــزده
٥ طرابلس	٦ مسلاته	٧ مصراته	٨ مصراتــه
٩ سرت	١٠ سيناون	١١ درج	١٢ بني وليـد
١٣ النوفلية	١٤ طبقـة	١٥ سوكنة	١٦ هون
١٧ ودان	١٨ زلــة	١٩ القلعة	٢٠ زليطن

فزان والكفرة

١ تازربو	٢ ربيانة	٣ الهواري	٤ التــاج
٥ الجوف	٦ مرزق	٧ واد	٨ زويلـة
٩ غات	١٠ القطرون	١١ بزيمــة	١٢ سبهــا
١٣ الفروقة	١٤ برقين	١٥ غدوة	١٦ أم الارانب
١٧ تمسة	١٨ داو الناموس	١٩ قانت	

الجزيرة العربية

١ أبي قبيس	٢ المدينة	٣ جدة	٤ الطائف

٥ الجديدة	٦ بدر	٧ ينبع البحر	٨ ينبع الوجه
٩ الحمراء	١٠ الصفراء	١١ رابغ	١٢ صبح
١٣ العيص	١٤ منى	١٥ الحسينية	١٦ السريانية
١٧ الفارعة	١٨ الودنه	١٩ زيبة	٢٠ رباح
٢١ وادي فاطمة	٢٢ المضيق	٢٣ اصفان	٢٤ اياس
٢٥ عباس			

مصر

١ سيوة	٢ الزيتون	٣ الواحات البحرية	٤ الداخلة
٥ حوش عيسى	٦ الفيوم	٧ أم الرخم	٨ النجيلة
٩ الحقنة	١٠ القصر الواحات	١١ منديشة الواحات	١٢ الفرافرة
١٣ القلمون	١٤ شماس	١٥ المشان	١٦ براني
١٧ فوكة	١٨ اقرمي	١٩ السبوخ	٢٠ الأخشاب
٢١ بكوش	٢٢ عيلة بن موسى	٢٣ العوامة	٢٤ الجماعة
٢٥ ابو شنينة	٢٦ الحمام	٢٧ سيدي موسى	٢٨ الغيط
٢٩ القارة	٣٠ غارمي	٣١ الغربية	٣٢ طبيع
٣٣ الباويتي	٣٤ الرشدة	٣٥ بالات	٣٦ اسمانت
٣٧ الزينية	٣٨ سيدي الريس	٣٩ بهيج	٤٠ جبيل
٤١ قريوه	٤٢ علي بن مورد	٤٣ سيدي يادم الابيرش	٤٤ سيديعبدالعاطي
٤٥ عليم الجلول	٤٦ سيدي عمران بن ابراهيم	٤٧ القاهرة .	

السودان الافريقي

١	الوجنقة الكبرى	٢	الوجنقة الصغرى	٣	علالي كانم	٤	قرو
٥	كنو	٦	الغاشر	٧	عين كلك	٨	البرقوات
٩	زندر	١٠	يرضى	١١	قانت	١٢	ون
١٣	بارادي	١٤	فايا	١٥	جبل مراح	١٦	عبيش
١٧	جاجدونا						

تونس

١	الجريد	٢	وخمس زوايا أخرى « س. »

مَـلاحِق

(١)

إلى الزاوية البيضاء ويسلم إلى ولدنا الأجل مصطفى ابن عبد الوهاب المحجوب سلمه الله آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من عبد ربه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الادريسي إلى ولدنا الأبر وصفينا الأنور ولدنا الشيخ مصطفى ابن عبد الوهاب المحجوب سلمه الله آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فلا يخفاكم أن ولدنا الشيخ محمد بن أحمد وجهناه على درنا بنية الحج ولا بد من شارب بالحجاز يقوم بأمرها وها هو الواصل لكم ولدنا الشيخ عمران بن بركة فأنتم بمجرد وصوله اليكم اسلموه جميع ما بالزاوية البيضاء من جليل وحقير ولا تخفوا عنه شيئاً واعتمدوا جميع ما يقوله لكم لأنه هو النايب الآن بذاك الطرف لأن ولدنا الشيخ محمد بن احمد متوجه للحج وأنتم نازلون لدرنا لتوديعه وتوصيل ما طلبه من الحوايج والزاد اللازم ودمتم بخير والسلام .

بتاريخ ٣ جمادى أول ١٢٧١

الختم

فيض الفتح القدوسي

محمد بن السيد علي السنوسي

(٢)

إنه من عبد ربه محمـــد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي إلى ولدنا الأبر وصفينا الأنور مصطفى المحجوب .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد :

فقد وصلنا كتابكم أنكم تتوجهون الينا وعمدنا ولدنا الحاج علي العجيل يبقى بدلكم بالزاوية وفكرتم انكم حرثتم ما فيه النصيب وأن تلك الجهات رجاع نسأل الله أن يتمم بالخير على أمة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم إن قدومكم الآن إذا رأيتم يتوقف عليه أشياء من أمر الزاوية كتعطيل البناء أو التفريط في بعض مزارعكم أو سعيكم أو غير ذلك فاصبروا حتى يقدم علينا ولدنا الشيخ عمر الأشهب ويرجع ثم تقدمون انتم لأنه إذا كان موجوداً بتلك الناحية احدكم افضل من مجيئكم دفعة واحدة حيث كان يترتب على ذلك شيء ، وأما إذا لم يكن عندكم ما يشغلكم وسركم فارغ من جهة الزاوية وما يتعلق بهـا فأقدموا الينا ودمتم ودامت لكم السعادة والفوز بالحسنى وزيادة. هذا وسلموا منا على كافة الاخوان والمحبين ومن عندنا يسلم عليكم جميـع الاخوان والمحبين والسلام .

بتاريخ غرة شعبان ١٢٧٥

الختم

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

إنه من عبد ربه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الادريسي إلى ولده الأفضل والأعز الاكمل القدوة الأمثل غاية الوداد ونهاية الكمال والسداد مصطفى ابن عبد الوهاب المحجوب، جعله الله في جميـع أموره محبوب .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فقد وصلنا كتابكم وفهمنا مـا فيه خطابكم أوصلكم الله إلى رضاه الأكبر وأسبل عليكم ستره الأوفر والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد بالقول والعمـل والتخلي عن التواني والكسل وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيد الناس ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى التوصية فـيما هو بين يديه ، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعياً قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . » هذا وسلامنا يشمل من بطرفكم من المحبين ومن عنـدنا سلم جميع الاخوان والمحبين وسلام السلام يعمكم في البدء والختام .

حرر يوم محرم فاتح ١٢٧٦

الختم

ملحق خير : وما ذكرتموه من أمر سكنى ولدنا الحاج علي العجيل فالأمر في ذلك على التيسير وما يقتضيه نظر الاخوان . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب ودمتم بخير . فانظروا في ذلك بما يصلح للجميع ودمتم بخير . وقد قدم ولدنا الشريف من الحجاز صحبة ولدنا حامد وكان وصولهم الينـا في التاسع والعشرين من الحجة سالمين مسرورين فلله الحمد رب العالمين .

(٤)

يصل إن شاء الله إلى زاوية الطيلمون ويسلم لأخينا الشيخ مصطفى المحجوب سلمه الله آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهـــدي ابن السيد محمد السنوسي الخطابي الحسني الادريسي إلى الأجل الأبر الأمثل الأنور أخينا الشيخ مصطفى المحجوب أناله الله المرغوب ويسر له ما يربو على المطلوب آمين ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فقد وصلنا كتابكم وقـــام عندنا مقام ذاتكم فحمدنا الله على سلامتكم وعافيتكم أوصلكم الله إلى رضاه الأبدي وعزه الدائم السرمدي وجميـع ما ذكرتموه صار في علمنا والحوايج المرسلة من طرفكم وصلتنا حسبما ذكرتموه جزاكم الله خيراً وأعانكم على طاعته . وقد علمتم ما نحن عليه وكثرة الاخوان والمتعلقين في هـذه الزاوية فـما يكفينا معهم إلا اعانة الله تعالى واعانتكم انتم وغيركم من الاخوان بمثل ما ارسلتموه جزاكم الله خيراً ومنحكم لديه ذخراً ومن جهة الوحدة قد كنا وجهنا اليكم ابن عمكم أخانا عبد الله ان شـاء الله يكون وصلكم وييسر الله بحوله وقوته غيره. غير أنكم اجملوا الخير في بعضكم بعضاً وأحسنوا العشرة مع الاخوان ولينوا لهـم الجانب والله يتولانا واياكم برعايته وحفظه ونحن وكافة من بهـذا الطرف من الاخوان على مـا تعهدون ومـا تجدوا عندنا ما يجب رفعه اليكم سوى الخير وانتم فيه ودمتم محفوظين وبعين العناية ملحوظين هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بجاه سيد الأولين والآخرين وسلموا منا على من بطرفكم من الاخوان ومن عندنا مسلم عليكم أخونا السيد محمد الشريف وكافة الاخوان والمحبين والسلام .

٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٤

الختم

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من عبد ربه محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي بن السنوسي الخطابي الحسني الادريسي إلى عمدة الأفاضل ونخبة الأجلاء الأماثل وسنى الاخلاق والشيم أخينا الشيخ مصطفى المحجوب لا زال في حفظ علام الغيوب بالغاً من الخيرات كل مطلوب آمين .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فإنه قد وصل الينا كتابكم وجمعنا ما تضمنه في خطابكم فحمدنا الله عز وجل على سلامتكم وعافيتكم أوصلكم الله إلى رضوانه الأسنى ووالى عليكم نفحات بره الحسنى آمين . وإن سألتم عنا وعن الاخوان الذين بهذا الطرف فالجميع ولله الحمد في أرغد عيش وأنعم بال المرجو من الله أن تكونوا كذلك إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير . وقد وصلت الينا أيضاً القافلة التي قدمت منكم وجميع ما معها ومن معها على أحسن حال جزاكم الله خيراً واحساناً وأنالكم فضلاً منه ورضواناً . والاخوان الذين كانوا في الحجاز إلى الآن بمحروسة مصر ولنا مدة ما بلغنا عنهم خبر . ربنا سبحانه وتعالى يسمعنا عنكم وعنهم ما يسرنا ويجمعنا بكم وبهم في أبرك الاوقات واشرف الساعات بحرمة صاحب المعجزات صلى الله عليه وسلم ، ولا زلنا داعين لكم بصالح الدعوات في الخلوات والجلوات واوقات الاجابات وعلى الله القبول إنه أكرم مسؤول . وبلغوا منا السلام إلى جميع الاخوان والمحبين ومن عندنا مسلم عليكم صنونا السيد محمد الشريف وجميع الاخوان والمحبين والسلام .

بتاريخ ١٥ صفر ١٢٩٤
الختم

(٦)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي ابن السيد محمد السنوسي الخطابي الحسني الادريسي إلى الأجل الفاضل العمدة الكامل علي الهمم ورفيع الاخلاق والشيم أخينا الشيخ مصطفى المحجوب بلغه الله من الخيرات كل مطلوب آمين .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فإنه قد وصل الينا كتابكم وكل ما ذكرتم فيه صار في علمنا وحمدنا الله عزوجل على سلامتكم وعافيتكم أوصلكم الله إلى تمام الرضوان وغمركم بفيض الامتنان وإن سألتم عنا فنحن وجميع من بالطرف من الاخوان بخير وعافية ونعم متوالية المرجو من الله ان لا تزالوا كذلك انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير. واحوال الطرق سارة . ولم يحدث عندنا ما يجب اعلامكم به سوى الخير والعافية أدامهما الله على الجميع بحرمة النبي الشفيع صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم . والذي أرسلتموه وصل على التمام والكمال جزاكم الله خيراً . ربنا تبارك وتعالى يكون في عونكم ويحفظكم ويرعاكم ويكون لكم ولياً ونصيراً ولا زلنا داعين لكم بصالح الدعوات ورفع الدرجات وتتابع النعم والخيرات في سائر الاوقات وعلى الله القبول انه خير مأمول وأكرم مسؤول وبلغوا منا السلام إلى جميع الاخوان والمحبين ومن عندنا مسلم عليكم صنونا السيد محمـــد الشريف وكافة الاخوان والمحبين والسلام .

تاريخ ١٤ ربيع ثاني ١٢٩٥
الختم

---

١ – هذه الرسائل من مجموعة الشيخ منصور المحجوب التي تحتوي على أكثر من مائة رسالة. ونكتفي نحن بنشر ثلاثة من رسائل ابن السنوسي وثلاثة أخرى من رسائل المهدي لأخذ فكرة عن تلك الرسائل .

(٧)

خطاب سيدي محمد بن عبد الله الشريف الكائن بأرض الشعامبة إلى مـــدير غدامس الحاج مومى آغا بتاريخ ٦ جمادى الثاني ١٢٦٨ .

من محمد بن عبدالله إلى الفـــاضل الورع الحليم البدر الكامل مدير غدامس سيدي الحاج مومى آغا .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ،

فقد وصلنا كتابكم وقرأناه وفهمنـا ما فيه على شان الشعانبة يحملوا الخير مع التوارق فجزاكم الله خيراً بأحسن الجزاء ، فهذا فعل أهل الفضل والخير باهتمامكم لعافية المسلمين فالله يكون بكم وعلى يديكم إن شاء الله . وأمـــا أنا عبدالله حين قدمت إلى بلاد وارقلة ففتح الله علينا بهـــا وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها . سبحان من حكّم الضعيف في القوي وصار القوي من عباده مخذولاً مذموماً لكن من بركة الشريف شيخنـا سيدي محمد السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإياكم به آمين . وصـــاروا عربان وارقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهرة وقصور بني مصـــاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنـــا ، والمجاهدين كل يوم في الزيادة . وأخذنا كثيراً من أموال العرب المتنصرة والحمد لله على نصره الدين وظهور شريعة سيـد المرسلين . فالله يدوم علينا وعليكم هذه البركة والفضل دُنياً وآخرة إن شاء الله . وبعث لنا الرومي دمره الله في هذه الساعة ثلاثة أمحل ، محلة من بلاد العمور ومحلة من بلاد الاغواط ومحلة من جهة النوايل تلاقينـــا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً . وأعلننا على أعدائه ووقع القتال بيننـــا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثةماية وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك وبركة الشيخ معنا .

ذكرت لنا أن نبعث لكم كبار الشعامبة وكتبت بالأمان فها هم أكابرهم بعثناهم لكم في الأمان ويرجعون في الأمـان إن شاء الله وأنت قف مع الجميع واجعل بينهم الصلح والعافية التامة والله يوفقنا وإياكم للصواب إن شاء الله وكلما جاءكم من الشعانبة فأنا الملوم به إن طول الله في عمرنا والرقـاص (أي ساعي البريد) الذي بعثه لنا وصل عندنا يوم خمسة أيام من جمادى الأولى عـام ثمانية وستين ومائتين وألف .

هذا مقتضى جوابه ممهور بختمه
في ٦ جمادى الثاني ١٢٦٨

نقلا عن سجل رقم « ح » /٣/ ٥١٠ ، صفحة ٢٠٩ في قسم مخابرة الولاة مع المتصرفين .

(٨)

رسالة من والي طرابلس كمال باشا بتاريخ ٨ ربيع الآخر ١٢٨٧ رقم ٢١ إلى وزارة الداخلية في استانبول .

بعد البرقية التي أرسلتها لكم حول استدعاء حامد أفنـدي الذي عينتموه مفتشاً على الزوايا السنوسية ببرقة والتي بينت لكم فيها أن إقامته غير مرغوب فيها ورجوتكم سحبه برقياً، تسلمت برقيتكم بالشفرة التي بينتم فيها أن الزاوية الكبيرة مجعولة على شكل ثكنة واستحكامات ، وأن أكثر من ثلاثمائة عبـد متعلم يصنعون البارود والأسلحة ويخزنونها ، وأن أعمالاً كهذه قد تسبب لنا مشكلات في المستقبل .

والحال هو أن في هذه الزوايا تلاوة القرآن وأصول الدين وباقي العلوم التي يتلاقاها الطلاب. وقد ظهرت فائدة هذه الزوايا في تحويل عربان البادية الذين هم كالبهائم إلى ناس وبني آدميين عرفوا شرف الدين والدنيـا . وهم يعلموهم أصول المذهب والشريعة والإطاعة لأولي الأمر وبهذا خدموا الانسانية والاسلام . وهم

على أتم ورع وصلاح وليس لهم ما يغـــاير الشريعة ، وليس لهم أطوار مخالفة للتابعية للخلافة .

أما أن الزوايا مجعولة على شكل استحكامات وأن الزاوية الرئيسية يصنع فيها البارود فهذا كله كذب وافتراء لأنها في الحقيقة دار علم وصلاح ، ولا يتوقع أن يجعل فيها شيء من هذا في المستقبل . وهؤلاء العلماء لا يمكن أن ينسب لهم ما قلتموه لأنهم نادروا الوجود ومثال العلم وعملهم نشر العلم .

أما حامد أفندي فهو غير مقتدر وقد أثار العلماء ، وهو يسكن بنغازي التي تبعد ثمانية أيام عن الزاوية الكبرى . ووجوده في بنغازي يأخذ المعاش دونمـا عمل كل هذا فيه مضرة وبدون فائدة ، ومضرته في جعل الناس يتساءلون عن سبب تعيين الحكومة مفتشاً عليهم فيتشوش بالهم . لذلك اسحبوا حامد افندي برقياً .

(٩)

رسالة من والي طرابلس أحمد راسم إلى محمد المهدي بتاريخ ١٧ صفر ١٣٠٣ .

خلاصة السالكين وسند الواصلين وواسطة عقدأهل اليقين والمتمسك بشرعة سيد المرسلين عين الأعيـــان واستاذ أهل الحقيقة والعرفان الهمام الفاضل الجهبذ الكامل الشيخ السيد محمد المهدي السنوسي حفظ الله مقامه وسرمد احترامــه .

أما بعد ،

تحية بعالي مقامكم تليق ممزوجة من كرم إعراقكم بمسك عبيق تتهـادى في حلل الاجلال وتحمل على كاهل التعظيم باحتفــال ، فإنه وصل سمع المخلص أن حضرتكم الكريمة خاطبتم أتباع السوداني أرباب القيـام بمصر بأن الدولة العلية جعل الله مهابتها سرمدية ترسل من لدنهـــا لمصر مأموراً مخصوصاً ونصحتموهم حسب الواجب المنصوص في ترك الهرج والمخاصمات واجتناب هاتيك الحركات ، وأن ذلك المكتوب أدرج في الجرايد المصرية فلم تترجح لدينا صحة هذا الخبر من

عدمها ، وإنما يرجح احتمال وقوعه من كمال محبتكم وصادق اخلاصكم في حضره أمير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين ولي نعمتنا بلا امتنان ذي الشوكة والقـدرة وعلو الشان سلطاننا الأعظم والخاقان الأفخم ودعاء ذات فضيلتكم كل حين على ما هو المحقق اليقين بأن يسرمد المولى أيامه ببواسم الثغر وأعلامـه خافقة بالنصر وازدياد شوكته وتأييد سطوته واعتلاء كلمته فلهذا استعلمنا من طرفكم السامي رجاء التعريف بالواقع وأدام الله لكم السعادة والحسنى وزيادة .

(١٠)

رسالة من أحد الاخوة السنوسيين اسمه محمد الأسمع إلى أحد علماء طرابلس .

بسم الله الرحمن الرحيم

فدوتلو أفندي

بعد تقبيل أكفكم الكرام وما يليق بسام المقام من واجب التحية والاعظام وأذكى عواطر السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يليه الخير إعلامكم السؤال عنكم وعن أحوالكم كفاكم الله تعالى شر عدايكم وبلغكم في كل المطالب آمالكم .

هذا وإنه ورد إلى العبد جملة كتب من حضرة الاستاذ الأعظم والملاذ المفخم السيد محمد بن السنوسي رضي الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا وإياكم به وبأسراره عند الله . ومن جملة الكتب واحد من حضرة والي إيالة طرابلس دولتلو عزات باشا وكتاب باسمكم وكتاب إلى الشيخ سيدي محمد الطاهر الغدامسي وكتب إلى الاخوان . نرجوكم تبلغوا إلى كل كتابه لتحصل إلى الجميع الإنابة وأيضاً نخبركم أنه فيه محل ببرقة يقال له جدابية قصرين معلومات والعرب الذي بجوار ذلك هم المغاربة وزوية راغبين في الاستاذ أن ينشىء لهم زاوية هناك وكتبوا حجج في إعطاء تلك الأرض ومهدوا كل المشايخ وأرسلوا بهم أحد مخصوص إلى حضرات جنابه رضي الله عنـه فحيث علم رغبتهم في الزاوية أجابهم لذلك ليحصل بذلك

الخير إليهم وإلى كافة أمة الرسول وأخبرنا بذلك حضرة قائمقام الوقت محمد زكي باشا وصدر منه بيوورولدي في ذلك سهل الله عليه كل المسالك . وأراد الاستاذ تجديد البيورلدي من قائمقام شوقي وأرسل لنا البيورلدي ليكون منه بيورلدي على نمط ذلك وجئنـــا له البيورلدي ومسكه وبقي يعمل بذلك إلى أن قامت قيامته ولم صار منه شيء وأخذنا البيورلدي الأول منه وها هو تحت أيدينا .

فالمطلوب منكم سيدي تكلم حضرة الوالي المشار إليه في صدور بيورلدي في الزاوية المذكورة وبعدم التعدي عليها وعلى من بها من المهاجرين لتنالوا بذلك من الله العز والتمكين وكاتبناكم على ذلك دون كل أحد لما أخبرنا عنكم أخينا محمد أفندي بن صالح بطيب نفوسكم وحسن خلوصكم فاتفق رأي الاخوان بالمكاتبة إليكم ليكون صدوره على يديكم لتنالوا بذلك العز الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران ولا يحول حول حماه حرمان وقد ذكرنا إلى حضرة السيد بذلك ليكون إليكم بصدور البيورلدي من حضرة الوالي وكما أنه لم يقصر في حاجة الاستاذ جزاه الله وجزاكم خيراً وهذا ما لزم إفادته إلى رفيع جنابكم ونرجوكم سرعة ذلك والسلام .

خادم أهل الحضرة المحمدية

في ١٥ محرم ١٢٧٦ **محمد الأسمع**

(١١)

رسالة من محمد المهدي إلى سليمان نامق .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي إلى من ابتهجت بسنى سيرته حظوظ الرعية وانتهجت بسرى سريرته مناهج الحقوق المرعية سعدت به وسعد به هـذا الدهر وتبلج به الحق فأضحى وهو كفرة الفخم حتى حرسه الله هذه الايالة حماية الغنضفر الضـــاري

أشباله فتباعد عنه كل ذي دسيسة للاسلام وتقاعد عن دخولها كل دخيل مضر للأنام فاستوجبت الدولة العلية بذلك مزيد الشكر إذ أبرزت لرعيتها هذا الذخر وأي ذخر فهو الكافي الفائق محبنا الوافي سليمان نامق أطـــال الله لياليه البيض وأيامه السعيدة ورقاه في الكمالات والرتب الفريدة السلام اللائق بذلك المقـام الذي خيم به الفضل وأقام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته وبعد ،

فقد وصل المشرف الكريم وحصل به السرور العظيم وحمدنا الله على سلامة الذات الكريمة التي لا تزال منعمة باللذات الجسيمة ومن أجلهـــا القرب من الإله والمحافظة على ما وصى به من قوله « ولقد وصى الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وقول من أرسله إلى بريته « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ونحن من كونكم كذلك على ثقة ويقين ولكن قـال عز من قائل « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ولا زلنا رافعين أكف الضراعة والابتهال إلى مجيب الدعوات الكبير المتعـال أن ينصر مولانا السلطان على أعدائه ويجعل الظفر مقروناً بجنوده وأوليائه ويعلي به كلمة التوحيد ويديم مدته ومودته على التأبيد . ثم ما أومأت إليه السيادة وأرادت عنه الافادة فقد بلغنا الخبر بإتيان واحـد إلى سيوة ورجع ولم ينل الوطر وإن تبين غير هذا فالوثوق بالرب الرحيم فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . هذا وسلام السلام يخصكم ويعمّ اللائذين في البدء والختام . حرر في ١٨ ذي الحجة ١٣١٢

الختم

(١٢)

رسالة من وكيل مدير ساحة القطرون إلى حضرة متصرف لواء فزان .

معروض شاكر فضلكم أن يوم التاريخ قدموا لطرفنا الذين هم المرابط الطيب وبعيته إحدى عشر إنسان من أناس القطرون منهم أحمـد كريو وخدام السيد السنوسي وبعد السؤال إليهم عن أخباريات القبلة أفادوا بأن وقعت معركة

بجهة كانم فيما بين الاسلام وأعداء الله الكفار وقتل من المسلمين أناس كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله الواحد القهار وصارت الهزيمة على الاسلام . وزاوية السيد الذي بكانم ملكوها المشركين والآن ماكثين بها . وعظم لكم الأجر في السيد المهدي صار لعفو الله وسعة رحمته الواسعة كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه الحي الذي لا يموت . والآن المقدم على الاخوان ابن أخيه سيدي أحمد الشريف وجهة وادای صائرة فتنة فيما بين الاسلام مع بعضهم بعضاً والكفار يريد أخذهـا الفريقين الفرانسة والانكليز . أما جهة برنوح حسب المسموع أنها عافية وربنا سبحانه وتعالى يهدي الأسرار ويهلك ويدمر جميع الكفار ويقوي عصبة الاسلام وينصرهم على هؤلاء اللئام .

١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٢١

(١٣)

من ولاية طرابلس إلى ولاية بنغازي .

وردنا سؤال من قنصل الانكليز حول خمسة آلاف من أتباع السنوسي داخلين مصر لمعاونة عرابي باشا ، وردنا عليه أنهم حجاج . وحسب معلومكم أن سفر خمسه آلاف ذاهبين للحجة من العربان ليس متوقعاً وقد تكون لهم نية أخرى غير الحج فنيتهم الخفية معاونة عرابي ، وليس للدولة العلية دخل في هذا . ولكن حيث أنهم خارجين من الولاية العثمانية لذلك زودنا بالأخبار لأن الأجانب يعتبرون الأمر تحريك منها . وهذه الاشاعات تعود على الدولة ببعض المتاعب . فإذا صح أن للعربان هذه النية فإننا نعلم أن شيخهم السنوسي لا يوافقهم على هذا . وقد أصدرنا التأمينات للقنصل لكي يطمئن . ولكي يقتنع تماماً فإن عليك سريعاً وعاجلا أن تعلمنا بالواقع بعد التحقيق .

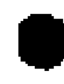
تاريخ ١٢ شوال ١٢٩٩

صورة البيورلدي العالي في حق السيد محمد المهدي السنوسي .
وهو من والي الولاية حالت باشا إلى متصرف الجبل قاسم باشا .

مفتخر الأمراء الكرام ... متصرف لواء الجبل ذو السعادة قاسم باشا دام إقباله والقائم مقامين وأعضاء المجلس زيد قدر الجميع . وبعد :

فإن الشيخ العالم العامل العمدة الثقة الفاضل المحقق ... السيد الحاج بلقاسم افف العيساوي دام موقراً مرعياً ، بيده أوامر من أسلافنا الوزراء العظام تشعر بكونه أتى بفرمان عالي الشان في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه لما تحقق من حسن سيرته وخلاص طريقته وسريرته وعلمه وفضله وسلوكه مسلك استاذه ذي الهداية والارشاد موصل السالكين لإدراك المراد ، صاحب المقــــام الأنور الباهر ، والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار عين أعيان الأخيار السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي ، أفاض الله بحر أنواره بالأمداد . كما تشعر بأنه أسس زاوية بقرية أولاد عطية « رجبان » باسم استاذه المشار إليه قاصداً بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الاستاذ ليعمّ النفع والارشاد . كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين رفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه والنظر إليه بعين الكمال والوقار والاجلال. ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة لتحصيل العلوم وسلوك تلك الطريقة المأثورة وعدم التعدي على الزوّار الوافدين عليهـــا بقصد التماس البركات دايم الأوقات . واجراؤه هو ووالده وأخوته على ما هم عليه وأن لا يقاصون بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية . وتحرير على أحــــد تلك الأوامر الملفات بيده دركنـــا من محاسبة الولاية لدى الحوالة أشعر بجريان العفو عنه في جميع المرتبـــات الميرية والأعشار الشرعية . وأن لا يطالب بميري ولا أعشار حسب ما تضمنه الدركنا مع فريد الاحترام وكمال العظيم لميره والاكرام والتوقير

والاجلال على الدوام . وعدم التعـــدي على جنابه الرفيع وعلى تلامذته وسائر الفقراء السنوسية بسوء ولا مكروه من سائر الوجوه آملاً أن يستمر على ما كان عليه من الارشاد والتعليم ويداوم على الدعوات الخيرية للحضرة الشاهانية عقب الصلوات والدروس والأذكار آناء الليل وأطراف النهار . ولما يكون معلومك أمر ما ذكر أيها المتصرف المومأ إليه اجعل همك تكون أقوى بعض على هــذا المقصود الخيري ولأجل الإعلان والإجراء صدر هذا البيورلدي من ديوان ولاية طرابلس غرب في ٣ جمادى الأولى ١٢٨٧ .



مصادر البحث

ا – الوثائق :

مجموعة مراسلات ولاة طرابلس الغرب : دار المحفوظات التاريخية بولاية طرابلس ، ملف السنوسية .

ب – أحاديث ورسائل خاصة :

حديث من ملك ليبيا إدريس الأول .

مجموعة رسائل من ابن السنوسي والمهدي إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب وهي بحوزة الشيخ منصور المحجوب .

ج – مراجع عربية وتركية :

أحمد الشريف السنوسي : الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج ، مخطوط .

أحمد الشريف السنوسي : الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر ، مخطوط . والكتابان في مخطوط واحد .

أحمد الشريف السنوسي : الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية . استانبول ، مطبعة عامرة سنة ١٣٣٩–١٣٤٢ .

أحمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب . منشورات مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا .
أبو العباس الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٦ .
أحمد أمين : المهدي والمهدوية ، سلسلة إقرأ .
أحمد حسنين : في صحراء ليبيا .
إبراهيم فوزي : السودان بين يدي غوردن وكتشنر . الجزء الأول ١٣١٩ هـ .
اللجنة العليا لإحياء الذكرى : الإمام محمد بن علي السنوسي في ذكراه المئويه ،
المئوية لوفاة ابن السنوسي : المطبعة الحكومية لولاية طرابلس ١٩٥٦م .
أحمد حلمي شهبندر زاده : (تركي) تاريخ إسلام ، جزءان . استانبول ١٣٢٦ — ١٣٢٧ .
بطرس البستاني : دائرة المعارف ، المجلد العاشر ، مطبعة الهلال بمصر ١٨٩٨ .
ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية .
صادق المؤيد العظم : (تركي) سياحتي في صحراء افريقيا الكبرى ، استانبول ، عالم مطبعه سي ١٣١٤ .
ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية .
عبدالمتعال الصعيدي : المجددون في الاسلام . مكتبة الآداب بالجماميز ، المطبعة النموذجية .
عجاج نويهض : حاضر العالم الاسلامي . تأليف لوثروب ستودارد، تعليق شكيب أرسلان القاهرة ١٣٥٢ ، مكتبة البابي الحلبي .
علي مصطفى المصراتي : غومة ، منشورات مكتبة الفرجاني .

محمد بن علي السنوسي : المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة الراصد
وبهامشه السلسبيل المعين في الطرائق الاربعين
القاهرة ١٣٥٣
محمد بن علي السنوسي : أيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن
القاهرة ١٣٥٧
« « « « : المنهل الروي الرائق في أسانيد العلم واصول الطرائق
القاهرة ١٣٧٣ — ١٩٥٤
« « « « : الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية
القاهرة ١٣٤٩
« « « « : المسلسلات العشر في الاحاديث النبوية
١٣٥٧ - ١٩٣٨
« « « « : مقدمة موطأ الإمام مالك
١٣٧٤ — ١٩٥٤
محمد البهي : محاضرات في الفكر الاسلامي في مرحلته الثانية
المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٥٧
محمد عبد الهادي شعيرة : بحث سيرة السنوسي الكبير
نشر بمجلة كلية الآداب — الجامعة الليبية
بنغازي ١٩٥٨
محمد عليش : فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك
الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ .
محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية
الطبعة الثانية ١٨٩٦
محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة
دار الفكر العربي ١٩٤٨
مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ العربي

		الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
محمد الطيب الأشهب	:	السنوسي الكبير مكتبة القاهرة
« « «		المهدي السنوسي مطبعة ماجي طرابلس
« « «		برقة بين الأمس واليوم
منح خوري	:	التاريخ الحضاري عند توينبي دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠
نقولا زيادة	:	برقة الدولة العربية الثامنة دار العلم للملايين
		دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني عشر

د — مراجع افرنجية :

Adams , C . C.

Handbook On Cyrenaica . Cairo 1943

Cachia A. J.

Libya Under Ottoman Rule

Tripoli 1946

Denham , Dixon and Others

Narrative of travels and discoveries in Northern and Central Africa in the Years 1822 , 1823 , 1824

London Murray 1826

Depont , Octave and Compoloni

Les Confreries religieuses Musulmanes

Alger 1897

Duveyrier H.

La Confrerie Musulmane de Sidi Mohammed ben Ali es - Senousi

Paris 1886

Evans , Pritchard D.

The place of Sanusiya Order in the History of Islam

Tripoli

Evans - Pritchard E. E.
The Sanusi of Cyrenaica
Oxford , Clarendon
Press 1949

Ewald - Fall J. C.
Three Years In Libyan Desert
(Translated by Elizabeth Lee)
London 1913

Al - Hashaishi M. B. O.
Voyage au pays des Senousïa
Paris 1912

Hamilton J.
Wanderings In North Africa
London Murray 1856

Rinn L.
Marabout et Khouan
Alger 1884

Ziadeh N. A.
Sanusiyah Leiden E. T. Brill 1958

محتويات الكتاب



دار لبنان
للطباعة والنشر
هاتف ٢٥٧٤١١ - ٢٩٤٢٠٤ - ٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

١١٨٢/٣٢٠٠/٦٧